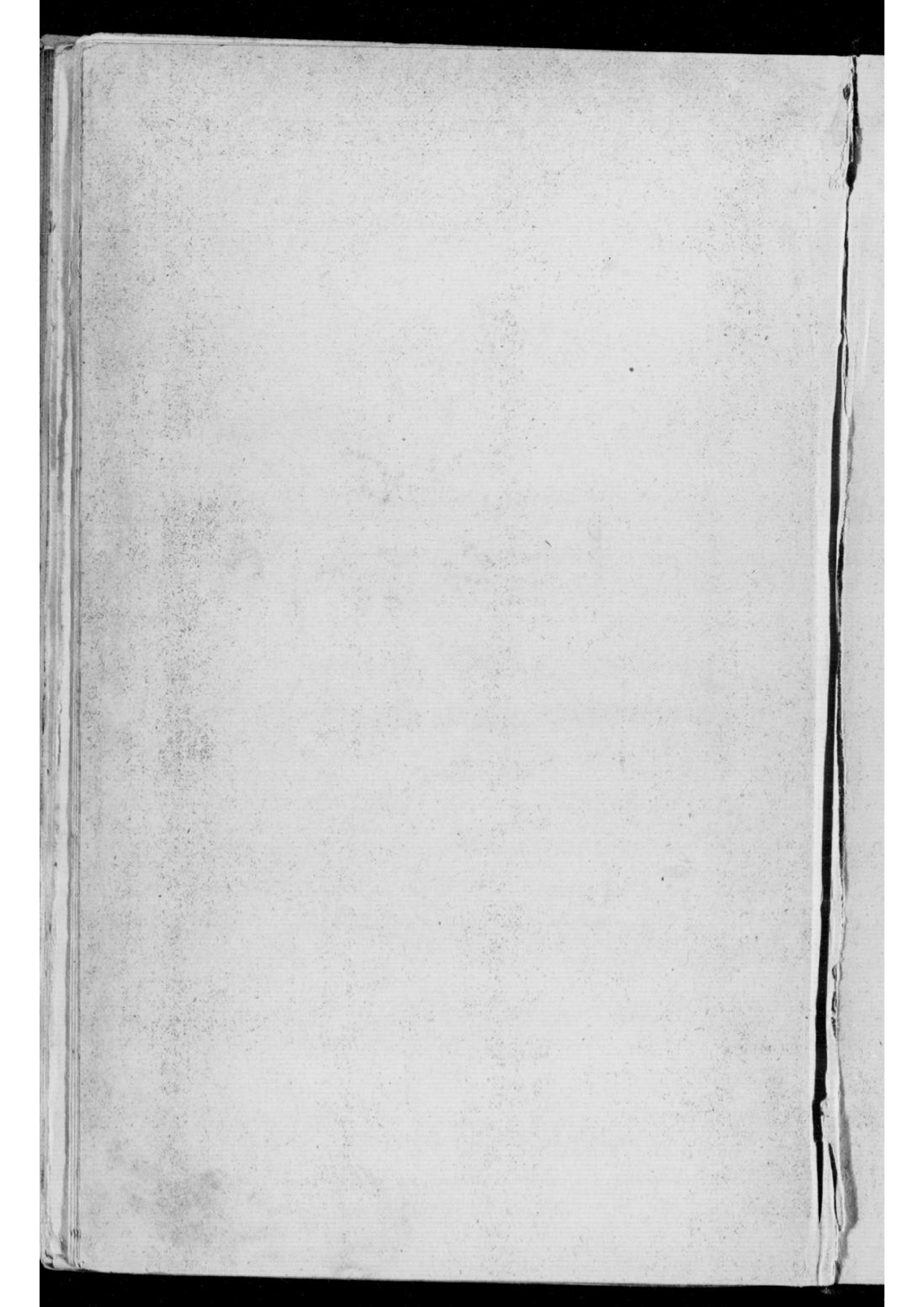
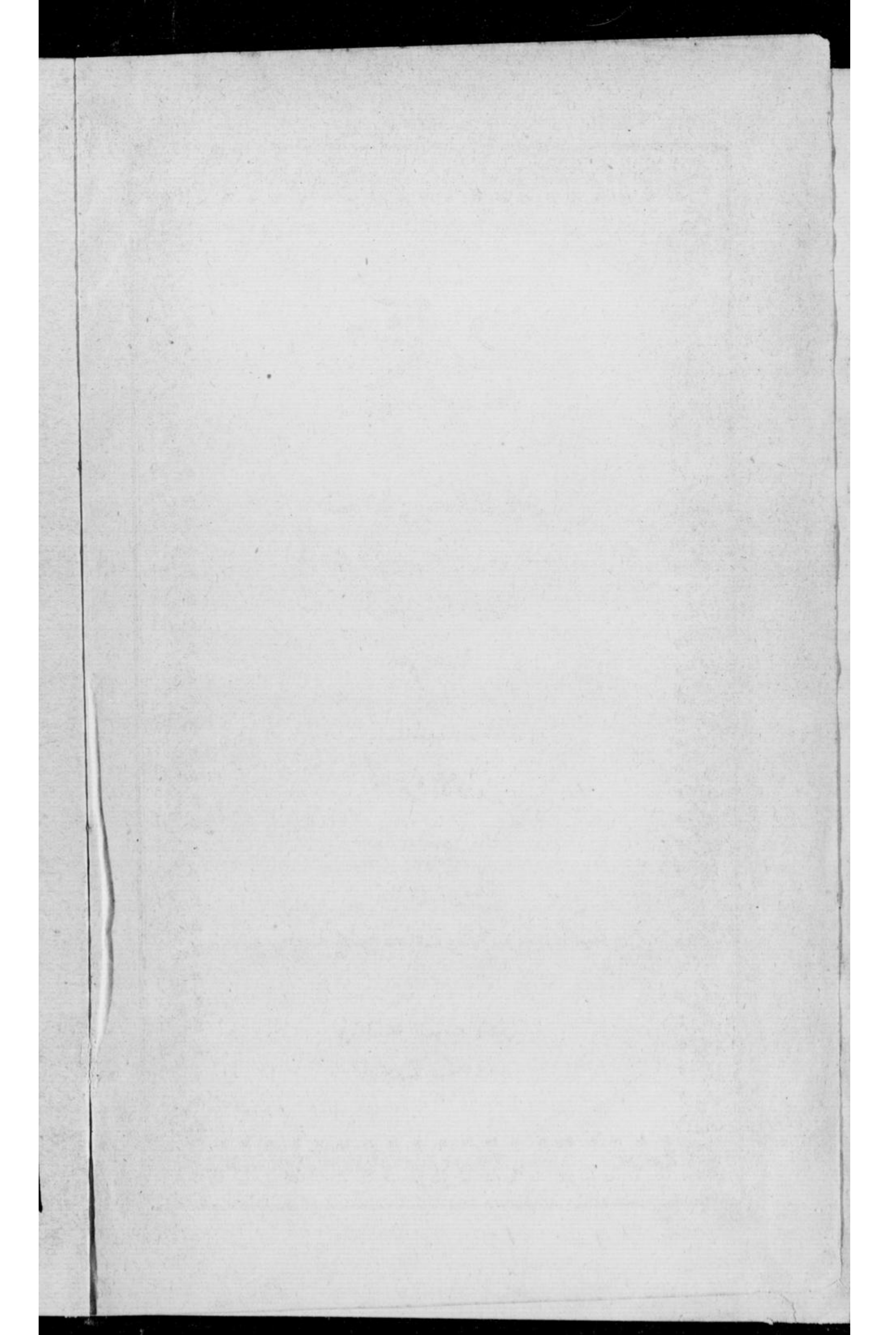
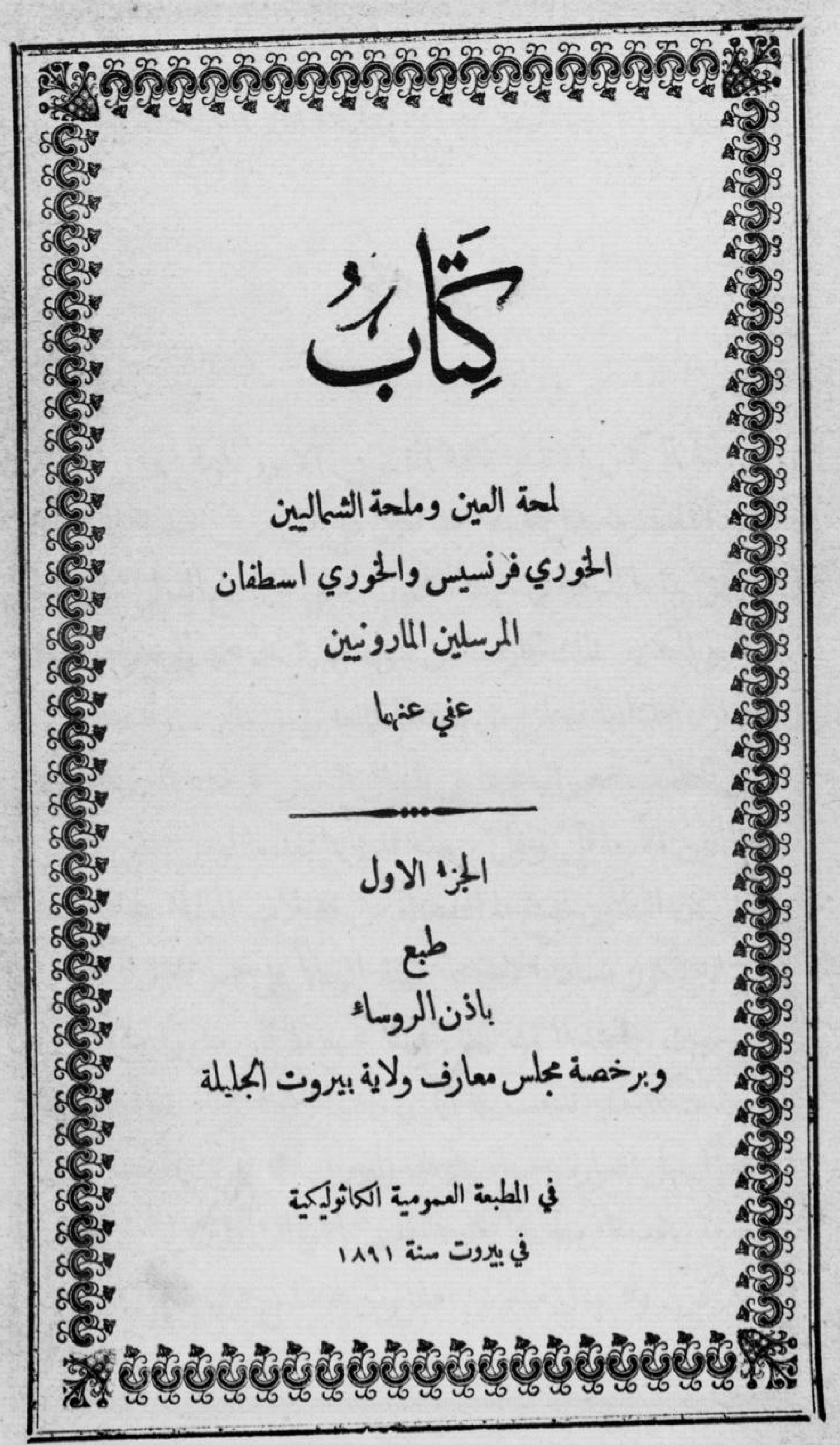






كتاب

لمحة العين وملحة الشماليين

الخوري فرنسيس والخوري اسطفان
المرسلين المارونيين
عفي عنهما

الجزء الاول

طبع
باذن الرؤساء
وبرخصة مجلس معارف ولاية بيروت الجليلة

في المطبعة العمومية الكاثوليكية
في بيروت سنة ١٨٩١

ذيل

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

مقدمة

انهُ لما كان الانذار بكلمة الله من الامور المهمة · وهو التجارة المتفردة المستلزمة بذل الهمة · قد تعين على كل من خدمة النفوس ان ينفق بها ما اذخره في خزانة الضمير · عسى ان يسمع القول ساقيمك امينًا على الكثير · تلك تجارة ما من سواها تجارة . فربحها الربح وخسارتها الخسارة . بيدَ انها تستلزم من نقود المطالعة رأس مال . وقد حال دون المطلوب قصر الباع عما يفي بالمقال اذ ليس في لغتنا العربية كتب بهذا الفن الاَّ ما قلَّ وجلَّ . ولذا قد رأينا بعد ما اوعز بعض الآباء الغيورين الينا ان نجمع ما التقطناهُ من فضلات العلماء بمدة عملنا الرسالة ليكون مساعدًا لاخوتنا كهنة الرعايا على كسر الخبز للبنين الروحيين . فعندها قد لبينا وعنينا بجمع ما كان منثورًا مشتتًا في وريقات كادت تذهب بها ايدي الضياع فجاء بحولهِ تعالى مجموعًا موجزًا سهل العبارة وسميناهُ ❊ لمحة العين ❊ لقرب مأخذه ودنوّ قطوفهِ . وقدمناه مطبوعًا كاحد فلسي الارملة آملين ان يقبل ويدرَس . ولا يهمل فيدرَس . هذا ومن عزمنا مع توفيقهِ تعالى ان نجمع

ايضاً ما يتيسر لنا جمعهُ ليكون مجموعنا قسمين . ونشفعهُ
بتوأمه تتمة الفلسين . فالمرجو من مطالعيهِ ان يلحظوه
لحة عاذر لا عاذل . فالاغضاء عن الملام .
من شئم الكرام . والله نسأل ان يعزز
كلمتهُ في افواه المنذرين لتثمر
ثماراً جيدة في نفوس
السامعين
آمين .

العظة الاولى

« في الازدراء بأباطيل العالم »

قال داود النبي يابني البشر حتى متى تحبون الباطل وتبتغون الكذب (مزمور ٤ ع ٣) ان جميع الخيرات الارضية باطلة خادعة لانها تعد محبيها بنيل سعادة كاملة فتصيرهم اشقياء في هذا العالم ومرذولين في العالم الآتي . فكل ما في العالم هو باطل الاباطيل كما دعاهُ سليمان الحكيم بقوله في ص ٢ من سفر الجامعة قد اتخذت اعمالاً عظيمة بنيت لي بيوتاً . وغرست لي كروماً . وانشأت لي جنات وفراديس . وغرست فيها اشجاراً من كل ثمر . وصنعت لي برك ماء لاسقي بها الخمائل النامية الاشجار . واقتنيت عبيداً وإماء وكان بيتي عامراً بالبنين . ورزقت مواشي كثيرة من الغنم والبقر . وجمعت لي فضة وذهباً مع اموال الملوك والاقاليم . واتخذت لي مغنين ومغنيات واصناف لذات بني البشر . وكلما ابتغته عيناي لم ادعه يفوتهما . ولا منعت قلبي من الفرح . ثم التفت الى جميع اعمالي فاذا الجميع باطل وكآبة الروح ولا فائدة في شيء تحت الشمس .

فهذا الملك الحكيم اعني به سليمان قد بنى لهُ بيوتاً رحبة وقصوراً شامخة وغرفاً واسعة . واقام فيها اعمدة غريبة عجيبة وزينها بالمفارش الثمينة والانية الفضية والذهبية التي يفاخر بها ملوك الارض وتمتع بكل ما عدَّده من خيرات هذا العالم . ولكن اذ تامل عاقبة الامور دعاها باطل

الاباطيل مفتكرًا بانهُ لابد من ان ياتيه الموت يومًا على حين غفلة فيطرحه من اعلى عرشه الى الحضيض و يربط يديه عن العمل ورجليه عن المسير ويسد فاهُ عن الكلام ويملأ عينيه من الظلام فلا يعود يرى شيئًا من كل ما عملت يداه فيخرجونه من منزله ولا يدعونه فيهِ يومًا واحدًا · ويذهبون بهِ الى القبر المعدّ لهُ فتكون جميع مساعيهِ باطلة وعناية الروح

وداود النبي يشبه حياة الانسان بالهبا الذي تذريه الريح عن وجه الارض وان ايامه تعبر كالظل لان شكل هذا العالم يزول كما قال الرسول (قرنتية ١ ص ٧ ع ٣١) فالازمنة يطرد بعضها بعضًا فلا يستقر يوم الى ان ياتي يوم بعده ولا ساعة تنتظر اخرى تعقبها كما ان يوم امس طرد الذي قبله كذلك هذا اليوم يدفع يوم امس وهكذا الايام يودع بعضها بعضًا . فمرور السنين والاعوام وكرور الشهور والايام ينذران بزوال العالم

فكل من دخل الى العالم يسلك في طريق الخروج منه . ومن حلّ في البطن يحل في القبر. وكل مولود من الحشى يكون مصيره الى الموت . ونرى في الناس على اختلاف مذاهبهم وحالاتهم واحدًا داخلاً العالم ليستوطن بهِ واخر راحلاً عنه . واحداً يجمع الغنى بالتعب والعنا . واخر يغادره ذاهبًا الى الرمس . فالغنى ينتقل من بيت الى بيت والفقر من منزلٍ الى اخر وكل ذلك باطل كالهبا

ان العالم عجلة سريعة السير تمرّ بالايام والازمنة مرّ السحاب · شروره وسروره كالهبا فلا خيره خير ولا شره شر · فالخصب والرغد

وسعة العيش تنقلب الى الفاقة . والافراح تتحول الى احزان · ومن يضحك اليوم سيبكي غدا . اليوم ترى ذينك العروسين فرحين بحفلة عرسهما وغدا تراهما باكيين على فرقة بعضهما بالموت · فالحزن التابع يفوق الفرح السابق . ومن كان رافلاً بالملابس الفاخرة متباهيًا بالرياش كالطاووس يعريه الموت من ثيابه ويكسوه القبر نسيج العنكبوت . ومن تولى المناصب بالكبرياء والظلم واوعب بيته من الفحشاء والاثم سوف تنقضي حياته ويسقط عن علو مقامه الى الحضيض ويبقى غناه في دنياه ولا يربح الا الشقا وكآبة الروح وفي الموت يتساوى الغني والفقير والملك والعبد ·

قال القديس افرام السرياني مررت يومًا على قبرٍ في قفر فسألت لمن هذا القبر فقيل لي هو لاحد الملوك العظماء وقد دفن فيه رجل فقير صعلوك بجانب الملك تعال وانظر لعلك تستطيع ان تميز جثة احدهما عن الاخرى . فوقفت على باب القبر المفتوح ولوائح الحزن على وجهي فنظرت اولاً جثة الفقير مطروحة في التراب ونسيج العنكبوت مخيم على راسهِ واسنانه عارية من الجلد وفمهُ مملو ترابًا . وعظامه مجردة من اللحم الذي استحال الى تراب ونتانة . فقلت واحسرتاه على الفقير كيف استحال حاله · وظننت ان الملك يمتاز هناك كامتيازه هنا ويكرم مثواه حيث حلَّ وتوفر جثته في الرمس كما كان موفرًا شخصه بالامس . غير اني قد خاب ظني لكوني رايته قد اعتاض عن عرش الملك والاعتبار بمكان الذل والاحتقار وعن الطيوب الذكية بالنتانة الردية · وعن

كرامته في هذا الزمن بهوتة الرمس والدمن فحينئذ تنفست الصعداء وقلت ايضاً ان حال الرفيع والوضيع في القبر سيان ولا يمتازان الاَّ بالاسم فقط فاذاً لا يتكل الغني على غناه ولا الملك على مجده ومقتناه لانه اذا مات لا ياخذ معهُ شيئاً ولا ينزل معهُ مجده (مزمور ٤٨ ع ١٨) وكل خيرات هذا العالم زائلة كاذبة

ان العالم اشبه شيء بالليل ومصنوعاته اضغاث احلامٍ تستغرق بها النفس وتطغى بالكذب والغرور · كما ان الحلم يخدع النفس بالمناظر الخيالية هكذا العالم يخدع الناس بشهواته الباطلة وقناياهُ السريعة الزوال · فقد يتفق لك احياناً ان ترى ذاتك بالحلم قائماً على عرش الملك متوشحاً بملابس شهية متعظماً بين قومك والناس يتقاطرون لاكرامك والسجود امامك ولكن متى مضى الليل واستيقظت من رقادك تتحقق ان كلما رأيته في الحلم كان كذباً . على هذا المثال العالم يضل الانسان بما فيه من الغنى والمساعي التي تزول كالحلم · وعندما يرقد الجسد رقاد الموت حينئذٍ تستيقظ النفس فتتذكر احلام العالم وتخجل منها وتمتلئ خوفاً ورعدةً من ظهور خفاياها المستورة · وترى ذاتها محاطة بالشرور والمساوي التي فعلتها وينكشف لها عن · خدائع العالم والغنى الذي اعدمها المجد الابدي . ينكشف لها عن السرقات والحسد والغش وباقي الرذائل التي تحدرها الى جهنم

فلا تنخدعنَّ بطول العمر فان ايامنا تجري جري الانهار فلا تقف ولا ترجع الى الوراء · كما ان الشمس لا تتوقف عن سيرها في كبد السماء ولا

القمر عن سيره هكذا حال حياتنا تجري سريعًا الى المنتهى

قال يعقوب الصديق لفرعون الملك ايام غربتي ماية وثلاثون سنة قليلة وردية (تكوين ص ٤٧) دعاها قليلة لانها بدقيقة واحدة تجوز وقال انها ردية لكثرة همومها وبلاياها التي تجلبها . وقال ايوب ص ٩ ايامي اسرع من الراكض هربت وذلك بغاية الصواب لان الراكض ولو اسرع الجري بما يفوق قوته فلا بد لهُ من الوقوف بعض الاحيان لاجل الاكل والنوم وما يضطر اليه الجسد · اما ايام الانسان فلا تزال هاربة على الدوام وتجري سريعًا الى الموت

ان الاشرار يدعون ايامهم ظلاً قائلين عبرت ايامنا كالظل كما سطر في سفر الحكمة ص ٥ اي كما ان الظل ينتقل سريعًا من مكانهِ هكذا ايام الانسان . ولك ان تختبر ذلك في خيالك الذي لا يثبت في موضعه دقيقة واحدة . ضع حدًا وقف في مكانك ثابتًا وانظر الى خيالك فتراه انتقل حالاً عن الحد المعين · فالظل لا يبرح منتقلاً من الصباح الى المساء والعمر يواصل انتقاله من صباح المولد الى مساء الموت

ان قياس عمرك مرسوم في كفك فلا تتجاوزه وتتبين لك درجات سني حياتك باصابعك . فالكف يبتدىء من الخنصر وينتهي في الابهام هكذا مبدأ حياتك ومنتهى شيخوختك . فالعمر يبتدىء من الخنصر المرموز بهِ عن زمان الطفولية ثم ينتقل الى الصبوة التي تقابل الاصبع الثانية وفي هذه الدرجة من السن يكون الانسان طايشًا متلاهيًا في اللعب وعديم التروي في اعماله · ثم الى الاصبع الوسطى وهو زمان الشبيبة المنتفخ

بالتشامخ وحب الرفعة . ثم الى الدرجة الرابعة من الاصابع وهو زمان الرجولية وفيه يصير الانسان رجلاً كاملاً فلم يبقَ سوى درجة واحدة ليتم القياس وهو زمان الشيخوخة المعبرعنه بالابهام ومنتهى الحياة. هذا هو مقياس حياتك ان فسح الله في اجلك واعطى لك ان تبلغ الى التمام . فلربما يحدث ان يغتالك الموت قبل الاوان فينقطع قياس حياتك اما بسماح الله الذي لاتدرك احكامه واما بسبب الخطية لئلا تمتد بامتداد الحياة . فاتضح لك ان حياتك في يدك ودرجات عمرك الخمس في اصابعك الخمس . فانظر الان باية درجة انت من العمر وبمقابلة اية اصبع فلا تعلم بايتها يكون انتهاء حياتك لان يوم الرب ياتي كاللص فياخذك من حيث لاتدري . ان ذاك الغني الذي اخصبت كورته وجمع غلات كثيرة واخذ يخاطب نفسهُ قائلاً يانفسي لكِ خيرات كثيرة موضوعة لسنين عديدة استريحي وكلي وتنعمي فحالاً سمع صوتاً يقول له ياجاهل في هذه الليلة توخذ منك نفسك والذي جمعته لمن يكون (لوقا ص ١٢ ع ١٧)

عش بالسلامة واذخر لنفسك الاعمال الصالحة التي ترافقك ومتى طلبتها تجدها لمنفعتك . ان المياه المنسكبة على الارض لاتقدر انت ان تشرب منها لكن اذا وضعتها في اناء تحفظ وتستقي منها متى اردت . فلا تدع مياه حياتك ان تتبدرق وتضيع منك بالغضب والجور والبغض فلا يعود يمكنك ان تجدها ولا تصرفها بارتكاب الفواحش والادناس لئلا تتحول الى مياه منتنة وتبتلعها الارض . فاحرص على ايام

الحياة التي لايوجد شي اثمن منها ولا احب منها الى الانسان · ولو استطاع لدفع عنها كل ما يملك في العالم واسرع الى ممارسة الاعمال الخيرية التي تكون لك نظير مجاري المياه تجدها عند انقضا الحياة . ارسل الى الله جدول حياتك الحقير حتى اذا انقطع من هنا يصير لك هناك بحر الحياة

الحياة قصيرة واخطارها كثيرة وقد شبهها داود النبي بزهر الحقل بقولهِ في المزمور (١٠٢) ايام الانسان كزهر الحقل . فزهر الحقل متعرض للحوادث والاخطار الشمس تيبسهُ والارياح تجففهُ . والناس تدوسهُ · والحيوانات تاكلهُ . والما يغرقهُ . والحر يحرقهُ . هكذا حياة الانسان مكتنفة بالمخاطر المتعددة والامراض المتنوعة والذي يرى للناس انهُ سيد ومتولي ففي لحظة واحدة ينتقل الى تراب ورماد

قال ايوب الصديق جازت ايامي مثل السفينة الحاملة الفاكهة (ص ٩) فما اطبق هذا التشبيه من كل وجه وبيان ذلك هو اولاً كما ان السفينة ما صنعت للوقوف بل للمسير والبلوغ الى المينا · هكذا الانسان ما خلق للراحة ودوام الاقامة في هذه الدنيا بل للتعب والعنا والسفر الى الابدية ولكن بواسطة عملهِ الصالح يبلغ الى مينا الخلاص ثانيًا مثلما ان السفينة لسرعة مسيرها لاتدع في مكانها اثرًا هكذا حياتنا لسرعتها لا يبقى لها ذكر فاين الملوك والسلاطين والاراكنة والقواد وغيرهم من اهل العالم الذين ذاع اسمهم وكان لهم اعظم شهرة فانهم قد بادوا وهلك ذكرهم مع الدوي ثالثًا كما ان مخاطر السفينة في البحر كثيرة اذا صدمت

او صادفت رملاً انتشبت فيه وانغرست . هيجان البحر يغرقها واللصوص تثقبها او تحرقها والرياح العاصفة تتلفها وتشققها وعلى هذا المثال حياة الانسان اذا امعنا النظر في الاخطار العايش فيها في بحر هذا العالم فنجد انواعاً كثيرة من الامراض والحوادث محدقة بهِ من كل جانب داخلاً وخارجاً . رابعاً ان السفينة لا تسافر الاَّ في الزمان الملايم حيث يكون الجو صافياً والبحر هادياً فتنشر قلوعها وتاخذ بالمسير بفرح وابتهاج . ولكن متى صدمها صخر تتحول الافراح الى احزان والراحة الى تعب وشقا والامن الى خطر . كذلك وقت ميلاد الانسان يكون فرح جزيل للاهل والاصدقاء ولكن متى فاجاء المولود احدى نوائب الزمان فيموت ويتغير كل شيء وتتحول الافراح الى حزن وبكاء والتهاني الى التعزيات . خامساً كما ان من يسافر بحراً في السفينة لايزال سائراً ولو كان نائماً او جالساً هكذا سفرنا في هذه الدنيا لا يزل متصلاً نايمين كنا او مستيقظين حزانى او مسرورين

وقد قال ايوب بالنص المتقدم ذكره كسفينة موسوقة فاكهة ولم يقل موسوقة حديداً او رصاصاً او شيئاً اخر ثقيلاً رزيناً وذلك لان ايام الانسان فارغة وباطلة ولا يبقى منها الاَّ رايحة يسيرة من الذكر فقط وتجوز مثل الفاكهة عند انطلاق السفينة وتزول رايحتها ايضاً حتى ان الانسان تمدحه الناس وقت جنازه ثم ينسى فيما بعد ولا يبقى لهُ ذكر اصلاً

قد جاء في ص ٢ من نبوة دانيال ان بختنصر الملك رأى في

الحلم تمثالاً كبيراً كثير البهاء واقفاً امامهُ وكان منظره هائلاً وكان راس التمثال من ذهب خالص وصدره وذراعاه من فضة وبطنهُ وفخذاه من نحاس . وساقاه من حديد وقدماه بعضهما من حديد والبعض من خزف . وفيما هو راءٍ اذ انقطع حجر لا باليدين فضرب التمثال على قدميهِ اللتين من حديد وخزف وسحقهما . فانسحق الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معاً وصارت كعفى البيدر في الصيف فذهبت بها الريح ولم يوجد لها مكان . اما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلاً كبيراً وملأَ الارض كلها

فهذا التمثال عبارة عن حالة الانسان في هذا العالم . لان الذهب عبارة عن شرف الاصل . والفضة عبارة عن الغنى وكثرة القنيات . والنحاس عبارة عن الجاه العالمي والوجاهة وشهرة الاسم . والحديد عبارة عن القدرة الشديدة . غير ان ذلك جميعهُ قايم على قدم من خزف اي قايم بانسان ليس هو غير تراب . والحجر المقطوع من الجبل عبارة عن الموت الذي يبيد الجميع ويملأُ الارض كلها . وبهِ ينسحق شرف الاصل والغنى والكرامات العالمية والقدرة الشمشونية والحكمة السليمانية ومجد العالم باسره

فما الفائدة اذاً من خيرات الدنيا التي لا يقدر الانسان ان يحصلها الا بالكد والجد ومتى وافتهُ المنية لا تردها عنهُ ولا يستطيع ان يصحبها معهُ فباطلاً يكون قد انفق في جمعها كل ما يملك من قوى نفسهِ وجسدهِ ومعظم اوقاتهِ واثمنها

فلم ينتفع ذاك الغني المذكور في الانجيل ما جمعهُ ... ولم تفد الملك اسكندر سطوتهُ ولا شيشرون افادته حكمتهُ ... فيابني البشر حتى متى تحبون الباطل وتبتغون الكذب اطلبوا الخير الحقيقي القائمة فيهِ سعادتكم الكاملة وان زاد غناكم فلا تضعوا فيهِ قلوبكم بل وجهوها الى الله مركز راحتها وتغايروا في الاعمال الصالحة في هذه الايام المقدسة وتقدموا الى عمل الرياضات بكل رغبة ونشاط لتنالوا غفران خطاياكم وتقبلوا البركة من الرب الذي منهُ كل عطية صالحة بشفاعة مريم البتول وبنعمة الاب والابن والروح القدس امين

العظة الثانية

« في الصوم »

قال يوئيل النبي في ص ١ عد ١٤ قدسوا الصوم

قد اخبرنا الانجيل المقدس ان سيدنا يسوع المسيح صام اربعين يومًا واربعين ليلة. وذلك لانهُ تعالى اراد ان يفي بقمع جسده بالصوم عن آدم الذي اكل من الثمرة المحرمة وعن حنجرة ذريتهِ كلها وتنعمهم الغير الجائز ولكي يحركنا بمثالهِ على مثل هذا الوفاء بواسطة الصوم الذي هو بمنزلة اجنحة للنفس لترتفع بهِ الى فوق وترتاح الى الامور السماوية. ومن حين صام السيد المسيح ابتدأ الصوم الاربعيني بالتقاليد الغير

المنقطع من عهد الرسل الى الان . والكنيسة المقدسة تلزم اولادها
بهذا الصوم لكي يقدموا لله عشر ايام السنة ويبلغوا عيد الفصح وفرحه
المنتظر بصوم الاربعين يومًا كما بلغ اليهود ارض الميعاد باثنتين
واربعين محلة . وكما اننا نُفينا من الفردوس لاننا ما صمنا فلنصم لترجع
اليهِ كما قال القديس باسيليوس لان الصوم يردنا الى الحال التي سقطنا
منها في الفردوس الارضي بشخص آدم لاننا بشراهة آدم خسرنا ثلاثة
اشياء اولاً النعمة بتمرد النفس على الله ثانيًا ما كنا نمتلكهُ من
التسلط على ذواتنا بتمرد الجسد على النفس ثالثًا عدم الموت بواسطة
الحرب الدائمة ما بين العناصر المركبة منها اجسادنا والحال ان الصوم
يصلح بعون نعمة المسيح هذه الخسائر الثلاث وعليهِ وجب ان نتكلم
مبرهنين لزوم الصوم وفوائده وماهيتهِ وقبل الشروع : :

ان الصوم لازم للخلاص . يثبت ذلك اولاً من البرهان الطبيعي
لان الماء لا يرتفع الى العلاء مالم نحصره ونضايقه رغماً عن طبعهِ . واوتار
الموسيقى لا تبدي صوتًا شجيًا ما لم تحصر بالشد . والكرمة لا تجود بالثمار
مالم تكسح والعود لا تفوح رائحتهُ الذكية الاَّ بالنار هكذا الانسان
لا يرتفع الى العلاء ولا يبدي اصوات التسابيح الشجية ولا يعطي ثمارًا صالحة
ولا تفوح منهُ روائح الفضائل الا بكبحهِ بالصوم والبكاء والنوح

يثبت ثانيًا من القديمة ان الملوك والانبياء والكهنة كانوا يفرضون
صومًا في ابتداء كل عمل مهم كقول ارميا قد نودي بصوم امام الرب
لشعب اورشليم وكل الشعوب الآتية من مدن يهودا (ص ٣٦) . وقد امر

الله موسى ان يقدس ذاتهُ ويقدس الشعب معهُ بالصوم قبل ان يدنو من جبل سينا ليقتبل الوصايا . وقال رافائيل الملك لطوبيا جيد هو الصوم مع الصلوة (ص ١٢ ع ٨) وايليا النبي صام اربعين يوماً (ملوك ٣ ص ١٩ ع ٨) واستير التت على راسها رماداً وذللت جسدها بالصوم ويهوديت كانت تصوم جميع ايام حياتها ما خلا السبوت ورؤوس الشهور واعياد آل اسرائيل (ص ٨ ع ٦) . وذكر في يونان هكذا (ص ٣) وامر ان ينادى ويقال في نينوى بقضاء الملك وعظمائهِ لا يذقْ بشرٌ ولا بهيمة شيئاً ولا ترعَ ولا تشرب ماء . وبنوا اسرائيل صاموا سبعة ايام لما دفنوا جثة شاول وبنيه (ملوك ١ ص ٣ ع ١٢)

يثبت ثالثاً من الجديدة ان المسيح لم يبطل شريعة الصوم بل مارسها بذاتهِ وامر بها بقولهِ متى صمتم فلا تكونوا مثل المرائين (متى ص ٦ ع ١٦) وبقولهِ ايضاً ان هذا الجنس لا يخرج الاَّ بالصوم والصلوة . ويذكر لوقا ان حنة النبية كانت متعبدة لله بالاصوام والصلوات ليلاً ونهاراً مدة اربع وثمانين سنة (ص ٢) والقديس بولس يحرض المومنين على الصوم بقولهِ فلنظهر انفسنا كخدام الله بالصبر والصوم (قرنتية ٢ ص ٦)

يثبت رابعاً من تعليم الكنيسة التي لها حق ان تفرض شريعة ملزمة بكل ما هو موافق للعبادة ومفيد للخلاص كما هي شريعة الصوم بدليل قول الرب من سمع منكم فقد سمع مني (لوقا ص ١٠)

يثبت خامساً من الرسوم انهُ كان في هيكل سليمان مذبحان احدهما داخل يقدم عليهِ البخور والثاني خارج تقدم عليهِ الذبائح فيلزم الانسان

الذي هو هيكل الروح القدس ان يكون فيه مذبحان الواحد داخلي وهو القلب حيث يتقدم بخور الصلوة كقولهِ تعالى اذا صليت ادخل مخدعك اي قلبك (متى ص ٦) والثاني خارجي حيث يتقدم الجسد كذبيحة بواسطة الصوم وبهذا المعنى يقول الرسول لاهل رومية انني اناشدكم باحشاء يسوع المسيح ورحمة الله ان تقيموا اجسادكم ذبيحة مقدسة حية مقبولة لله فلكل ذبيحة يطلب مذبح تقدم عليهِ ومادة تتقدم وكاهن يقدمها وسكين ونار. فهذه الذبيحة مذبحها القلب ومادتها الجسد الميت عن الخطية والحي بالنعمة وكاهنها الارادة وسكينها الصوم والاماتة ونارها المحبة

يثبت سادساً من الامثال اولاً كما ان الرق لا تسهل الكتابة فيه ما لم يكن صقيلاً مجرداً من اللحم هكذا الانسان لا يطبع الله فيهِ حكمتهُ ومواهبهُ الالهية ما لم يكن مجرداً من العواطف ومصقولاً بالصوم والتقشف. ثانياً ان الريشة اذا كانت غير ملتصقة بشيء ترفعها ادنى ريح عن وجه الارض وبالعكس اذا كانت مبتلة فانها تضحي ثقيلة هكذا الانسان المنهمك باللذات فلثقلهِ لا يرتفع الى العلاء ولذلك قال السيد لهُ المجد احذروا لئلا تثقل قلوبكم من الشبع. ثالثاً ان العود المتشبع من الرطوبة اذا وضع في النار فلا تؤثر فيهِ حتى تنزع عنهُ الرطوبة والجسد الشبعان لا تؤثر فيهِ نار محبة الله حتى يجف بالصوم

يثبت سابعاً من الاتفاق العام اذ نرى جميع الملل على اختلاف مذاهبهم يعدون الصوم سنة لازمة ما خلا الذين قال عنهم الرسول

انهم يجعلون بطونهم آلهتهم

اما فوائد الصوم فمنها ما يفيد الجسد ومنها ما يفيد النفس . فان الصوم الاربعيني المفروض في فصل الربيع يفيد الجسم عافية لان الدم يغلي في الربيع مع بقية الاخلاط التي لو لم تخمد بالصوم لسببت حميات جمة وامراضاً ثقيلة . ونرى ان الحيوانات الغير العاقلة بمجرد شريعة غريزية تصوم مراعاة لصحة اجسادها كالجراد ودود القز والحية . وقيل ان الدبة اذا اعتراها وجع الامعاء تلبث اربعين يوماً بدون اكل والنسر يجدد شبابهُ بالصوم

والزرع النابت في مستنقع الماء لا يعيش لامتناع حرارة الشمس عنه بسبب كثرة الرطوبة فان رمت ان ينمو فاقطع الماء عنهُ واسقهِ عند اللزوم هكذا الجسد المنغمس في مياه الشراهة قلما يعيش. وجاء في الحديث ما ملأ ابن ادم وعاء شراً من بطنه وقال بعض الاطباء ان الابتلاء من الامتلاء والاشجار الكثيرة مائيتها تربي في جوفها سوساً يفسدها هكذا المخصب من الاكل والسكر فانه سريع الانحلال لوجود عالم كثيرة تتربى فيه وتفنيه . قال الحكيم (ص ٢٧) القنوع يزداد حياة ويشهد لنا بذلك ايرونيموس وانطونيوس وغيرهما كثيرون من الرهبان والنساك اللذين عاشوا قامعين اجسادهم بالصوم والتقشف حياة اطول من حياة كل مترفه

قال القديس باسيلوس لقد نُفينا من الفردوس الارضي لاننا ما صمنا فيجب ان نصوم لنرجع الى الفردوس السماوي لان الصوم يرد لنا

الخسائر المسببة من عدم صوم ادم فانهُ يصالحنا مع الله لانهُ هو الكفارة التي ترد لنا النعمة ويتضح لنا ذلك من صوم اهل نينوى الذين كان الله حتم بانقلاب مدينتهم بعد اربعين يوماً و بواسطة صومهم عفا عنهم

قال الذهبي فمه صم لانك خطئت . وصم لئلا تخطأ صم لتنال النعم من الله صم لكي تحفظها بعد نوالها . فالمانع لتجديد الصلح مع الله هو الاسية والعقاب المتوجب على مرتكبها والصوم يزيل الامرين لانهُ يعدنا لقبول التبرير من الخطية ويفي ما نحن مديونون بهِ . قد لحظ الطبيعيون ان المرجان يتصلب مقابل السماء هكذا التائب متى راى ما ياتيه من السماء من صبر الله وطول اناته يتصلب قلبه على ذاته ويقسو عليها بالصوم فاذن صم لانك خطئت

صم لئلا تخطأ قال برنردوس ان الصوم لا يمحو خطايانا فقط بل يوقينا من الخطء فيما بعد. قال احد العلماء ان النسر لا يصير ابيض الا بصوم مستطيل هكذا النفس تحصل على بياض النعمة المبررة بواسطة الصوم فصم اذن ليلا تخطأ

صم لتنال النعمة فالصوم يزيد النفس عناء وتعباً فاذاً يزيدها نعماً فصم لتحفظها . فقد قيل ان النباتات ذات الرائحة الذكية كالزنبق لا تحفظ عذوبة عرفها اذا غرست في ارض سمينة هكذا من المحال ان الجسد المتنعم يحفظ ما ربحهُ من النعم . فبالصوم يتصالح الانسان مع الله ويصير صديقهُ ويحب التقرب اليهِ . ان موسى النبي بعد صومهِ طلب من الله ان يريه وجههُ قائلاً ان كنت وجدت نعمة فارني وجهك. واما آدم

فلما اكل فاختفى عن وجه الله. ان الذين يملأُون بطونهم يشبهون السفن المشحونة احمالاً ثقيلة الغير المناسبة للحرب لثقلها واما الصائمون فيشبهون سفن الحرب التي لا يوجد فيها الا اسلحة وجنود متسلحون لامكان ادارتها كيفما لزم الامر بخلاف الاولى فاذًا عامل جسدك معاملة فارس نشيط لفرسهِ الشموس فانهُ يكبحهُ باللجام فاكبح جسدك بلجام الصوم ليخضع للروح ان الجسد بدون الصوم كحوت طوبيا في الدجلة الذي لما كان في الماء كاد يبتلعهُ واذ جذبهُ الى اليبس اخذ يخبط فقوي عليهِ طوبيا (ص٦) فاجتذب جسدك بالصوم من مياه اللذات والتنعمات فتراه يخبط طارحًا اسلحتهُ فتقوى عليهِ الروح. فالصوم يطيل العمر في هذه الحيوة لتزيد الاستحقاقات. قال الحكيم كثيرون بادوا وماتوا لاجل الشراهة واما القناعة فتطيل الحيوة

يعتذر البعض قائلاً لا اقدر ان اصوم لان الصوم ينحل جسدي ويؤذي معدتي فيجاوبهُ القديس ايرونيموس قائلاً خير لك ان تمرض معدتك ولا تمرض نفسك وان ترتجف ركبتك ولا تتزعزع عفتك فاقمع جسدك واستعبده لئلا ترذل. قال الحكيم من يربي خادمهُ بالدلال يصيره متمردًا واذا رأيت بيت جارك مشتعلاً بنار فتهدمهُ لئلا تمتد منهُ النار الى بيتك فاهدم بيت جسدك بالصوم والاماتة لئلا تمتد منهُ نار الشهوة الى نفسك. اطرح صنم الجسد فيظهر التنين المختفي تحتهُ واقتلهُ كما صنع دانيال بالصنم البابلي (دانيال ص ١٤). والبعض الاخر يقول فلنأكل ونشرب وغدا الموت فهذا يدل لنا انهُ لافرق بينهُ وبين البهائم ويحسب ان

يحصى مع الذين قال عنهم الرسول بطونهم آلهتهم ومنهم ذاك الغني الذي
كان يلتذ كل يوم وقبر في الجحيم · واصابهُ ما يصيب الفيل حينما يرصدهُ
التنين ليكون امتلأً من الاكل فيثب عليهِ ويقتلهُ . ومنهم من يحتج بقول
المسيح الذي يدخل الفم لا ينجس الانسان فالجواب عليهِ من ثمرة آدم
التي نجستهُ وذريته

ان القديس اغوسطينوس قسم الحياة ثلاثة اصناف ملكية وبشرية
وبهيمية . فالبهيمية كلها ارضية وتهتم في اتمام الشهوات فقط . والملكية
كلها سماوية وتهتم فيما لله لا غير واما البشرية فبين بين لان الانسان
مركب من الطبيعتين فان تصرف بمقتضى الروح فاشبه بالملاك وان
عاش بمقتضى الجسد فاشبه بالبهائم . وان اعتذرت بان الصوم شاق فلمَ
تحمل مرارة الادوية واوجاع الكي لصحة جسدك . عامل جسدك معاملة
الطبيب للمريض لا تنحِ لهُ ما يؤذيه ولو طلبهُ باجتهاد وقدم لهُ ما ينفعهُ
ولو لم يرضَ بهِ . من دارى اسدًا ربما آنسهُ ومن دارى جسده اكثر
تنمره

وليكون الصوم مقبولاً يجب على الصائم ان يكون ناجيًا من الشر
لان البخور الممتزج بالاقذار تزول عذوبة رايحته وتفوح منهُ رائحة
كريهة فكيف يسر الله بصوم تتقدمهُ الخطية وترافقهُ وتتبعهُ . تتقدمهُ كما
يجري ايام المرافع اذ تقضى بالبذخ والسكر فلا تعود تكفي عنها كفارة
ايام الحياة وماذا ينفع الدواء اذا سبقهُ ما يبيد قوته . قال الحكيم واحد
يبني واخر يخرب ماذا ينتفعان . وترافقهُ كالذي ابتدأ الصوم وهو في

حال الخطية ويصرفهُ في هذه الحال وينتظر ايام الفصح لكي يرتد الى الله بسر الاعتراف الذي كان ينبغي ان يسبق الصوم ومثل هذا مثل من يجمع الجواهر في كيس مثقوب اذا فتحهُ فلا يجد فيهِ شيئًا . نعم يمتنع عن الاكل لكن لا يمتنع عما لا يجوز اصلاً كالتجديف والحلف الخ . ان الاسرائيليين كانوا يصومون مثل هذا الصوم لكن الله لم يقبلهُ ولما سأَلوهُ قائلين لماذا صمنا ولم تنظر فاجابهم انكم في ايام صومكم كانت توجد مشيئتكم كيف اسرّ بصوم ممتزج بسم ارادتكم المتمردة عليّ (اشعيا ص ٥٨)

فالمؤْمنون الاولون كانوا يصومون صومًا مقبولاً لدى الله اذ يحتملون مشقات الصوم بسرور وبهجة كما اخبر عنهم بارونيوس انهُ في سنة ٥٤٥ صار غلاء عمومي في بلاد الشرق فرام يوستينيانوس الملك ان يباع اللحم في الصوم الكبير في القسطنطينية ليجد الناس ما ياكلونهُ فلم يرتضِ احد باكل اللحم بل اختاروا ان يموتوا ولا يتعدوا وصية الصوم

ان الصوم ينير العقل ويرقيهِ الى التأمل في الامور السماوية فان المصريين هم اول من بحثوا عن السماء والكواكب واكتشفوا على حركاتها وتأْثيراتها لانهم في مكان خالٍ من السحابات الكثيفة وفي حال صحو دائم وهكذا من اراد ان يتأَمل الامور العالية الالهية ومفاعيلها العجيبة يجب ان يكون بعيدًا عن سحابات وبخارات الشراهة التي تبرقع العقل . فاذًا قدسوا هذا الصوم المبارك الذي فيهِ يفيض الله علينا خيراتـه

وبركاته ونلتمس منهُ كلما نحتاجه فلا دعاء فيهِ الا مسموع ولا عمل فيه الا مرفوع ولا خير الا مجموع ولا شر الا مدفوع فانهُ مفتاح السعادة ومصباح العبادة ٠٠٠

العظة الثالثة

« لاحد الابرص »

واذا بابرص جاء اليه فسجد لهُ وقال يارب فان شئت فانت قادر على ان تطهرني (متى ص ٨) قال كرنيليوس الحجري في تفسير هذه الاية ان البرص من الامراض العضالة العديمة الشفاء والمعدية ولهذا امر ناموس موسى وسائر الشرائع بالابتعاد عن البرص ومعاشرتهم لانهم يعدون الاصحاء بمجرد لمسهم ورائحة قروحهم الكرهة وتنفسهم المنتن لان مناظرهم تصير ذات شناعة ويتساقط شعرهم وتنتفخ مناخرهم والسنتهم وتتجرد عظامهم وينتن نفسهم

قال القديس اغوسطينوس ان البرص بالمعنى الرمزي هو الخطية ذات العدوى تفعل في النفس ما يفعلهُ البرص في الجسد اي انها تبعد الخاطي من صحبة القديسين والملائكة وتنفيه من المدينة السماوية الى المقابر الجهنمية وتجعل نفسهُ منتنة ممقوتة من الله وتخسره كل اعماله الصالحة التي تتساقط استحقاقاتها تساقط شعر الابرص وعليه قد توجب

ان نتكلم عن شر الخطية ومفاعيلها ووجوب الابتعاد منها وعلاجها وقبل ذلك ....

قال حزقيال النبي (ص ١٨) النفس التي تخطي تموت . ان الخطية تميت النفس باعدامها اياها النعمة الالهية وتجعلها اهلاً للعقوبات الجهنمية ولهذا قال القديس اغوسطينوس ان حياة الجسد النفس وحياة النفس نعمة الله فكما ان الجسد بغير النفس ميت هكذا النفس بغير نعمة الله ميتة لان الخطية تفصل النفس عن الله كما ان الموت يفصل النفس عن الجسد . لو امكننا ان نرى نفس الخاطي لكنا نرى مكتوبًا فيها ما دوّنه يوحنا في سفر الرؤيا بقوله لاحد الخطاة لك اسم حيّ وانت ميت (رؤيا ص ٣) ولكن قلما يعتبر الناس هذا الشر المهول جداً لان مفعول الخطية هذا هو باطن فلو كان المتكلم بالتجديف يتورم لسانهُ والسارق تشل يدهُ والخائن يصرع عقلهُ والدنس يضرب جسده بابرص لما كنا نرى في العالم كثيراً من المجدفين واللصوص والدنسين الخ . ان الخطية تصنع بالنفس ما تصنعهُ الصاعقة لانها تارة تفني السيف وهو داخل غمده من دون ان تؤذي الغمد وتارة تمتص الخمر من انائه من دون اذية الاناء واحيانًا تذيب الذهب والفضة من دون ان تضر بالاناء . قد ذكر عن امر غريب وهو ان ثلاثة أكارين حلوا تحت شجرة ليستظلوا ويغتذوا واذا بزوبعة ثارت وتبعها صاعقة انقضت عليهم بشدة فماتوا ولبثوا في الخارج كانهم احيا اذ كان بان ان احدهم يأكل والاخر يشرب والاخر يضحك وهكذا تصنع الصاعقة الجهنمية اعني الخطية

الميتة فانها تنقض على الذي يأكل من المال الحرام وعلى من يشرب كاس بابل وعلى الضاحك والمستهزئ بخلاصه فتميت نفوسهم وتدع اجسامهم على ما كانت فتبلغ بالانسان ولو ملكًا نظير داود الى الرذل الكلي ولكنها تترك كلما يخصهُ على حاله مثلاً الصولجان في يدهِ والتاج على راسهِ . فقد سمى ارسطاطاليس الموت الطبيعي اعظم البلايا فلو كان لهُ نور الايمان لكان دعا موت النفس بالخطية اعظم البلايا واخوف من موت الجسد لان الموت الطبيعي اولاً يعدم الجسد جماله الاول واما الخطية فتعدم النفس صورة الله التي لا يوجد اجمل منها اذ صيرت الملاك شيطانًا ولذا يرثي ارميا النبي نفس الخاطي قائلاً كيف تغير بهاء بنت صهيون ولونها الحسن . كيف اسود الذهب (مراثي ص ٤) وكفى دليلاً ما فعلته بسيدنا يسوع البهي في الحسن افضل من بني البشر الذي لم ياخذ الا صورة الخطية فقط كما قال عنه اشعيا حقًا احتمل اوجاعنا وحمل امراضنا ونحن حسبناه كابرص . ثانيًا ان الجسد يخسر بالموت هذه الارض الشقية ولكن النفس تخسر بالخطية السعادة الابدية والاتحاد بالله كقول اشعيا ان خطايا كم فرقت بينكم وبين الهكم (ص ٥٩) لانها تتوسط بين النفس وخالقها كحائط حاجز وقد اجاد احد العلماء بايضاحه مادة هذا الحائط وكيفية قيامه بقوله انه يتكون من طين الزنا ومن قرميد البخل وتبن المجد الباطل ومن كلس حب الدنيا وحجر الشح . واساسه الخوف من تعب التوبة وعرضه مداومة الخطية وعلوه الطمع في رحمة الله وكما ان الحائط يمنعك عن مواجهة صديقك وعن النظر

اليه وطلب اسعافه ومحادثته هكذا الخطية فانها تمنع نفس الخاطي عن مشاهدة الله والنظر اليه وطلب اسعافه وما هو ابلغ من ذلك فان الخطية تجعل الخاطي عدواً لله وكيف حال من كان الله عدواً له . ثالثاً ان الجسد بالموت يخسر رفقة البشر والنفس البرصاء بالخطية تخسر رفقة الملائكة . قال القديس باسيليوس كما ان الدخان يبدد النمل هكذا الخطية تبعد عن الانسان ملاكه الحارس الذي كان يصونهُ من المخاطر ويدفع عنهُ ما يضر النفس والجسد وينيره باطناً ويسوقهُ الى كل عمل صالح ويبعد عنهُ وساوس الابالس ويقدم صلواته لله ويصلي متضرعاً من اجله فنرى كيف يكون حال سفينة بلا مدبر وعجلة بين الصخور وما من معتنٍ بها ونعجة بلا راعٍ واعمى بلا قايد وطفل من غير هادٍ هذه حال اولئك الذين اغاظوا ملاكهم الحارس وابعدوه عنهم بخطيتهم . رابعاً اذ يموت الجسد يعدم كل خيراته ولا يعود يمكنهُ ان يعمل عملاً هكذا النفس بالخطية تخسر كلما استحقتهُ بافعالها الصالحة ويشهد بذلك حزقيال النبي بقولهِ (ص ١٨) اذا ارتد البار عن بره وعمل الاثم فلا تذكر له جميع عدالاتهِ . فلا تذكر له الاصوام التي مارسها ولا الصدقات التي وزعها ولا المسابح التي قالها ولا القداسات التي حضرها ولا الاعترافات والمناولات التي مارسها . . . فنرى كم يكون حزن انسان وضع كل آمال معيشتهِ وموءنة اولاده وايفاء ديونه في بستان له قد تعب فيهِ وجدَّ وغرس فيه من كل انواع الاشجار الحسنة وكانت اشجاره قد اثمرت ثماراً جيدة اذا دخل يوماً ذاك البستان ورای تلك الثمار

جميعها ساقطة على الارض مخدشة مهترية لاتصلح لشيء اصلاً وكان سبب سقوطها ريحاً شديدة هبت على ذلك البستان فكسرت اغصانه وصنعت بهِ ما صنعت فلا شك في انه يصفق كفاً على كف قائلاً وا سفي من اين اني ديوني واعول عيالي الخ . غير ان الضرر الذي تسببه الخطية للنفس هو اعظم من ذلك اذ انها لا تعدمها فقط ثماراً اشرف واجل من تلك بعد ان كانت بلغت اوان القطف بل انها تقتلع شجرة الاعمال الصالحة من اصولها اي انها تستأصل من القلب ملكات الفضائل المسيحية وتضحي النفس عاجزة عن ايناع ثمرة واحدة تستحق الحياة الابدية لان الخاطي مهما عمل وهو خاطئ لا يفيده الخلاص كقوله تعالى بلسان اشعيا عن الخطاة نسجهم لا يصير لباساً ولا يكتسون باعمالهم (ص ٥٩) وكقوله بلسان حجي النبي زرعتم كثيراً وحصدتم قليلاً والذي جمع الاجرة وضعها في كيس مثقوب . خامساً متى مات الجسد انتن وتنفر الناس من النظر اليه ولهذا قالت اختا اليعازر ياسيد ان له اربعة ايام وقد انتن لانهما كرهتا ان يراه المسيح بهذه الحالة وهكذا النفس فانها بالخطية تصير منتنة و يكره الله و لا يكنه النظر اليها . ﴿خبر﴾ اتفق ان ملاكاً وحبيساً سافرا معاً فاذ مرا بجثة منتنة فالحبيس سدَّ انفه واما الملاك فلم يظهر علامة اشمئزاز ثم التقيا بشاب مزين بالثياب الفاخرة المرشوشة بالعطور فالملاك حوَّل وجهه وسدَّ انفه لانه شعر بالرائحة الكريهة المتبعثة من نفس ذاك الشاب الخاطي كما اوضح ذلك للحبيس المذكور بقوله له اعلم ان رائحة تلك الجيفة المنتنة احب الى الله والى ملائكته من رائحة نفس خاطية . فكيف

حال تلك النفس التي اننتنت بالخطية ليس من اربعة ايام فقط نظير العازار بل من سنين وشهور ولا بخطية واحدة نظير هذا الشاب بل بخطايا متعددة برصاء منفية عن القديسين

قد ذكر الكتاب المقدس في الاصحاح الخامس من سفر الملوك ٤ عن نعمان رئيس جيش ملك آرام انهُ كان رجلاً عظيماً جبارَ بأسٍ وكان بهِ برص . فلما بلغهُ ان اليشع النبي يصنع المعجزات والعجائب شخص من الشام الى ارض اسرائيل مصحوباً بكتاب من ملكهِ مقبلاً بخيلهِ ومراكبهِ فاتى ووقف على باب بيت اليشاع . فبعث اليهِ اليشاع رسولاً يقول لهُ امضِ واغتسل في الاردن سبع مرات فيعود اليك لحمك وتطهُر . فاستشاط نعمان غيظاً ومضى وهو يقول كنت احسب انهُ يخرج ويقف ويدعو باسم الرب الههِ ويردد يده فوق الموضع ويبرىء الابرص . أليس ابانة وفرفر نهرا دمشق خيرًا من جميع مياه اسرائيل أفلا اغتسل فيهما واطهر . وانصرف راجعاً وهو مغضب . فتقدم اليهِ عبيده وقالوا لهُ يا ابانا لو خاطبك النبي بامر عظيم اما كنت تفعلهُ فكيف بالحري وقد قال لك اغتسل واطهر . فنزل وانغمس في الاردن سبع مرات كما قال رجل الله فعاد لحمهُ كلحم صبي صغير وطهر من برصهِ . فعلى الخاطي المبتلي ببرص الاثم ان يقتدي بنعمان الشامي ويذهب الى الكاهن طالباً ان يشفيه من برصهِ الروحي ويمتثل لقولهِ ويغتسل بمياه التوبة ولا يتفلسف نظير نعمان قائلاً اليس نهر فرفر في دمشق لاغتسل فيهِ . اي لا يقل الخاطي ماذا يفيد الاعتراف يمكن ان تغفر الخطايا في

غيره مثل الصوم والصدقة الى غير ذلك من الاعمال المبرورة فان المسيح نفسهُ لما تقدم اليهِ الابرص طالبًا الشفاء قال لهُ امضِ ارينّ للكاهن نفسك ولاتكتم ذنبك عن معلمك يا مجزي فيحل عليك البرص الذي كان على نعمان وتلبس اللعنة مثل الثوب وتدخل في امعاك مثل الماء وتخرق في عظامك مثل الزيت كما قال داود النبي في مزموره (١٠٨) الذي بهِ تنبأ عن يهوذا وعن كل خاطي نظيره بقولهِ ليقف الشيطان عن يمينهِ واذا حوكم فليخرج مخصومًا ولتكن صلاته خطية وايامهُ قليلة ووظيفتهُ ياخذها اخر ليكون بنوه ايتامًا وامرأته ارملة ويستعطوا ويطردوا من منازلهم ليفحص الغريم عن كل شيءٍ لهُ ولتخطف الغرباء تعبهُ ولا يوجد لهُ ناصر ولا من يترأف على يتاماه وفي جيل واحد يمحى اسمه عن وجه الارض . احب اللعنة فاتتهُ ولم يشأ البركة فتباعدت عنهُ . فهذه كلها تداهم الخاطي المضروب بالبرص اذا لم يتقدم الى يسوع المسيح ويسجد امام الكاهن نائبه قائلاً يارب ان شئت فانت قادر ان تطهرني . فيسوع المسيح مدّ يده ولمس ذلك الابرص وقال لهُ قد شئت فكن طاهرًا فلتمتد تلك اليد التي انتشلت بطرس من غريق البحر وتنتشل الخاطي من لجة الخطايا . اليد التي اشفت حماة بطرس من الحمى اليد التي لمست نعش ابن الارملة في مدينة نائين فاحيتهُ وعلى هذا الابرص فطهرته وتمس نفس الخاطي المائت في خطيتهِ فيحيى ويقرّب قربانًا عن طهره اي يقدم دموعًا سخينة وتوبة حارة وارادة عزومة على عمل الصلاح فلنعطَ ذلك اجمعين بشفاعة مريم البتول ونعمة الاب . . .

العظة الرابعة

« لاحد النازفة »

قد انفقت كل مالها على الاطباء ولم تستفد شيئًا ولما شعرت بقدوم المسيح ودنت منهُ ولمست طرف ثوبهِ شفيت . مسكينة هذه المرأة النازفة كم قاست من الاوجاع وكم تقلبت على فراش الضنا لانها استمرت على حال مرضها اثني عشر سنة حتى انتحل جسمها وذاب مثل الشمع وباعت مصاغها واثاث بيتها واملاكها وانفقتها على الاطباء الذين لم يكونوا يسمعون كلامها حتى يسمعوا رنة الذهب ولم يمدوا يدًا لعلاجها حتى تمتلي من المال ولم يزالوا يؤملونها بالشفاء ويذيقونها امرَّ الادوية الى ان سلبوا كل مالها واضحت فقيرة صفرة اليدين لا تملك شيئًا والمرض يحتد والشدة تزداد وتشتد فاذ ذاك قد شعرت بقدوم الطبيب السماوي يسوع المسيح فدنت من ورائهِ ولمست طرف ردائهِ فوقف حالاً جري دمها المنفجر ونالت تمام الشفاء مجانًا بلا درهم ولا مرهم لكن بايمانها فقط . فانظروا ما الفرق بين اهل العالم والمسيح فاولئك كانوا يخادعونها بشقشقة اللسان ويعدونها بالراحة لياخذوا مالها اما المسيح فاعطاها الشفاء ولم ياخذ منها شيئًا وهذا كافٍ لنعرف ان صداقة العالم غش وخداع ظاهرها عسل وباطنها حنضل . واما صداقة الله فهي الصداقة

الخالصة الوحيدة التي يجب ان نركن اليها وحدها وهذا هو موضوع الخطاب وقبل الشروع . . .

انني اشهد على العالم ان اعمالهُ شريرة (يوحنا ص ٧) لا ريب في ان من يظهر خيانة الخائن لارباب الولايات يستحق المكافاة وجزيل الثناء واثباتًا لذلك تذكروا احشوروش الملك الذي امتدت ولايته على مائة وسبع وعشرين مدينة كيف انه رقى الى اكرام ملوكي مردخاي العبراني الذي اظهر له مكيدة كان قد درسها له بغنان وتاراش حافظا بلاطه وكيف ان كريسوس صنع تمثالاً من ذهب لاحدى جواريه واقامه لها في هيكل صنم دولفوس مجازاة لها لانها اطلعته على خيانة امرأة ابيهِ . فاذاً سبيلي ان ارجو منكم اليوم مجازاة حسنة اذ قصدت ان اكشف لكم احد الخائنين العظام غير اني اخشى ان اكون غير مصدق عندكم لكونهِ محبوبًا من اكثركم ولا يبعد ان تحاموه وتحكموا عليَّ اني انا المفتري عليهِ وكيف كان الامر فاقول انهُ خاين غدَّار مكار والويل لمن لا يحذر منهُ وهذا هو العالم . وان لم تروموا ان تصدقوني فصدقوا شهادة المسيح القايل انا اشهد علي العالم ان اعماله شريرة هي . فيكفي لقبول الشهادة ان يكون الشاهد عالمًا بما يشهد بهِ وصادقًا لا يَغش ولا يُغش ومن تراه اعلم واصدق من المسيح ولا حاجة الى شهود اذا كان شر الاعمال ظاهرًا . فيا ليتكم تعتبرون العالم كما كان يعتبره الرسول اي نظير مذنب معلق على مشنقة بقولهِ والعالم صلب لي (غلاطية ص ٦) فالعالم يخدع ذويهِ بما يميلون اليهِ من الملذات طبعًا كما تميل الدبب الى

العسل والايل الى الماء والفراشة الى ضو المصباح . فتنازل العالم دليل خداعه لان من عادة الخائنين جميعًا ان يدخلوا على المرء القاصدين خداعه بوعد مطابق للحواس . بماذا خان قاين اخاه هابيل اليس بدعوتهِ الى التنزه بالغياض قائلاً لنخرج الى البقعة (تكوين ص ٤) وابيشالوم أما خان اخاه حمنون باستدعايه اياه الى وليمة فاخرة ويابيل أما خدعت سيسرا بدعوتها لهُ الى الرقاد بخيمتها وحينئذ شجت راسهُ بالوتد . وبمَ خانت دليلا شمشون أليس بالرقاد بحضنها فان الخائنين يظهرون الحلاوة ويبطنون المرارة يتظاهرون بالصداقة وهم اعداء الدّاء . تاملوا الهدايا التي يقدمها لكم العالم هدايا ظاهرها حسن غيرانها مضرات ورزايا وقد شبهّها كثيرون بثمرة ادم التي جلبت الموت والشقاء لكل الجنس البشري

ذكر عن كلتيوس ملك سكوسيا الذي كان وثنيًا يعبد الاصنام انهُ دخل مرة الى بستانهِ حيث توضع الاصنام فراى صنماً كان وضعهُ لهُ هناك اكبر اعدائهِ وفيهِ حيلة قتالة وهي ان الصنم كان ماسكًا بيده ثمرة لغرابة صناعتها كان يظن من يراها انها مقدمة لهُ هدية فتعجب المالك من هذه الصناعة وسرّ بها ولما لم يكن مرتابًا ولا خايفًا من خيانة مخفية فتقدم وبسط يده ليتناول الثمرة من الصنم الحجري واذا بسهم مسموم كان في يد الصنم الاخرى طعنهُ في قلبه لاهتزاز الشريط باهتزاز الثمرة فمات الملك لساعته فهذه هدية العالم لمن يخدمهُ . ما الذّ هذه الثمرة التي يقدمها العالم لاصحابه اي ثمرة الخطية الردية لكن يعقبها سهام اوجاع مؤلمة جرب

وبرص وقروح ودمامل . . . يقدم لهم اموالاً يقدرون ان ينفقوها بالتنزه والراحة لكن يعقبها سهم الغموم والهموم في فقدها . سهم الحسرات في الكرّات . وحسناً قد شبهت خيرات هذا العالم بغبار تحمله الريح وبرغوة رقيقة تبددها الزوبعة وبدخان ينحل وبعشب يجف سريعاً

ان العالم يبذل جهده ليحفظ قيمته عندنا ومثله مثل التاجر المكسور الذي ياخذ من الواحد ويعطي الاخر اذ نراه ما اغنى احداً الا بخسارة اخر ولا رفع هذا الا بانحطاط ذاك ويصنع كما صنع شمشون الذي قتل من الفلسطينيين في عسقلان ثلاثين رجلاً واخذ ثيابهم واعطاها للذين فسّروا مسأَلته (قضاة ص١٤) هكذا يصنع العالم فانه ما اعطى مردخاي التقدم في دولة احشوروش الملك الا بعد ان سلبه من هامان (استير ص٧) ووهب صيبا املاكاً وخيراتٍ غزيرة لكنه اختلسها قبلاً من مفيبوشت (صموئيل ٢ ص١٦) واعطى صادوق شرف الكهنوت بعد ان رفعه عن ابيتار (ملوك ٣ ص٢ عد٢٧) وهكذا اذا امعنتم النظر في العالم فنروه يصنع كحرّاث البساتين الذين يقطعون بعض الاشجار ليعطوا نموها لغيرها . فخيرات الدنيا تشبه غطاء موضوعاً على طاولة لا يكفي الا لتغطية قسم منها فاذا اردت ان تغطي جهة تتعرى الاخرى هكذا نرى ذاك الابن الذي كان فقيراً ما اغتنى الا بعد موت ابيهِ وتعريتهِ من كل شيء

ولا يوجد ما يرينا كذب سعادة العالم وخيانته مثل خبر ويزلاوس ملك بوميا الذي كان عمره ثمان عشرة سنة فهذا كان قد

خطب ابنة كارلوس السابع ملك فرنسا واستعد استعدادًا عظيماً لحفلة العرس فانه اولاً سمح لرعاياه بالخراج . ثانيًا عيّن المتوظفين لمهام هذه الزيجة . ثالثًا ارسل لاحضار العروس اسقف بدوا ومائتين من اكابر مملكتهِ ومائتين من اوستريا ومائتين من المجر واربع مائة من نساء الاكابر عدا العبيد والجواري والجنود والمركبات . وشرعوا بتزيين المدينة حتى غدت كفردوس ارضي وجنة الافراح . واذ كانوا بهذه الحالة واذا بالمنية انشبت اظفارها بالعريس فمات . وحينئذٍ تبدلت الافراح بالاتراح والمسرات بالتحسرات . وارسلوا سعاةً ليردوا العروس من نصف الطريق فعادت ارملة قبل ان ترى عريسها ولبست السواد علامة الحداد . أرأيتم كيف ان العالم يقاتلنا في بجبوحة الافراح ويمكر بنا في وقت العز . ولايذكر الا الذي هرب منهُ ولم يعتبر ملذاتهِ . وشاهد بختنصر الملك الذي لم يكرم الا الفتية الثلاثة الذين ابوا السجود لصورته فانهُ رقاهم الى مراتب سامية ولم يكن سبب لترقيتهم الا كونهم ازدروا به كما لحظ فم الذهب . فاذاً لا ترجوا ان العالم يصير مديونكم ويصنع اليكم معروفًا عوض الاكرام الذي تبدونهُ له لانه دائمًا خائن ودائمًا عدو ويجاهد عن نفسه ناسبًا خيانتهُ في الحوادث المضغطة الى ذنب المصاب بها . يقول مثلاً مات ذاك الشاب نعم لكنهُ مات لانهُ اتخم معدته من الطعام والشراب او لانه لم يضبط لسانه . وغيره افتقر من سوء تدبيره وعدم ضبط دفاتره وذاك خسر صداقة محبيهِ لشراسة طباعه وهلمَّ جرا . فبمثل هذه التعليلات نرى العالم يخفي خيانتهُ ويجعل الذنب على

المخدوعين منهُ

قال ارميا النبي . اهربوا اهربوا من وسط بابل وليخلص كل واحد نفسهُ (ص ٥١ ع ٦) اي اهربوا من هذه الدنيا لانها ليست بدنيا الاصدقاء بل بلاد اللصوص والاعداء واذا لم نتمكن من الهرب والانفراد فلنصنع ما تصنعهُ الطيور الماكثة على الارض وكانها ليست على الارض . ولا بد رقبتموها كيف انها تنزل بسرعة لتخطف بعض حبات من الدخن او لتشرب من بعض الينابيع حيث تنصب لها الاشراك ويرصدونها بالبارود فانها لا تستمر اكثر ما يلزمها . وفي حال وجودها على الارض لاتخلو من الخوف والحذر ولذلك ترونها دائمًا مستيقظة تجول نظرها هاهنا وهناك . هكذا يجب ان تستعملوا هذا العالم كانكم لم تستعملوه . اي لاتضعوا فيهِ قلوبكم ولاتصدقوه متذكرين ان اعمالهُ شريرة متصرفين معهُ كمن يتصرف مع لص خائن . ذكر عن الطوباوي انريكوس فخر رهبنة القديس عبد الاحدانهُ مرة ما اذ كان مسافرًا في بلد جرمانيا التزم ان يمرَّ بغاب مملوء من اللصوص . فعند غروب الشمس برز امامهُ لص ذو منظر مرعب مقلد بالاسلحة وناداه قف عندك يا ابانا قال لهُ الطوباوي ماذا تريد . فاجابهُ اللص يبان لي انك رجل صالح ولهذا اريد ان اعترف عندك . ثم سار بهِ الى كهف جبل شامخ وهناك شرع اللص يعترف قائلاً اعلم يا ابي ان لي زمانًا طويلاً هنا وحرفتي القتل والسلب . انظر تلك الشجرة فاني شنقت عليها رجلاً ابن ملك . وهذه الشجرة قتلت تحتها امرأة . وذاك المكان العالي دهورت

منهُ احدى الملكات . وهنا حيث نحن جالسون صادفت كاهنًا مكرمًا مثالك اعترفت عنده وبعد اخذي الحلّة قتلتهُ بهذا السيف لخوفي ان يخبر عني. تصوروا حالة الاب المذكور كم حاق بهِ الخوف والاضطراب ولا ريب انهُ كان يفتكر كيف ينجو من شر هذا اللص مستعينًا بالله ولكن شجع ذاته وقال لهُ كمل اعترافك ياولدي وبعد ان تم اعترافه شيّع مرشده بالسلام وطلب منه الصلاة. نظرتم من يلتزم ان يعاشر لصًا قاتولاً وكيف يتحذر منه مستغيثًا بالله . هكذا يجب ان تسلكوا مع هذا اللص الخبيث اي العالم الذي اذا شاء ان يعترف عندكم اعترافًا عامًا فيلتزم ان يقرّ عن ذاتهِ انه هو الذي تملّق ابيشالوم بامل الحصول على تاج الملك ثم خانه واماته معلقًا بشعر راسهِ على تلك الشجرة مطعونًا بثلاث حراب . ومثله صنع باخيتوفال واماته مشنوقًا على شجرة بعد ان خدعه ليعصى على داود مولاه . ويلتزم ان يقرّ بانه هو الذي سبب لهامان زعيم دولة احشوروش الملك ان يموت معلقًا على خشبة حينما خدعه ليدمر مردخاي خصمه ويظهر قوته . يلتزم ان يقر بانه هو الذي سبب لازبال الشقية لان تلقى من شباك قصرها وتاكل لحمانها الكلاب. فهذه الخيانات وامثالها كثيرة يلتزم العالم ان يقر بها واحدة فواحدة اذا اراد ان يعترف لكم اعترافًا صحيحًا . فاذًا لاتنسوا نصيحة يوحنا الحبيب القائل لاتحبوا العالم لانه عدوّ ولا تصدقوه لانه خائن

اما الصديق الامين الذي يركن اليهِ والصاحب المعوّل عليهِ فهو الله تعالى الواجب ان نثق بهِ كل الثقة لانه يفي اكثر مما وعد . بخلاف

اصدقاء العالم فانهم اسخياء ببهرجة الكلام فقط يعرضون عليكم مقتناهم ويظهرون الغيظ لعدم تكليفكم اياهم في غرض ما. واذا صدقتم مواعيدهم فترون انفسكم مخدوعين لا محالة . وتشاهدون صديقكم لابان الذي وعدكم براحيل الجميلة مقدمًا لكم ليا الشوهاء . وشاول الذي وعدكم بميراب ابنتهِ البكر مقدمًا لكم ميخال العقيم . فهم اشبه بالسحاب الصيفي الذي لامطر فيهِ . اما الله تعالى فانهُ يعطي اكثر ما وعد. قد وعد حزقيا الملك انهُ لايدع جيش سنحاريب ان يضع رجلًا ولا يرمي سهماً في اورشليم · ولكي يتم وعده كان يكفي ان يسمح بتحريك فتنة بين روساء العسكر ومع ذلك ما اكتفى بهذا بل ارسل في تلك الليلة ملاكًا بسيفٍ مجرد وجعل في الجيش مجزرة عظيمة تحوى ماية وخمسة وثمانين الفًا من القتلى · وعد سليمان الحكيم ان يمنحهُ الحكمة ليدبر شعبهُ فزاده الغنى . وهكذا وعد يوشافاط ملك يهوذا ان يعطيه الماء الذي استمده ليشرب العسكر فاعطاه ماء وزاده النصر على اعدائه

ان اصدقاءكم يحبونكم لياخذوا ما هو لكم نظير محبة النحل للزهر ومحبة العاشقة لشجرة الحور لتصعد عليها الى اعلى مقام . اما الله فانهُ يحبنا ليكون بيننا وبينهُ شركة التساوي في ما لنا ولهُ · اي انهُ اعطانا الغنى واخذ الفقر اعطانا المجد واخذ الهوان اعطانا عدم الموت واتخذ ميتوتتنا ويظهر صداقتهُ لنا خاصةً في حال الضيقة كما اظهرها لبني اسرائيل حينما راى ملك مصر يظلمهم . ولايليا النبي لما راه ساقطًا تحت غضب اخاب الملك وازبال الشقية اذ امطر بسببه النار من السماء . واطلق

الوحوش الضارية محاماة لاليشع حين رآه مهزوءا بهِ من الصبيان الوقحين ولم يظهر محبتهُ للعازار الا بعد ان رآه مكروهًا من الجميع . حينئذٍ اظهر نحوه امارات محبة عظيمة حتى اذهلت اليهود فقالوا : انظروا كيف كان يحبهُ . اما الاصدقاء العالميون متى رأوكم في مصيبة فيولون هاربين . واحسرتاه على ايوب كم من عراةٍ كساهم وكم من جياعٍ اطعمهم ولما بُلي ترك من الجميع فلم يعطَ زاوية في بيت ولافراشًا رثًا بل احوجتهُ الفاقة ان يرقد على مزبلة . ولااصدقاؤُه الثلاثة تصدقوا عليهِ بدرهم كما قال لهم الان جئتم واذ رأيتم بليتي فزعتم (ص ٦) هل فزعوا من العدوى كلاَّ بل خافوا ان يطلب منهم شيئًا من الصدقة ولهذا قال لعلي قلت لكم آزروني وآسوني بشيء من اموالكم . وكانوا يعيرونهُ كما يفعل من يستظل بظل شجرة ايام الصيف وعند حلول الشتاء متى رأى ورقها انتثر فيكون هو اول من يضع يده على الفاس ليقطعها

وان وجد من يساعدكم في حال الشدة فيلزمكم ان تقروا لهُ بالمعروف وتكونوا مديونين لهُ الى الابد . وفي ذلك قال ابن سيراخ يعطيك يسيرًا ويعيِّر كثيرًا (ص ٢٠) واما الله جلت جودته فينسب ما يعطيهِ الى فضيلة الطالب كما قال لنازفة الدم التي اشفاها : امضي ايمانكِ خلصك . قد احيي ابنة يايروس من الموت ولكي يخفي قدرته الالهية قال ان الصبية لم تمت لكنها نائمة . فلو كان غير يسوع له هذه القدرة لكان اثبت موتها بشهود عدول وصك شرعي . ولم يسمح لاحد ممن صنع معهم العجائب ان يتبعه ويكون له تلميذًا او رسولاً . قد احيى ابن

الارملة ودفعه الى امهِ. وكان يفعل نظير الشمس التي تفيض من نورها على النجوم ولا تريد ان تسير معها مكافاة لها بل تختفي حين تشرق هي. خلافًا لاصدقاء العالم الذين يرغبون في ان يستعبدوا من احسنوا اليهِ ولو بظلفٍ محرَق

ولو سلمنا بوجود أصدقاء مفضلين لا يتباهون بعطاياهم ولا يطلبون منكم ثناء ومدحًا ولكن لادني سبب تخسرون صداقتهم حتى ومن دون ذنب. فساقي فرعون وخبازه أُلقيا في السجن فاولهما لوجود برغشة في الكاس والثاني لوجود حصوة صغيرة في رغيف الخبز فبهاتين الهفوتين خسرا صداقة الملك. واحيانًا من دون هفوة بل بتهمة باطلة كما جرى ليوسف مع فوطيفار من اجل تهمة امرأَتهِ الكاذبة. والحسد يزيل الصداقة كما جرى لداود مع شاول لما قالت الاسرائيليات قتل شاول الوفًا وداود ربوات. وقد يزيل محبة صديقكم ايضًا تقلب الطبع والمزاج. او خصام يسير في اللعب او كلمة خفيفة فرطت منكم بسبيل المزاح دون قصد الاهانة. او طمع في الربح. او دعوى شرعية الى غير ذلك من الاسباب الطفيفة. وقد يتفق ما هو ابلغ من ذلك اي ان الذي تحسن اليهِ اذا لم يقدر او لم يرد ان يكافيك فيعاديك * واما صداقة الباري تعالى فلا نخاف ان نخسرها او ان يمسك محبته عنا دون ذنب يصدر منا بل نحن نتركه دون سبب يصدر منه. فلا يتركنا بسبب تهمة باطلة او حقد او حسد او فقر او مرض. فاذا احببنا انسانًا فينبغي ان نتوقى امورًا تفصلنا عن محبتهِ. لكن اذا احببنا الله فلا يجب ان نخاف الا من ذواتنا

لانه تعالى لا يعتبر فينا الا المحبة . والا لما كان فضَّل بطرس الفقير على منى الغني ٠ ومحبة مريم على اهتمام مرتا ٠ ولِما كان اعتبر فلسي الارملة المسكينة اكثر من ذهب الاغنياء الموسرين لكونهِ تعالى يلاحظ القلب لا اليد وحسن النية لا الفعل الخارجي ٠

ثم انهُ من عادة الانسان ان لا يحب ان يكون مديونًا لغيره كما لو اضطرَّ انسان لاحتياجه ان يطلب صدقة سرًّا ممن هم ادنى منه حسبًا ونسبًا ثم ارتقى الى حالة سعيدة فيعتريه الحياء والخجل من مشاهدة الذين كان يتسول منهم . ولا يضايقهُ شيء مثلما اذا سمع واحدًا يقول وهو قاصد مذلته واهانته انظروا هذا العائش بالرغد فانهُ بالامس كان يتسول على بابي ٠ واما الرب فانهُ يجمع العالم بصوت البوق الاخير ليعلموا بكل فلس اقتبلهُ منا سرًّا وخفيةً ولا يخجل في حال مجده من ان يواجه اولئك الذين اغاثوه قديمًا بل يقرُّ بانه وهو فقير على الارض نال من ذاك ثوبًا ومن هذا كسرة خبز ومن غيره كاس ماء حسب قولهِ جعت فاطعمتموني وعطشت فسقيتموني الخ فالرب يقرُّ انه مديون بخلاف البشر . اذ قد اتضح لديكم ان الله هو الصديق الامين واما غيره فهو قليل الامانة وكثير الخيانة فكيف يوجد من يغيظ الله ليرضي الناس ويكون امينًا مع من يخونهُ وخائنًا مع من هو بالحق امين اي ربه وخالقه . ان اكثر الناس مدحوا باركليس لان انسانًا سالهُ ان يحلف كذبًا ارضاءً لخاطره فاجابهُ حاشاي ان احلف وافعل هذا النفاق . نعم انك صديقي في كل مكان ما عدا المذبح . هكذا يجب على كل انسان ان يجاوب من يحرضه على فعل

يغيظ الله قائلاً انك صديقي في كل شيء ما عدا الخطية التي تخسرني صداقة الله ليعلم كل احد انك تفضّل رضى الله على رضي الناس وان كانوا عزازًا. ألعل اصدقاؤكم يحاوبون عنكم اذا حضرتم قدام الله وكنتم تجاوزتم وصاياه اكرامًا لخاطرهم كلاَّ. بل ربما سيكونون هم اول من يوبخونكم لاتباعكم هواهم الردي. خبرنا الكتاب المقدس عن ابيشالوم انهُ لما انكسر من جيش يواب التفَّ شعر راسهِ على اغصان شجرة وازداد جواده خوفًا ومرَّ من تحتهِ وتركه معلقًا فابصره واحد من الجنود فاسرع واخبر يواب فقال لهُ يواب لو تطعنهُ برمحٍ وتلقيهِ على الارض ميتًا لكنت اعطيتك عشرة مثاقيل فضة هبة لك. فاجاب الجندي حاشاي ان اصنع ذلك ولو اعطيتني الف مثقال لان الملك اوصى ان لا احد يوءذي ابيشالوم بل قال احترزوا لي على الفتى ابيشالوم. فلو تجاسرت وقتلتهُ لاحتدم الملك عليَّ غضبًا وكنت انت وقتئذٍ تحابي معهُ وتقوم من بعيد قبالي. فما احسن جواب هذا الجندي. هكذا ينبغي لكم ايها السامعون ان تخاطبوا نفوسكم حينما يتملقكم احد اصدقائكم لتعملوا ما يخالف وصايا الله. لانكم اذا حضرتم لدى العرش الالهي للدينونة فيكون هو اول شاكٍ عليكم واعظم خصم لكم. وليكن محققًا عندنا ان في ساعة الموت نضحي متروكين من جميع الاصدقاء ولا يبقى لنا صديق سوى يسوع المصلوب ولو انفقنا كل مالنا على الاطباء نظير تلك المرأة النازفة الدم فلا نستفيد شيئًا الا زيادة الالم فلنلتجيء اذًا الى يسوع لكي يشفي نفسنا المريضة بالخطية ويثبتنا في محبته وصداقتهِ الى اخر نسمة من حياتنا. فلنعطَ

ذلك بشفاعة مريم العذراء التي لاترد شفاعتها وبنعمة الاب والابن والروح القدس

العظة الخامسة

« لاحد الابن الشاطر »

شدّ مسافراً الى كورة بعيدة (لوقا ص ١٥)

يوجد كورة في القطب الشمالي بعيدة عن الشمس لاتشرق عليها الانادراً ومن جرى ذلك تراها مكربة جدًّا عديمة كل غلة كثيرة الوحوش مروجها مكتسية بالثلوج دائمًا لايفارقها الجليد . ولا وجود للاعشاب والزهور فيها . خالية من معادن الذهب والفضة . وفيها كثير من معدن الفحم والكبريت . بحرها خال من الدر . اشجارها عالية جدًّا واهلها قصار القامة . ليلها ستة اشهر متصلة بظلام حالك . نعم ان نهارها ايضًا ستة اشهر متصلة غيران نوره خال من الحرارة ويكاد يشابه نور ليلنا . لا يفيدهم الا ليشاهدوا هيئة تلك الاراضي المكربة واشباح الوحوش الكاسرة . ومنظر الافاعي الضخمة المفزعة . ويضطرون الى سكنى القفار ليقتنصوا الوحوش ويقتاتوا بلحومها . ولكن اكثر الاحيان تقتنصهم عوض ان يقتنصوها . وكم تبتلع الحيات من اطفالهم وتنفث سمها القتال في نسائهم . وكل هذا الشقاء ناتج من بعد الشمس عنهم . والامر

الغريب الذي يحق التعجب منهُ هو ان سكانها قادرون على هجرها ولم
يريدوا ان يغادروها ومن يخاطبهم بذلك يعادونه

هذه حالة نفس الخاطي البعيدة عن الشمس الالهية فانك تراه في
كرب دائم لا يوجد لهُ راحة ابداً . اسألوا ذاك النبي والملك داود لما
كان بعيداً من الله هل كان لهُ راحة وهو على عرش الملك فيجيب كلاَّ
بل ان جميع المخلوقات كانت توبخني قائلة اين هو الهك . اسألوا آدم
الذي كان يخاف من كل ورقة تحركها الريح ما الذي كان يقلقه الاَّ
ابتعاده عن الله . وكما ان تلك الكورة عديمة من كل غلة هكذا نفس
الخاطي عقيمٌ من الاعمال الصالحة. كل افكارها متجهة نحو الشهوات المحرمة
كثيرة الوحوش اي الهواجس الجهنمية ترى ذاك الخاطي شاب رأسهُ
وابيض شعره كالثلج وقلبه اسود كالفحم . ونفسهُ مجلَّدة باردة معدومة من
زهور الفضائل لا يوجد فيها زنبق الطهارة ولا ورد المحبة ولا نردين
التواضع خالية من معدن الفضائل الثمينة . وما ابعدها عن العبادة
الكريمة التي يجب ان يباع كل شيء لتبتاع . شجرة الحياة عالية و بعيدة
عن الخاطي لا يستطيع ان يدنو من قطوفها . يتسكع في ظلام جهلهِ
الحالك . نور ايمانهِ الطفيف يرجفهُ ويريه شقاء حالهِ وبهِ ينظر العدل
الالهي مجرداً عليهِ سيف الانتقام ومستعداً لان يصبَّ على راسهِ جامات
غضبه . وان الوحوش الجهنمية تقتنص نفسه للهلاك والحية القديمة
تبتلع ما يتلد منه من الخير . وهذا الشقاء كله بسبب بعده عن الله .
واكبر شاهد على ذلك حالة ذاك الابن الشاذ الذي اخبرنا عنه الانجيل

في هذا اليوم بقولهِ

رجلٌ كان له ابنان. فقال اصغرهما لابيهِ يا ابتِ اعطني النصيب الذي يخصني من المال فقسم بينهما ماله . فالاب هو الله والابنان هما البار والخاطي . والخيرات التي قسمها بينهما هي المواهب كالخلق والحفظ وباقي الخيرات كما اعطى البار النفس بجميع قواها والجسد مع الحواس وسخر المخلوقات لخدمتهِ هكذا اعطى الخاطي كقولهِ تعالى يشرق شمسه على الاخيار والاشرار ويسكب غيثه على الابرار والفجار. فالابن الكبير كان رزينًا عاقلاً حكيمًا ينظر في عاقبة الامور لم يخطر على بالهِ ان يبتعد عن بيت ابيهِ ولا ان يترك وطنه حيث خصب الاراضي وسهولة التجارة فيهِ . ولا عن نظر والده الذي كان يحسبه افضل من الف ذخيرة ثمينة . بل اخذ باستخدام قسمهِ من المال بكل صنف من التجارة محافظًا على رضى ابيهِ ولذلك كان يزداد ربحه يومًا فيومًا كما كان يزداد فرح والده فيهِ وهذه حالة الانسان البار

واما الابن الاصغر فبعد ايام غير كثيرة جمع كل شيء له وسافر الى كورة بعيدة . فهنا يمكننا ان نتصور ما جرى بينه وبين ابيهِ قبل سفره فلا بد ان يكون ابوه قال يا ولدي اخبرني ما الذي حملك على هذا السفر أيوجد ما يكدرك من خدم او مأكول او ملبوس او تعب فاجابه كلا لا شيء من هذا يكدرني . ولكن اريد ان استعمل حريتي فقال له انت حرٌّ افعل ما تشأُ ولا تُسأَل عما تفعل بحيث تبقى تحت نظري وانظر الى اخيك واعمل نظيره . اجابه دعني وشأْني لا اريد ان

اكون في بيتك · ولدي ان الغربة ذل. ومشاق السفر كثيرة ومخاطر عديدة لاسيما على من كان مثلك صغير السن مربى في التنعم · قال لا يهمني اريد ان اتمم رغبتي · بني ربما يضطرك الامران ترقد على الحضيض وتقضي اياماً بدون اكل وتحمل لوافح الحر ونوافح البرد . قال عزمت على السفر فلا اغير عزمي اتركني · هكذا يجري بين الله والخاطي قبل ارتكابه الاثم فانه تعالى يرشده بالهاماته الالهية ويبين له شر الخطية وعقابها وما ينشأ عنها من نخس الضمير وغم القلب واضطراب البال وعدم الراحة . واما الخاطي فيجاوب بلسان حالهِ لا يهمني اريد ان اخطي. ويرافق الابن الشاطر الى كورة بعيدة · فالكورة البعيدة هي ابتعاده عن الله ونسيانه لباريه وابيه وديانهِ وفاديه · وهناك بدد ماله بعيش بذخ في السكر والولائم والخطايا والفواحش حتى انفق كل شيء كان له فحدث جوع شديد في ذلك البلد فابتدأ يفتقر . هكذا الخاطي فانهُ يبدد مواهب الله باستعماله اياها بئسما فيستعمل عقلهُ للتفنن بالشرور وذاكرتهُ ليتذكر ما اجترمهُ من القبائح ويلذ بها وارادته لمحبة ما يبغضهُ الله ولسانه للتكلم بالسفاهة والمجون واللعن والتجديف · ويديه للضرب والسلب واللمس القبيح ورجليه للسعي الى الشر · فيبتدئ ان يفتقر من نعمة الله · وبالحقيقة لا يوجد افقر من الخاطي لانه يخسر الله والملكوت السماوي والاعمال الصالحة جميعها

فذهب الابن الشاطر وانضوى الى واحدٍ من اهل ذلك البلد فارسلهُ الى حقله يرعى الخنازير وكان يشتهي ان يملأ بطنه من الخرنوب

الذي كانت الخنازير تاكله ولم يعطهِ احد . هكذا الخاطي متى رأى ذاتهُ متضورًا من الجوع الروحي منزعجًا من لدغات ضميره ويطلب راحةً فلا يجد . فيلتجئُ الى الشيطان رئيس كورة الابالسة ظانًا انهُ يريحه فيرسلهُ يرعى خنازير شهواتهِ ولا يشبع منها . مسكين ذاك الابن فمن يتصور حالتهُ ولا يشفق عليه . لانه بعد المواكيل اللذيذة صار يشتهي الخرنوب . وغب الراحة في بيت ابيه صار يحتمل ثقل النهار وحره وراء الخنازير وهذا جميعهُ من ابتعاده عن نظر ابيه

قد اخبر بياريوس عن المصريين الاقدمين انهم كانوا يعبدون تمثال تنين مريع المنظر . فخدام هذا الصنم كانوا يطبقون عينيه متى ارادوا ترهيبًا للمصريين فكان عند طبق عينيه يستولي على اهل مصر جميعهم الخوف والاضطراب والحزن . فكانوا يهطلون الدموع ويطرحون الات الطرب خائفين ان تنقض عليهم الصواعق ولو كان الجو رائقًا وان يموتوا جوعًا ولو كانت الارض مخصبة وان تبيدهم الحروب والوباء وتاتيهم الضربات من كل جهة وكل هذا الخوف عندهم من عدم نظر الههم اليهم مع ان عدم نظره احسن . فلندع اولئك القوم في جنونهم ونقول يا ويل من لا ينظر الله اليه بعين محبته الجليلة ويميل عنه نور عينيهِ المقدستين . امال نظره عن مصر فضُربت ضربات قاسية . تحولت مياههم الى دم . امتلأت اراضيهم من الضفادع . فنيت بهائمهم بالوباء والقروح امطر عليهم النار والبرَد . استحال نورهم الى ظلام فنمات ابكارهم . امال نظره عن قاين فحلت بهِ الرجفة . وعن شاول فاستولى عليهِ

الروح الرديء ٠ امال نظره عن شمشون فوقع بايدي الفلسطينيين ٠ وعن اليفانا فقطع راسه بيد امرأة ٠ وعن عالي الكاهن فخسر كهنوته ٠ وشقاء الابن الشاطر كان من تحويل نظر ابيهِ عنه

لم يتشكَّ ايوب الا من عينهِ بقولهِ في المرارة قد استغرقت عيني (ص ١٧) مع ان عينهُ وحدها كانت سالمة من وجع . السبب هو ظنه ان الله ابتعد عنهُ وما عاد ينظره بعين عقلهِ ٠ بدليل قوله للرب لماذا اخفيت وجهك عني واحسبتني عدوًا كانهُ يقول كيف حجبت عني رؤياك الذي يسلي كل حزين . لقد نهبت المواشي وسقط البيت ومات اولادي العشرة بساعة واحدة تحت الردم . ضرب جسدي بالقروح المنتنة . صرت مرذولاً . كان المنبر كرسيَّ . صارت المزابل فراشي . كنت مكللاً بالذهب صرت مكللاً بالرماد والدود . فهذا عندي كلا شي . فالنتانة هي بلسم والاوجاع تنعم ولكن حجب وجهك عن عيني هذا وحده يعذبني ٠ عجبي كيف ان مثل هذا البار يتعذب من توهمهِ ان الله اخفى وجههُ عنهُ والخاطي مع تاكيده انهُ بعيد عن الله لا يقلق ولا يخاف من رشق سهام غضب الرب . لان الله متى اخفى وجههُ رشق بسهام غضبهِ . كقولهِ (في تثنية الاشتراع ص ٣٢) اخفي وجهي عنهم واجمع عليهم الشرور وافرغ سهامي فيهم . ذاك البيت خرب هذا سهم من الله . ذاك التاجر انكسر هذه صاعقة من الله . تلك العائلة باد ذكرها هذا سهم من الله . كانت المائة تربح عشرة صرت لاجل العشرة تخسر مائة هذه صاعقة من الله . الابن الشاطر طالما كان في بيت ابيهِ

كان حاصلاً على كل خير لابسًا حلة البنين . وفي يده الخاتم الذهبي والخدم قيام لديه . ولما بعد من ابيهِ فقد كل هذا الخير واضحى مديونًا فهرب من حيث كان وصار خادمًا لرجل دني قاسٍ يرعى لهُ الخنازير وهو عريان حافٍ صائم . كل هذه سهام الغضب وذلك لابتعاده عن ابيه

فرجع الى نفسهِ وقال كم لابي من اجراء يفضل عنهم الخبز وانا هنا اهلك جوعًا . رجع الى نفسهِ لانهُ كان قد خرج عن دائرة التعقل لتوغلهِ في بيداء الشهوات وامسى كالبهائم التي لا عقل لها . وقال كم من الاجراء في بيت ابي يفضل الخبز عنهم وانا هنا اهلك جوعًا . اي كم من الذين يخدمونهُ طمعًا بالاجرة المعدة لهم يشبعون من الطعام اللذيذ وانا اهلك جوعًا مع اني ابن لا اجير . فيا ليت الخاطي يقتدي برجوع هذا الولد الشاطر كما اقتدى بابتعاده عن ابيهِ السماوي ويقول اقوم وامضي الى ابي . اقوم من هذه السقطة المهلكة . اقوم من ذاك البيت المبني على صخرة الشك بحجار العثرة . اقوم من مجالس المستهزئين . اقوم من تلك الخمارة الخ . وامضي الى ابي الكاهن نائب الله واعترف له بذنوبي قائلاً يا ابتِ قد خطئت الى السماء وامامك كالابن الشاطر . امضي الى الكنيسة لاستماع الوعظ لعمل الرياضة لحضور الذبيحة الالهية ولزيارة القربان الاقدس ..

فقام وجاء الى ابيهِ وفيما هو بعيد رآه ابوه فتحنن عليهِ .. يظهر من نظر ابيهِ لهُ عن بعد انهُ لم ينسهُ بل كان دائمًا يفتكر فيهِ وينتظر رجوعه

مراقباً الطرقات نظير ام طوبيا وسائلاً المارين يا عابري الطريق هل رأيتم ابني . فيجيبون من هو ابنك صِفهُ لنا لنعلم هيئتهُ . يقول ابني شاب حسن الوجه رشيق القد مستقيم القامة لابس ثوباً ثميناً مقلد بالاسلحة راكب فرساً ومعهُ خرج من المال قد سافر الى كورة بعيدة وانقطع الخبر عنهُ . يقولون ما رأيناه . هل فيهِ غير هذه العلامات . يقول نعم . مكتوب على جبينهِ الابن الشاطر . حينئذٍ يتعجبون من هذا الوصف قائلين رأيناه وليس لهُ منظر ولا جمال اسود مثل العبد احدب كالقوس كانهُ ابن ثمانين سنة . عريان ما عليهِ سوى ثوب رثٍ معقَّد . اعزل ليس معهُ من الاسلحة الا عصا يسوق بها الخنازير . يقضي نهاره سائحاً في البراري وراء الخنازير حافياً يدوس شوك القتاد . ويطوي ليلهُ ساهراً نائحاً من الجوع الشديد واللغب والتعب . لانهُ بدد مالهُ على ذوي الخلاعة ولم يبقَ له من مغيث . فيقول ذاك الاب واهاً ما الذي اوصل ابني الى هذا الشقاء والتعاسة ثم اردف قوله بقولهِ لقد عرفت السبب لانه ابتعد عني دون رضاي وعاشر الاشرار فوقع باشراك المصائب

فكما ان هذا الاب لم ينسَ ابنه بل كان يفتكر فيهِ دائماً هكذا الله يفتكر دائماً برجوع الخاطي الى التوبة ويلهمه بالابتعاد وترك خنازير الخطايا فيقتبله اقتبال الابن الشاطر ولا يسأله عن شيء مما مضى بل يقبله معافى ويفرح برجوعه ويدعو السماء والارض لابداء الفرح ويأمر نوابه الكهنة ان يلبسوه حلة النعمة التي كان قد تعرَّى منها ويذ يجوا

العجل المسمن فوق المذابح المقدسة فيغتذي بطعامهِ الروحي الذي هو عربون الخلاص الابدي فنسأَل له تعالى ان يلهمنا الى التوبة الصادقة والرجوع الحقيقي بشفاعة مريم البتول ام الخطاة وجميع القديسين امين .

العظة السادسة

« في رحمة الله »

قال داود النبي امتلأَت الارض من رحمة الله
(مزمور ٣٢ عدد ٥)

جولوا بابصاركم في العالم باسره تجدوا ان تاثيرات الرحمة الالهية ظاهرة في كل مكان ارمقوا ذلك الفردوس فتروا في احدى زواياهُ رجلًا وامرأَةً عريانين فقيرين مثخنين بالجراح خايفين ورحمة الله متجلببة بشعار المحبة كام حنون تدعوهما اليها لتكسوهما وتغنيهما وترأَب جراحهما وتأْمنهما . واصيخوا سمعًا فتسمعوا في البرية قرب ارض نود شرقي عدن صوت الرحمة الالهية ينادي رجلاً قاتل اخيهِ قائلاً اين هو اخوك تنبيهًا لهُ لكي يتوب فيغفر له ويأْمنه بقوله من يقتل قاين يجازى سبعة اضعاف تشجيعًا لضعفهِ ليرجو الغفران . اعطفوا ابصاركم نحو تلك الخيام الكثيرة فيها رعاة المواشي حيث كل ذي جسد افسد طريقه فتنظروا الرحمة تومي الى رجلٍ بار ينذرهم و يصنع له فلكًا لنجاة من يريد النجاة من مياه

طوفان عرمرم· ادخلوا مدينة شريرة فتجدوا رحمة الله تطلب فيها عشرة ابرار لئلا تبيدها بالنار. جوزوا في طريق اريحا فتعاينوا رجلاً واقعاً بايدي اللصوص مخضباً بدمائهِ والرحمة الالهية كطبيب تضمد جراحه وتصب عليها خمراً وزيتاً انتقلوا بافكاركم الى برية سينا وهناك تصادفون الرحمة بمثال نارٍ ضمن عليقة تناجي رجلاً وديعاً هو موسى تبعث بهِ الى ارض جاسان لانقاذ شعبٍ غفير من رقّ العبودية القاسية واذا القيتم ابصاركم على ذلك البحر من يافا الى ترسيس فتشاهدوا الرحمة الالهية قد اعدت سفينة حية هي الحوت تتلقف من بين تيارات الامواج الهائلة منذراً هو يونان ترسلهُ الى مدينة تفاقمت شرورها هي نينوى· واذا اردتم ان تجولوا في تلك الكورة البعيدة فتجدوا الرحمة الابوية تطلب ولداً عفوقاً شاذاً يبدد امواله بالبذخ وتجذبهُ رغماً عنه من الماخورات والخمارات ومن وراء الخنازير مرجعة اياه الى بيت ابيهِ انظروا الى الاجيال القديمة وتاملوا ما اعظم رحمة الرب وعفوه للذين يتوبون اليهِ (ابن سيراخ ص ١٧) فيالها من رحمة غزيرة قد ملأت الارض باسرها وعليهِ قد وجب ان نتكلم على فيض رحمة الباري تعالى وامتدادها موضحين ذلك ببراهين جلية ماخوذة من العقل ومن الكتاب الالهي··

يثبت من العقل

اولاً. انهُ لمن المقرر الثابت ان كل علة تحب خير معلولها ونحن معلولات الله فاذاً يحب خيرنا وخلاصنا وكل ام تحب ابنها والحال نحن ابناء الله فاذاً الله يحبنا· وكل صانع يحب مصنوعاته ويقيها مما يتلفها ويضرّ

بها . . . ومن يستعمل الوسائط يرغب بتحصيل الغاية والرب لم يترك واسطة الا استعملها لخلاصنا

ثانيًا . من له سلطة اعظم هو ارحم بالعقوبة . ان الرحمة الفايضة هي من خصايص القدرة الكاملة وسرعة الغضب والعقوبة من خصايص الضعف . قال ارسطاطاليس ان سهولة الغضب تصدر من الضعف ولهذا نرى الضعفاء اسرع الى الغضب من الاقوياء اذ يتوهمون انهم بعدم الانتقام ينسبون الى الجبانة واما الاقوياء فصفحهم يعد حلمًا لشهرة قوتهم وعليه فترون المرأة غضوبة اكثر من الرجل قال ابن سيراخ ليس غيظ على غيظ الامرأة (ص ١٥) والمرضى اسرع الى الغضب من الاصحاء والشيوخ اسرع من الشباب والفقراء اسرع من الاغنياء . قال ادريانوس قيصر لمن كان قد اهانهُ قبل ان يصير ملكًا نجوت يا انسان لاني انا اليوم ملك وهذا ذاته نراه في الحيوانات الغير العاقلة فالاضعف منها يسرع للّدغ كالزنبور والافعى بخلاف الاسود والنمورة فان الاسد الضرغام لا يكترث بنبيح كلب صغير . هذه هي سنن الطبيعة مفطورة مع فطرة الابدان لا مكتوبة بالاحرف اي ان الذين لهم سلطة اعظم هم ارحم بالعقوبة . ومما لا خلاف بهِ ان الافلاك العالية اصحى من السفلية والبحار العميقة اقلُّ اضطرابًا من غيرها . والحال ان الله وحده هو القدير هو الذي اذا سار ماشيًا ترتجف قواعد الجلد تحت قدميه واذا نظر الى الشمس بغيظ قليل يكمدُ لونها . واذا اومأً الى البحر يرتد الى الوراء فان الرياح رسله والرعود اصواته والبروق والبرد والثلوج والعواصف جنوده .

فقدرته العظيمة دليل رحمتهِ الغزيرة . فالغضب والانتقام مكروهان من طبعهِ الالهي والرحمة والمسامحة مطابقان لهُ كل المطابقة . أيرعب ورقة منثورة ويطارد قشًا يابسًا (ايوب ص ١٣)

ثالثًا اذا عاقب الله الائمة المصريّين فكان عقابهُ لهم رغمًا عنهُ لان الملك الذي لا يضرب القلعة المحاصرة الا بعد ان طالبها بالصلح والتسليم فأبت يستدل على ان ضربهُ لها رغم عنهُ والجرّاح الذي لا يستعمل كي النار والحديد مع العليل الا غب معالجتهِ بالادوية اللينة ولم يبرأ نتج ان علاجه بالنار كان كرهًا منهُ والاكّار الذي لا يقطع الشجرة المغروسة في بستانهِ الا بعد ان بذل مجهوده في اصلاحها لتثمر ولم تثمر نعلم انهُ لم يقطعها الا قسرًا عن ارادتهِ

رابعًا ان الصيد في البحر والقنص في البر هما مهنتان غايتهما واحدة ولكن وسائطهما مختلفة لان الصياد في البحر يجتهد في ان يصطاد الاسماك باطعمة لذيذة ويحتال بالاَّ يخيفها فيقصد صيدها في ظلام الليل ويخفي الشباك ويغطي الصنارات صامتًا متدلسًا لكي تبادر اليه من ذاتهـــا فيصطادها من حيث لا تدري اما القنّاص في البر فلا يصنع هكذا بل يخرج الى البقاع بجلبة وضوضاء الخيل والكلاب ويهتف كانهُ يريد ان يحارب الغابات ويدعو الوحوش لتخرج من مرابضها ويشهر السلاح ويعد القسيّ والرماح ويتعارضها ومتى خافت واخذت بالهرب يسبق ويقف عند المنفذ وهناك يهجم عليها ويرشقها بالرصاص ويطعنهـا بالرماح حتى ربما يتلطخ بدمائها . فان الله يستعمل معنا هذين النوعين

من الصيد ليصطادنا ويكسبنا لهُ ولكن يستعمل معنا اولاً ما يستعملهُ
الصياد في البحر اي انهُ يتملقنا مقدمًا لنا طعم نعمتهِ اللذيذة والهاماتهِ
الالهية والنموذجات الصالحة والتوفيق بالخيرات الزمنية واذا رأى انهُ
لا ينجح بهذا فيستعمل نوع الصيد الثاني فيتهددنا بالضربات كالحروب
والامراض الخ . فانهُ تعالى قد اخصب ارض مصر بسبع سني رخاء
ثم اعقبها بسبع سني قحط واعطى داود الملك اولاً ملكًا مخصبًا بشعب
لا يحصى ثم عذَّبهُ بالوباء واعطى بيت حزقيا خزانة وافرة ثم بددها
بالنهب ومنح بيت اخاب بنين كثيرين اولاً ثم ضربهُ بقتلهم . وهكذا
اختار الله منذ الابتداء ان يصطاد ابوينا الاولين بالطعم الحلو اولاً اي
بالثمار الكثيرة اللذيذة التي قدمها لهما في الفردوس واوعبهما ملذات الخ .
ولما رأى انهُ لا يصيدهما بهذه الطريقة استعمل معهما الاقتناص فطردهما
من الفردوس وسلط عليهما التعب والوجع وبهذا اصطادهما اليهِ تعالى
بالتوبة وهكذا جرى بالابن الشاطر الذي لم يتمكن ابوه من اصطياده
في حال الرخاء اذ كان عائشًا بالسعة والرغد مكرمًا مخدومًا بل تمرّد
على ابيهِ طالبًا نصيبهُ من مال والده فكان كلما لاطفهُ زاد خشونة وحَّ
عليهِ قاصدًا التغرب زاعمًا ان الغربة تنفي الكربة والترحال مطيَّة
الآمال . واخذ حصته وسافر الى البلدان الشاسعة وتوغل هناك في
الشهوات الواسعة حتى بدَّد ماله ولما مال عليهِ الدهر وخانه الزمان
انقدت في احشائهِ نيران الجوع ونأى عن مقلتيه الرقاد والجأه سوء حظه
الى استرعاء الخنازير فلم يزل يرتع في خرنوب الذنوب ويكرع من منهل

القبائح حتى اخطر بباله ما عراه من الشقوة والذل فقال بنفسه كم من اجير في بيت ابي يفضل الخبز عنهم وانا ههنا اهلك جوعًا سامضي الى بيت ابي واعترف بذنبي قائلاً يا ابتاه خطئت في السماء وبين يديك ولست اهلاً ان ادعي لك ابنًا الخ. هذا الذي كان قد اخرجه الشبع من بيت ابيهِ رجعه اليهِ الجوع ومن كان في حال الرخاء عاصيًا متمردًا اضحى في الشدة طائعًا خاضعًا والذي ابعده الترفُّه والغناء قربهُ التعب والعناء فيا لعظم رحمة الله التي لم تدعْ ولدًا شاردًا في البراري بل ردَّته الى مقرّ راحتهِ وكل يوم تراها تهطل سحائبها على قلوب الخطاة لتعطي ثمار التوبة وتشرق شموسها على بصائر الضالين فتردهم الى سبل الهدى. فمن حنق العزم على التوبة فهذا اوانهُ هذا هو الزمان المقبول وهذا هو يوم الحياة اليوم اذا سمعتم صوت الرحمة يدعوكم الى التوبة فلا تقسوا قلوبكم بل يجب ان تلبّوا الدعوة بالاجابة كالابن الضال والا فيجري بمن تأخر ما جرى لديوجانيس الفيلسوف مع طيباريوس قبل ان يصير ملكًا وهو ان طيباريوس طلب مواجهة ديوجانيس فاجابه اني اليوم في شغل شاغل عنك لكن بعد سبعة ايام اواجهك وقبل نهاية المدة صار طيباريوس ملكًا فخاف الفيلسوف وترامى لدى الوزراء ليتوسطوا له بمواجهة الملك فاجاب الملك اني انا اليوم في شغل يشغلني لكن بعد سبع سنين اواجههُ فهذه الكلمة ربما كانت كافية لموت ديوجانيس. فالان يطلبك الرب فان تأخرت معتذرًا لمدة يأتيك يوم تطلب الرحمة فلا تعطى لك. فان الله يترقب اياب المتغرب عنهُ

ويخرج الى تلقيه بالترحاب ويَنتح باعه لعناقهِ واحتضانهِ ويسدل على زلاتهِ ستور عفوهِ ورضوانه . ويقدم لغذائه الحمل المذبوح على جبل صهيون ويضع في يده خاتمًا عربونًا للملك الابدي

العظة السابعة

« في مخافة الله »

قال الحكيم في سفر الامثال مخافة الرب ينبوع الحيوة
(ص ١٤ عد ٢٧)

من الواضح ان مخافة الله هي ينبوع الحياة باقسامها الثلاثة اي الحياة الروحية والحياة الجسدية والحياة المدنية . فالحياة الروحية هي عبارة عن وجود النفس في حال نعمة الله . والحياة الجسدية قائمة بدوام اتحاد النفس بالجسد . والحياة المدنية هي حالة تجعل الانسان حيًا لدى الناس باعتبار افعاله الممدوحة فمخافة الرب هي بمنزلة ينبوع لاقسام هذه الحياة الثلاثة المذكورة لانه لا يثبت النفس في برها ويكبحها عن الجموح الى الشر الا خوف الله المقدس . ولهذا قال سليمان الحكيم ان خوف الله ينفي الخطية التي تسلب حياة النفس . وقال حزقيال النبي النفس التي تخطأ تموت (ص ١٨) . وهكذا لا يحيا حياة جسدية كاملة نامة هنية رضية الا الخايف من الله لان سني المنافقين تتناقص كما قال الحكيم

(امثال ص ١٠) يسقطون مثل الخرنوب الذي يسقط قبل نضجهِ او كالزوان الذي يقلع من بين الحنطة قبل ان ييبس لان الله يمنح الحياة للانسان ليصرفها بخدمتهِ وخوفهِ تعالى فاذا ساء التصرف بها يسلبها منهُ قبل الوقت . والحياة المدنية تستلزم مخافة الرب لان الانسان من دونها ميت الاعتبار في عقول الجميع وذكره مفقود من افواههم ولما كانت الحياة الحقيقية باقسامها الثلاثة قائمة بنور الايمان وبر الاعمال وبالفضائل الالفية وحسن السلوك وجب ان نتكلم عن ذلك مفصلاً موضحين ان مبدأ كل منها هو مخافة الله . .

هذه هي الحياة الابدية ان يعرفوك انت الاله الحقيقي وحدك (يوحنا ص ١٧ عد ٣) ان اول مبدا يقتبسهُ العقل البشري هو المعرفة بوجود الله لانهُ منذ بلوغنا سن التمييز يكلمنا اباؤُنا عن الله ويعلموننا انهُ موجود في كل مكان في السماء وعلى الارض وانهُ يسهر على البشر ويعنى بسيرتهم ويهيء لهم ثوابًا وعقابًا في الاخرة وان بيده الموت والحياة . ومعرفة الله تلقي مخافتهُ وتغرسها في قلوبنا وتولد فينا عاطفة الاعتبار والمحبة لكمالاتهِ السامية وسلطتهِ المطلقة وهذه العاطفة هي مبدأُ النور لانفسنا لانها كصوت داخلي يكلمنا في كل ساعة وهي شعاع ساطع ينير عقلنا فيدرك واجباتهِ ويتيقن وجود مبدع الكائنات ويطلع على كمالاتهِ ويشعر بحضوره في كل مكان ويثق بمواعيده ويعرف عدل شريعته وانهُ ملتزم بالامتثال لها فينظر ويسمع ويفهم كل شيءٍ من دون افتقار الى الدرس والعلم لان ضياء شعوره بمخافة الله ينيره ويعلمهُ كل شيء .

ومخافة الله تبدي في الضمير مبدا غير منقوض وهو بغضة الشر والخوف من ارتكابهِ ومحبة الخير والرغبة فيهِ . وعليهِ قال داود النبي حد عن الشر واصنع الخير . فهذا المبدا ينبهنا على ان نبعد السنتنا عن التجديف واللعن الخ ويخمد فينا نار الغضب ويمسك يداً نرفعها لاذى القريب ويلقي الرعبة في قلب المجرم المتفكر بما فيهِ الشر على الغير . لان مخافة الله كسيف ذي حدين تقطع كل شهوة دنسة كقول مار افرام فلا يمسي المرء شريرًا ما لم يتزع من قلبهِ مخافة الله . ومخافة الله هي التي تحملنا على عمل الخير وهي واسطة لتقديس نفوسنا واساس الايمان وحارسة البرارة ومرسى يثبت النفس المتزعزعة

وهي ينبوع الفضائل الالفية الاربع اي الاستقامة . والرقة . والنظام والقيام بالفروض . فالاستقامة الحقيقية ما كان مصدرها خوف الله ففابلوا استقامة رجل يخاف الله مع استقامة من لا يخاف الله فتروا الفرق بينًا ان من يخاف الله ليست استقامتهُ مبنية على التظاهر امام الناس بل مؤسسة على المبادي الدينية وعليهِ فانهُ يكون في كل حال مستقيماً فتراه قويًا لا تزعزعه شدة التجارب . باسلاً لا تهولهُ الاخطار عزومًا لا يستهويه الغرور ولا ينفك عن الاستقامة ولو افضت الى ايقاع رزء في صوالحهِ وبالعكس من لا يخاف الله فان استقامته مبنية على التظاهر امام الناس وعلى اغراض ذاتهِ فكل ما يضاد امياله ينتض استقامته لان ليس خشية الله امام عينيهِ (رومية ص ٣) وكل تجربة او مصيبة تلم به تجعله ان يحيد عن الاستقامة وينكث بعهوده الخ ويخاف من ادني تعب

او خسارة فيغيّر ما كان اثبته باقسام هايلة فلا يخشى الخطية التي تتأتى من سوء تصرفه ولا الاضرار التى تلم بالقريب بسبب اعوجاجه في معاملته فان استقام يومًا اعوج عامًا فيرتكب الفواحش ولا يبالي قال ابرهيم قلت ان ليس في هذا الموضع خوف الله فيقتلوني (تكوين ص ٢٠)

ولا رقّة حقيقية الا في من كان في قلبه خوف الله . ومن خلا من هذا الخوف فرقته تعد خداعًا ورياء فيظهر الرقة والحلاوة ويبطن القساوة والمرارة يعد ولا يفي فانك تسمع خالك لابان يعدك براحيل الجميلة ويقدم لك عوضها ليا الشوهاء وشاول يعدك بميراب ابنته البكر ويعطيك ميخال العقيمة الخ . يسقيك من راس اللسان حلاوة ..
واما رقة الخايف من الله فتميل به الى الاحسان والمحبة وصدق الكلام

ومن خصايص الخايف من الله حفظ النظام فانهُ يسوس اموره الخارجية بحكمة ويتصرف بخيراته على مقتضى الحق والعدل ويوطد الوفق والاتحاد في عائلته ويسهر على تهذيب اولاده وكذلك في اموره الباطنية الروحية فانهُ يهتم بخير نفسه كل الاهتمام وكل افعاله مثمرة لانها موضوعة في محلها بمقتضى نظامها . وبالعكس الخالي من هذا الخوف . ومن مختصات الخايف من الله القيام بفروضه فان كان حاكمًا قضى بالعدل والانصاف منزهًا عن الغرض لانهُ يفكر ان الرب سيدينهُ . واذا كان خادمًا كان امينًا مخلص الحب ومكبًا على الشغل لانه يعتبر انهُ باع خدماته باجرته وانه يكرم الله بحفظه عهوده فطوبى لمملكة والفة وعائلة يتولاها خوف الله . . . وبالعكس حيث ليس خوف الله فانك لا ترى

فرضاً يتم بمقتضى العدل فالقاضي يرتشي ولا يختشي والشاهد يشهد زوراً
ولا يبالي. ورب العايلة يهمل تربية بنيه كانّ هذا لا يعنيه والخادم
يخون مخدومه والفاعل يتكاسل الخ. لان ليس خوف الله امام عيونهم.

وخوف الله قاعدة راهنة للسلوك

فنرى للبشر ثلاث قواعد يسيرون بمقتضى سننها وهي العلم والعقل
والتهذيب الان جميعها ليست منزهة عن الخطا اما العلم فانه معرض
للضلال وحامل على الكبرياء والافتخار كقول الرسول العلم ينفخ.
والعقل فيجب ان نحذره ايضاً لانهُ لا يكون دايماً في سلام وسكينة بل
كثيراً ما تستولي عليه الاهواء ولا يخفى ما ساق اليهِ العالم القديم من
الاضاليل. والتهذيب لا نثق به كل الثقة ما لم يستند الى المبادي الدينية
والا فيلقيك في شر المهاوي. فاذاً لا العلم ولا العقل ولا التهذيب
وحده يمكن ان يكون قاعدة وثيقة لحسن السلوك ما لم يكن مصحوباً
بخوف الله. فقد طالما قام على الدين اعداء يناصبونهُ ويحاولون ان
يضعفوا من قلوب الناس ما يجب للدين من الاعتبار والاحترام فخابت
امالهم. لاحترامه قدّم الشهداء دم اعناقهم الخ. وقد احب الناس حتى
في شر الايام من يتقون الله من اية حالة كانوا ولا يزالون يحبونهم الان
والى الابد لشعورهم بان في هولاء عناناً يكبح الاهواء الردية ومحركاً
يحملهم على الخير وعلى ما يوافق الالفة... كل احد يحب ان تكون
مخافة الله في خدامهِ وعبيدهِ ولو كان هو لا يعبأُ بها. فمن اراد ان يحيا حياة
مرضية فعليهِ ان يسمر خوف الرب في قلبهِ لانه ينبوع الحياة فلنعطَ ذلك.

العظة الثامنة

« المخلع »

واذ كان يسوع في البيت اتوا اليهِ بمخلع يحمله اربعة رجال واذ لم يمكنهم الوصول اليهِ لازدحام الشعب صعدوا على السطح وثقبوا سقف البيت حيث كان يسوع ودلّوا السرير الذي كان المخلع مضجعًا عليهِ (مرقس ص ٢)

فذاك المخلع الذي كان عاجزًا عن الوصول الى السيد المسيح بذاتهِ واضطر الى ان يحمله اربعة رجال يبلغونه الى الطبيب السماوي يمثل لنا حالة الخاطي الذي قد تخلع بخطيتهِ ولم يعد متمكنًا بذاتهِ من السلوك في طريق الخلاص فيحتاج الى من يحمله الى التامل بالامور السماوية ويطرحه على اقدام المسيح ليشفيه . فكما ان تخلع الجسد يتولد اولاً من شدة البرودة فتتشنج الاعصاب ويبطل سريان الدم فتتعطل آلات الحس كما قال جالينوس هكذا تخلع النفس يحدث عن برودة الروح وعدم وجود المحبة فيها فيضحي الانسان عديم الحس بالامور الروحية عاجزًا عن الحركة والانتقال الى الاعمال الصالحة . ثانيًا تخلع الجسد يتولد من زيادة البلغم وشدة الافتكار باعمال متعبة مزعجة هكذا ينشأ تخلع النفس من بلغم الشهوات والتنعم بالماكل والمسكرات ولكثرة الافتكار بما يميل اليهِ الجسد من الامور الغير المباحة . وكما ان تخلع الجسد يعالج

بالادوية الحارة والمنبهات القوية كذلك تخلع النفس يداوى بحرارة المحبة والتامل في تلك النار الشديد سعيرها ولكن فما اكثر المخلعين بالروح في عصرنا وما اقل من يحملهم الى التوبة . فمنهم من سقط كداود وليس له ناتان ومنهم من اختلس كرم نابوت كاخاب وليس له ايليا . ومنهم كثيرات كهيروديا وليس لهن يوحنا المعمدان لزجرهن . وكثيرات متكبرات نظير اودكسيا وليس فم الذهب لكبحهن وما اكثر طالبي الانتقام مثل تاودوسيوس الكبير وما من امبروسيوس يتصدى لتعنيفهم وما اكثر الراقدين في زورق تمردهم وعصيانهم كيونان وليس لهم مدبر سفينة ينبههم وما اكثر الذين يبدرقون اموالهم وزمانهم وصيتهم بالسكر واللعب المحرم وليس من يقلب موايد ملاعبهم ولا من يكسر اقداح مسكراتهم ويرفعهم عن باب تلك الهاوية لئلا يسقطوا فيها . اين انت يا ايوب كرّر عليهم ان الذين يفنون بالتنعم ايامهم بسرعةٍ الى الهاوية يهبطون . اين انت يا رسول الامم كرّر عليهم ان الزناة والسارقين والسكيرين والشاتمين لا يدخلون ملكوت الله بل نصيبهم يكون في بحيرة النار والكبريت فياليت محبة اولئك الذين حملوا ذاك المخلع وقدموه الى السيد المسيح تضرم فينا نار الغيرة لمساعدة النفوس المطروحة على سرير الآثام وعليه نبني الخطاب موضحين بشهادات الهية وادلة عقلية التزام كل منا بذلك

ان حزقيال النبي راى مركبة يحملها اربعة كاروبيم ولكل واحد اربعة اجنحة واجسامهم مملوة عيونًا ومنظرهم كجمرات نار متقدة وكان

الرب جالساً في المركبة . فتلك المركبة هي رمز للنفس التي يجب ان تكون عرشاً يحل الله فيهِ . انتم هياكل الروح القدس . والاربعة الكاروبيم ذوو الاجنحة الاربعة هم جماعة المومنين على اختلاف حالاتهم المترتب على كل منهم ان يحمل النفس المخلعة بالخطية ويقدمها بسرعة اجنحة اقواله ومثالهِ الى السيد المسيح ليشفيها ويحل فيها . وان يكون كلهُ عيوناً يقظى ليرى من كان محتاجاً الى المساعدة ويكون كجمراتٍ متقدة بنار المحبة

اننا لو عرفنا قيمة النفس وجمالها الذي تفقده بالخطية لما ابقينا على تعب ولا على دمع ولا على دم لكي نبعدها عن الهلاك ونربحها للمسيح فهذا الذي كان يجعل القديسة ترازيا ان تهتف قائلة ان فوأدي ليتمزق حزناً لدى افتكاري بكثرة الانفس التي تهلك . والقديسة كاترينا الساروفية التي كانت تشتهي ان تطرح في فم جهنم وتسد بابها لئلا يدخلها احد . .

لما ظهرت يهوديت الشجاعة في معسكر الاثوريين ونظروا جمالها وحسن آدابها قالوا من يستخف بالعبرانيين وهم نساء مثل هذه المراة البهية فلنحاربهم ونقتحم المخاطر لنربح هذه الغنائم الحسنة . فما حسن يهوديت بالمقابلة الى حسن النفس التي هي صورة الله الفايق الجمال والبهاء فلو امكنني ان اريكم صورتها الحقيقية لاضرمت في قلوبكم نار المحبة وهتفتم قائلين فلنبذل عرقنا ونجاهد حتى الدم لنربحها . اذا رأيتم نعجة في فم الذئب ترق قلوبكم وتسارعوا لانقاذها . واذا شاهدتم باشقاً منقضاً على

حمامة ليمزقها بمخاليبهِ يكاد يتمزَّق قلبكم عليها كيف يمكن ان تبصروا نفساً في فم التنين الجهنمي ولا ترأفون بها وتسعون لتخليصها . لا تبرّئ نفسك من الذنب اذا هلك حيوان جارك وانت قادر على انقاذه فكيف تبرّئ نفسك من الاثم اذا هلكت نفسه وانت تستطيع ان تنقذها بشيءٍ قليل . يقول القديس برنردوس يقع الحمار فيوجد من ينهضهُ وتقع النفس وليس من يسندها . كثيرًا ما نرى اصحاب الفضل يعتنون باقامة مستشفيات ومستوصفات للمرضى والسقماء فحسنًا يفعلون لكن ياليتهم يغارون على شفاء الانفس المريضة المخلعة كما يغارون على الاجساد المريضة . يبادرون لمساعدة سكان بلدة انتشر فيها الوباء فيا انا نرى يوميًا الانفس تباد بوباء الخطية وما من يبالي بها . قد رقت القلوب على اهل سائس لما خسف قسم من مدينتهم وامدوهم بالاسعاف . وفي كل يوم نري بيوتًا يخشى عليها ان تخسف بسكانها من كثرة الشرور ولا يرق قلبك . وربما يكون بيتك من جملتها لان فيهِ من الشرور اعظمها

فتقدر ان تساعد قريبك بالصلوة . فالقديسة ترازيا قد اسست رهبنتها خاصة للصلوة لاجل ارتداد الخطاة . وصلوة ام القديس اغوسطينوس ردته الى الايمان وصلوة اسطفانوس ردت بولس

وتستطيع ان تساعد الخاطي ايضًا بالتقشفات فكان القديس فرنسيس كسفاريوس يمزق جسده بالسياط لاجل ارتداد خاطي واحد . فكم من القديسين قد صاموا وبكوا سنين عديدة لكي ينالوا المغفرة لنفس خاطية

ساعده بالمشورة الحسنة. اذا رايت مسافرًا يسير في طريق خطرة فانك تهديه الى الطريق المستقيم. وها انني لا اراك تقول شيئًا لاولادك وخدامك الخ

قال الحكيم انقذ صاحبك بقدر قوتك (سيراخ ص ٢٩) انقذه من تلك الاحبولة الجهنمية. انقذه من تعوده على السكر. انقذه من شرك البطالة التي تسبب شرورًا. واسعَ لهُ بحرفة يعيش منها. انقذه من احبولة العداوة. صالحه مع خصمه ووفّر عليهِ الخسائر وخراب بيته. انقذه من اسر فرعون وحضره معك للوعظ وللرياضة. وكأَني بك تقول لست بملتزم ان اعاني هذا التعب بانقاذ غيري من الخطية لان ذلك منوط برعاة الانفس ويكفيني ان اخلص نفسي فزعمك هذا يلزمني ان التفت الى يسوع المصلوب والتمس منه قائلاً له ارجوك ياسيدي ان تنزل عن الصليب الذي ارتضيت ان تسمر عليهِ لكي تخلصنا باحتمالك العذابات والجلد وتهشيم اعضائك وسفك دمائك لانك لم تكن ملتزمًا بذلك

وفوق ذلك فالتزامك مقرر من ثلاثة اوجه. اولاً من وجه المحبة للقريب. وثانيًا من وجه محبة ذاتك. وثالثًا من وجه العدل. محبة القريب تلزمك باسعافهِ اذا كان في ضيق جسدي فبالاولى اذا كان في ضيق روحي. يرق قلبك عليهِ اذا رايتهُ يطوي اياما بلياليها جائعًا مرتجفًا من البرد ولا تشفق عليهِ حال كون نفسه في فاقة تبلغها الهلاك. قال الرب احبوا بعضكم بعضًا كما انا احببتكم. فالاعضاء تلتزم بمساعدة المريض منها.

ومحبة ذاتك توجب عليك المساعدة لقريبك لانك اذا رايت بيت جارك الملاصق بيتك مشتعلاً بالنار تسرع باطفائهِ مخافة لن تصل النار الى بيتك . فحينما يخطأُ قريبك فتكون النار قد اتقدت في جيرتك فعليك ان تسرع باطفائها لئلا تصل اليك . فمن اين تعلم انه تعالى لا يعاقبك بجريرتهم . بخطية يونان كان اشرف على الغرق جميع الملاحين. وبذنب يهودا كاد يغرق جميع التلاميذ في بحيرة طبرية . وبسرقة عاخان انكسر شعب اسرائيل في مدينة عاي . واننا نرى منجلاً واحدًا يحصد الزرع والهشيم في وقت واحد . وصاعقة واحدة تحرق في الكرم العنب والشوك معاً . هكذا سخط الله يبيد مرارًا كثيرة الابرياء مع المذنبين لكي يعتني كل انسان ليس باصلاح نفسه فقط بل باصلاح غيره ايضًا ونصير جميعنا اعضاء لجسد واحد . ومن الواضح انهُ اذا تغاضت الاعضاء عن معالجة العضو الجريح يستحيل جرحه ناسوراً ويسري الضرر لباقي الاعضاء . ومع ذلك ان ربح نفس واحدة له اجر قدام الله اكثر من جميع الاعمال الصالحة لان من يعطي الفقير يزيل جوعه ومن يرد خاطيًا يزيل نفاقه . ذاك يخلص الجسد من الضيق السريع الزوال وهذا ينقذ النفس من الحريق المؤبد

والعدل لا يبرئك من الالزام فان كنت لم تسبب عثرة لاحد ليسقط في الخطاء او لم تحملهُ عليهِ فلست بملزوم عدلاً لكن ان كنت حملت احدًا على الخطاء بتعليمك الشر او بحثك اياه عليهِ او بمدحك له او بطريقة اخرى كيفما كانت فالزامك مقرر عليك . فقد خطفت

من الله نفساً فتلتزم من قبل جميع الشرائع ان ترد نفساً بدل نفس . غوصوا في بحر القلزم واجمعوا كل ما يحويه من اللآلئ. وقدموا لله كل ما في العالم من الحرائر والارجوان والذهب والماس . فهذا لا يوازي قيمة نفس قد خطفتها من يد الله بمثلك الملتوي ومشوراتك الردية : فيلزمك ان تبذل جهدك وتحمل هذا المخلع وتخضع عند قدمي يسوع وتقول لهُ يارب قد خطئت واختطفت منك ذاك البار وها انا الان اقدم لك عوضاً عنهُ هذا الخاطي

وبهذا كان داود الملك يعد الله عند توبتهِ قائلاً فاعلّم الاثمة طرقك والخطأة اليك يرجعون ألعلّ داود كان واعظاً او مرشداً ليقوم بوظيفة تعليم الخطاة . كلاَّ . بل لما تذكر انهُ باشتهار بعض ذنوبه صار سبباً لخطية كثيرين رأى انهُ لا يسوغ لهُ ان يستميح الغفران من الله ما لم يرد الى التوبة خطاة بقدر ما كان اضل منهم . ومثلهُ اغوسطينوس ومار بولس :

ان اولئك الذين حملوا المخلع لم يكونوا سبباً لتخلعهِ فلم يكونوا اذاً ملزومين ومع ذلك تحملوا رائحة نتانته وهيئتهُ الذرية وثقله وثقل سريره ومشقات الطريق ومصادمات الشعب لهم ورفعه الى السطح وثقب السقف وتدليه . فاذاً ليس بكثير عليك اذا تحملت مثل هذه المشقات لاجل ارتداد الخاطي الى التوبة لان من رد خاطياً عن ضلال طريقهِ قد خلص نفساً من الموت وقدم لله تقدمة مقبولة اكثر من كل شيءٍ

قد اخبر لوتاركوس المؤرخ عن كيمون اعظم قواد جيش اليونانيين انهُ بعد ان ظفر بالفرس واغتنم منهم غنائم وافرة وجمًّا غفيرًا من الاسرى مجرحين عراة بحالة يرثى لها فعند اقتسام الغنائم بينهُ وبين باقي القواد قد جعل الاموال الوافرة والاسلحة الثمينة والثياب الفاخرة قسماً · وجعل الاسرى المذكورين قسمًا · وقال لاقرانهِ انتخبوا ما تحبونهُ من هذين القسمين . فانتخبوا للحال المال والغنائم وتركوا لهُ الاسرى والجرحى مستهزئين بهِ لقسمتهِ هذه ومنحه لهم الاختيار باخذ ما شاء وأما كيمون فبعد ان داوى الجرحى وابراهم حتى تعافوا وجد من اهلهم من اشترى كل اسير منهم باكثر مما اخذ جميع باقي القواد . هكذا ان داويت الخاطي الجريح بنصحك وتعليمك وانقذت اسير الخطية بمثالك الصالح يعطيك الرب عنهُ ما يفوق الجواهر الكريمة

فعلينا ان نقتدي بمثال هذا القائد الحكيم ونفضل ربح النفوس على ربح الفلوس ونتقد بنار الغيرة بالمثال والكلام على معالجة المخلعين بالخطية راجين جوده تعالى ان يجزينا خيرًا دنيا واخرى بشفاعة مريم البتول وجميع القديسين امين

العظة التاسعة

« لاحد المخلع »

قال يسوع للمخلع احمل سريرك وامشِ . . . ولا تعد الى الخطيئة لئلا يصيبك اشر من الاول (يوحنا ص ٥)

انهُ كان يوجد في اورشليم بركة تسمى بركة الضان قد شيَّدها سليمان الحكيم لخدمة الهيكل معدَّة لغسل الضان التي كانت تقدم ذبايح لله في الهيكل ولشفاء المرضى . لان ملاكاً كان ينزل اليها حيناً فحيناً ويحرك مياهها . ومن كان ينزل اولاً بعد تحريك الماء كان يشفى من جميع امراضهِ . ولهذا كان يرى حولها كثيرٌ من المخلعين والعميان والبرص والمجذمين والمحدوبين . ومن جملتهم كان هذا المخلع الذي استمر طريحاً عندها ثمان وثلاثين سنة . وكان كلما نزل الملاك وحرك الماء يسبقهُ غيره من المرضى . ولكونهِ عاجزاً عن النزول بذاتهِ وما كان لهُ انسان ينزلهُ بقي كل تلك المدة بدون شفاء الى ان رآه يسوع فترأف عليهِ وسألهُ أتريد ان تشفى . فاجابهُ نعم ولكن ليس لي انسان اذا تحرَّك الماء يلقيني فيهِ . فابرأهُ يسوع وقال لهُ . قم احمل سريرك وامشِ : فهذه البركة هي رمز على سر التوبة الذي انشأه سليمان الحقيقي يسوع المسيح في كنيستهِ لغسل الخراف الناطقة من ادناس خطاياها لتصلح ان تكون

في هيكل اورشليم السماوية . ولشفاء الامراض الروحية . ولكن بهذا الفرق وهو ان تلك لم تكن تشفي الا من نزل اولاً بعد حركة الماء · واما التوبة فتشفي دائمًا · فكم شفت وتشفي من المخلعين الذين خلعتهم الخطية وجعلتهم عاجزين عن المشي في طريق الخلاص . وكم فتحت من العميان الذين رذيلتهم اعمت بصيرتهم وكانوا سالكين في ظلمة الهلاك · وكم طهرت من البرص والمجذمين بالخطية الردية . وكم قوّمت من المحدوبين نحو الارضيات فعادوا ينظرون الى السماويات · · ·

وهذا المخلع الذي كان قد تغير لونه وخارت قواه ورثت ثيابهُ وانتن وترك من الجميع يصوّر لنا حالة كثيرين من الخطاة الذين مضى عليهم اكثر من ثمان وثلاثين سنة وفقد لونهم الحسن وضعفت قوى انفسهم وتمزّق ثوب برارتهم وانتنت وفاحت جراحاتهم وليس لهم انسان · يا كاهن الله انهُ يوجد في رعيتك اكثر من مخلع وليس لهُ انسان غيرك فقدّمهُ الى البركة اي الى سرّ التوبة · يا رب البيت يوجد في بيتك مخلع وهو ابنك. امرأتك. خادمك وليس لهُ انسان غيرك قدّمهُ الى الرياضة · يا امرأة ابنتك مخلعة قدميها . يا شاب نفسك مخلعة وليس لها انسان · فبالحقيقة ان حظ ذاك المخلع الاخر الذي كان في كفرنا حوم احسن من حظ نفسك لانهُ وجد لهُ اربعة رجال غيورين ذوي شفقة حملوه وصعدوا به الى السطح وثقبوا سقف البيت ودلّوه من على سريره الى يسوع فابرأه . كن غيورًا على نفسك المخلعة بالخطية وارفع افكارها الى العلاء واثقب السقف الحاجز بينك وبين يسوع اي لاش ِ الخطية

وامحها بدموع التوبة

ذاك المخلع بعد ان ابرأه يسوع رآه في الهيكل يشكر الله على شفائهِ حينئذٍ قال لهُ لا تعد تخطأ لئلا يصيبك اشر من الاول وهكذا اقول لكل تائب أراه في هذا الهيكل المبارك . لقد عوفيت من مرضك الروحي لا تعد تخطأ الخ. فمن هنا ينتج ان الذين يعاودون الخطاء يقعون في شرّ اعظم ويصعب جدًّا تخلصهم من احبولة الاثم. لكونهم برجوعهم اليهِ يرجع الشيطان الى نفوسهم ومعهُ سبعة ارواح اشر منهُ (لوقا صـ ١١) ولنا في ذلك مثل يطابق ما نحن في صدده وهو

رجل شريف وقع اسيرًا بيد بربري فغلَّلهُ بالقيود واودعه السجن غير انهُ لم يضيق عليهِ كثيرًا . فالاسير اغتنم الفرصة عند غفلة السجان . فحلّ القيود وفتح الباب وفرّ هاربًا . فحسنًا فعل . ولكن اذا لعدم ادراكهِ اخذ يتوانى في سفره الى ان شعر مولاه بهربهِ فجرى في اثره حتى ادركه . فترى باي سجن يلقيه واية قيود يقيده بها ولاي حارس يسلمهُ . لا ريب في انه يلقيه في اضيق السجون واظلمها . ويوثقه بيديه ورجليه وعنقهِ باشد الوثاقات واثقلها . ويسلمه لاقسى الحراس واظلمهم . واذا كان قبلاً ماذونًا له بان يستنشق الهواء فلا يعود يسمح له ان يعاين النور . وان كان مسموحًا له سابقًا ان يتمشى في سجن متسع . فالان ما عاد يعطيه مكانًا يضجع فيهِ . ولا يكتفي بهذا بل يزيد عليه الصوم والحصر والضرب كل يوم ليضنكه ويضعفه ويمنعه عن الفرار ثانية . فالخاطي هو اسير الشيطان فان تاب يكون قد تخلص من اسره . ولكن اذا عاد وسقط في

الخطية ترى ماذا يصنع به . لا شك في انه يلقيه في اضيق سجن ولا يدعه يرى شمس النعمة ويسدُّ عليه كل نافذة ؛ وينظر من اي باب خرج فيسدُّه . فان كان قد تاب من تلاوة كتاب روحي فيحترس عليه حتى لا يعود يصادف الا كتب الملاهي والخلاعة والخرافات مثل كتاب عنتر وفولتر وغيرها من القصص الخالية من روح الديانة المسيحية . وان كان تاب من استماع الوعظ فلا يعود يدعه يدخل الكنيسة . وان من تردده الى جمعية روحية او احدى الاخويات . فيجتذبه الى معاشرة الرفقاء المشككين والى السهرات ذات المجون والخلاعة . وان من الالهامات الباطنية فيشغله بالاشتباكات العالمية التي لا يسمع فيها صوت الله . وبهذا يسيج عليه ويثقل قيوده كقول ارميا . سيج عليَّ فلا استطيع الخروج . وثقل سلسلتي (مراثي ص ٣) . فيا ليت الخاطي يقتدي بما تفعله الحيوانات غير العاقلة بهذا الصدد لاننا نرى الاسماك التي فلتت من الصنارة والغزلان التي نجت من الفخاخ والطيور التي تخلصت من الدبق مرة واحدة تحترس جدًّا من السقوط ثانية

قيل عن الدبّة انها اذا جرت وراء السعدان لتفترسهُ يصعد على شجرة فتطرح نفسها على الارض كانها ماتت فيطمأن السعدان وينزل فتثب عليهِ بغتة وتفترسهُ بمخاليبها . هكذا يصنع الشيطان نحو الخاطي فيظهر ان التجربة قد ماتت فلا يعود الانسان يحترس على ذاتهِ فيسقط ويكون سقوطه عظيمًا . قال الرسول ان محاربتكم مع ارواح هذا الجوّ الخبيثة (افسس ص ٦) فكم وسوسوا ويوسوسون لهذا وذاك ان افعل هذه

الخطية وبعدُ اعترف بها . وكم من مخدوع بمثل هذه الوساوس . ولكن اذا مات هذا في خطيتهِ فاي شقاء يحلُّ به . فاي عاقل يكون بيده جوهرة ثمينة فيطرحها في البحر آملاً انه سيفتش عليها ويجدها . فما الجوهرة الكريمة الاَّ نعمة الله التي يخسرها الانسان باقتراف الاثم راجيًا انه سيجدها في التوبة . ومن اين يعلم ان الله يعود فيعطيه موهبة التوبة . وما مثله الاَّ مثل امرأَة كانت تعرف حشيشة تنفع للجرح فاخذت سكينًا وجرحت يدها لتختبر مفعول تلك الحشيشة فكان لسوء رأْيها الجرح قويًا جدًّا حتى فرغ دمها فماتت

فالحذر من وساوس ابليس الذي لم يترك حيلة الا وقد استعملها في تجربة الناس ليبعدهم عن الله ويستعبدهم في رق الخطية ويشهد بذلك قايين التعيس وقوم لوط ويهوذا الدافع الذي دخله الشيطان وذاك الناسك الذي رأَى ما جرى من تعصب الارواح الخبيثة على اهل انطاكية . قيل ان في احد الازمنة الخالية قد حضر بعض المرسلين الى مدينة انطاكية وباشروا فيها عمل الرياضات الروحية بغيرةٍ حارة وعظات موثرة فعالة اخذت بجامع القلوب . فمن جرى ذلك قد تاب اهل انطاكية جميعهم وغيّروا ما كانوا عليه من العوائد الغير المحمودة وتفرغوا لخدمة الله وعبادتهِ كما يجب على مؤمن يرغب في خلاص نفسه . فعندها نظر احد الحبساء من صومعتهِ فرقة من عسكر الابالسة خارجين من المدينة فارّين مولولين حاملين الادوات التي كانوا يجربون الناس بها وهي مكسرة مثل اقداح السكيرين وموازين البائعين ... وموضات

النساء ودفاتر المرابين الخ· وفيما هم هاربون واذا برئيسهم آتٍ ومعه
فرقة اخرى فلما رآهم خارج المدينة غضب منهم وانتهرهم قائلاً ما بالكم
غادرتم مركزكم وتركتم عملكم قالوا لهُ ما عاد لنا محل ولا شغل في انطاكية
لانهم انتصروا علينا بالتوبة وكسروا اسلحتنا وطردونا بمساعدة الواعظين
فاجابهم ارجعوا واصبروا قليلاً بينما يذهب الواعظون من عندهم
فيرجعون اشر من الاول . وكان ذلك بمرأى ومسمع من الحبيس
المذكور الذي ترك المحبسة حالاً واسرع الى المدينة ونادى في اسواقها
بما رأى وسمع وحذَّرهم من العود الى الخطايا لئلا يعود ابليس اليهم فيقعون
في شر المهاوي وسوء العاقبة

فلا ريب ان المريض المتنكس يعسر شفاؤُه من اربعة اوجه :
اولاً من جهة المرض ثانيًا من جهة الجسم ثالثًا من جهة الادوية
رابعًا من جهة الطبيب· فالمرض كلما طالت مدته يشتد ويزداد تمكنًا
ويعسر استئصاله من الجسم كالشجرة المتمكنة في الارض لطول المدة
فانهُ يعسر قلعها فيما كان قلعها سهلاً في ابتداء غرسها . والجرح ان عولج
حالاً فيشفى بماء بارد او بقليل من البلسم . ولكن ان طال تماسى واضحى
ناسورًا وسرى في الجسم كله وصار من المستحيل شفاؤُه هذا من جهة
المرض· واما من جهة الجسم فانه يزداد انحلالاً وتضعف قواه لطول
المدة وقلة الغذاء ونقص الدم ومثله مع المرض مثل من انغلب لمصارعه
مرات واثخن بالجراحات وفرغ اكثر دمه فان كان انغلب في حال قوتهِ
فكيف يغلب حال ضعفهِ· واما من جهة الادوية فانهُ بتكرار اخذها يقل

نفعها لموافقة الطبيعة عليها لاسيما باستعمالها خلافًا للقانون . واما الطبيب فانهُ يضجر من عيادة المريض واعادة العلاج متى راى المريض لايحترس ولعدم الحمية وقلة التوقي ينتكس فيهملهُ ولا يعود يعتني بهِ فتطول علتهُ ويصدق به المثل السائر من طالت علته كان القبر ماواه

وهكذا على سبيل التمثيل من انتكس بمرض الخطية يعسر شفاؤُه من الاوجه الاربعة المذكورة اولاً من جهة الخطية المتملكة في النفس فانهُ يصعب اخراجها من كرسي ملكها وقد حذَّرنا الرسول بقوله لا تملكنَّ الخطية في جسدكم . وما ارعب قول الله بلسان ارميا النبي القائل . ان قدر الحبشي ان يغيّر جلده او النمر تبقيعه تقدرون انتم على عمل الخير بعد انكم تعودتم عمل الشر . ثانيًا من جهة النفس فتضعف قواها لابتعادها عن النعمة . والعملية اكبر شاهد اذ نرى ان ذاك الذي كان يقاوم التجربة اول مرة تجرب فلما تعود الاثم صار يشربه مثل الماء . ثالثًا من جهه الادوية الروحية فانه يصير يستعملها على سبيل العادة دون استعدادٍ واجب فتضحي مضرة احرى مما تكون نافعة . رابعًا من جهة الطبيب الذي هو الله فلا يعود يمنحهُ النعم الفعالة الغير الاعتيادية كما يمنحها للابرار لانه نكث بوعده لله مراتٍ كثيرة ولم يعامل ربه اقلهُ نظير معاملة الناس بعضهم لبعض بحفظ الوعد . اذ نرى يهوذا بن يعقوب قدم ذاتهُ للسجن المظلم لكي يحفظ وعده لابيه برده اخاه بنيامين سالمًا . فيقول له الرب ان الارض التي شربت المطر مرارًا ولم تزل تنبت

الشوك والقرطب فتلك منفية وليست بعيدة من اللعنة وآخرتها الحريق
(عبرانيين ص ٦)

فحيث اتضح جليًا خطر هلاك من يعود الى الخطية بعد التوبة فعلينا ان ننظر بالوسائط الواقية من الرجوع . فالواسطة الكبرى هي الهرب من السبب الخارج اذ النصرة في هذه الحرب تتقرر للجبان الذي يخاف ويهرب . قال الحكيم من يحذر الفخاخ يكون مطمئنًا . ان ما صنعهُ تركويلوس احد تلاميذ افلاطون بهذا المعني هو من ادق الحكمة البشرية فالمذكور قد سافر مرة في البحر فانكسر المركب الذي كان فيه وفقد كل ما كان له ولحسن حظه نجا من الغرق بدفةٍ تمسك بها وعند وصوله الى داره مرتعدًا مرتعشًا امر حالاً بسد طاقتين كانتا في داره تكشفان على البحر لخوفهِ من ان يراه منها في وقت اخر هاديًا ساكنًا فتسول لهُ نفسهُ ان يسافر فيهِ مرة اخرى فيغرق ٠

فيلزم التائب الذي نجا من غريق بحر الخطية المهلكة بواسطة دفة التوبة ان يقتدي بهذا الفيلسوف ويسد الطاقات اي الحواس التي تشرف على البحر لان الموت يدخل من طاقاتنا . ولا يخفى ان الموضوع الملذ للحواس يصعب الامتناع عن اشتهائه اذا كان حاضرًا بخلاف ما اذا كان بعيدًا ٠ مثلاً كم يصعب على الجائع ان يمسك نفسهُ عن الاكل حينما تعدُّ امامهُ مائدة فاخرة . وكم يعسر على العليل ان يصد نفسه عن شرب الماء اذا رأى الكؤوس امامه مملوءة ماء رايقًا . وكم يعسر على المغرم باللعب ان يمنع نفسه منهُ بحضور موائد اللعب وارفاقهِ اللاعبين الذين

يحرضونهُ عليه . وكم يصعب على المضرور ان يهدي حركة غضبه بحضرة من اضرّه . وكم يشق على المرابي والطماع ان يسكن حركة الطمع متى رأى الذهب وانفتح سبيل الربح وما اشبه ذلك .

ولاثبات مثل هذا المعنى ذكر ارسطو الفيلسوف عن عظماء مدينة ترويا انهم حينما كانوا يجتمعون في ديوان الشورى للمخابرة في طرد هيلانة العاهرة التي نجست مدينتهم ففي غيابها كانوا يجمعون في الحكم على طردها ليريحوا الشعب ولكن اذ كانت تحضر امامهم وينظرونها كانوا ينبهرون من جمالها وينصادون بمواهق شفتيها ويغيرون رايهم عازمين على ابقائها في المدينة رغماً عن كامل الشعب اليوناني الذي كان يطالب نفيها . والشيطان قاتله الله لمعرفتهِ ان الموضوع الحاضر له قوة عظيمة في الفاعلية صوّر للمسيح ممالك العالم كلها واصعده جبلاً عالياً واراه اياها قائلاً ان سجدت لي سجدة واحدة اعطيك هذا كله املاً انه باصطياد الحواس يمتلك الارادة

ومن يظهر على نفسهِ انه لا يريد الخطأ ومع ذلك لا يهرب من السبب فيكون اتكاله اما على فضيلتهِ واما على نعمة الله . والامران لا يحفظانهِ من السقوط لان من يتكل على ذاتهِ يسقط فما هو اقدس من داود ولا احكم من سليمان ولا اقوى من شمشون وحين وجدوا في السبب سقطوا . ومن يتكل على نعمة الله ويلقي ذاته في السبب فلا ينجو . لان الرب لا يمنح نعمته غير الاعتيادية الا للذي لا يقدر ان ينجو بدونها . نعم انه نجّى الفتية من الحريق في اتون بابل ويونان في بطن

الحوت لكنهم لم يلقوا ذواتهم في هذه التهلكة بارادتهم. فمن يرحم حاويًا تلدغه افعى (ابن سيراخ ص ١٢)

ثم انهُ لا يكفي لعدم الرجوع قطع السبب الخارجي وحده بل ايضًا كبح الاميال ومقاومة العادة الردية والاَّ فما الفائدة اذا طردت العدوَّ من بيتك واغلقت الباب في وجههِ وما عدت تريد ان تنظره وابقيت لهُ صديقًا داخل بيتك . أَما تخاف ان صديقهُ يخونك ويفتح لهُ الباب على حين غفلة فيدخل يقتلك ويسلب مالك فلا شك انك تخشى ذلك . فان كنت حكيماً فعليك ان تطرد صديقهُ ايضًا او تقتلهُ او توثقهُ فتستريح. فالخطية هي العدو وقد اخرجتها من نفسك مرات كثيرة بواسطة التوبة ومرات كثيرة رجعت وما كنت تدري من فتح لها الباب . فيجب ان تعلم ان للخطية صديقين في نفسك وهما ابوها وهو الميل الفاسد وبنتها وهي العادة الردية التي خلفتها في بيتك . فابوها جنزره لانك لا تقدر ان تقتلهُ بل انهُ يبقى حيًا فيك ما دمت حيًا . فاذا حرضك مثلاً على الكبرياء فجنزره بقول الحكيم لماذا يتكبر التراب والرماد . او على ارتكاب الفحشاء فقيّده بقول الرسول ان الزناة لا يرثون ملكوت الله الخ . واما بنتها التي هي العادة فاقتلها بعادة صالحة مضادة لها . لان العادة تبطل بالعادة فان كانت فيك عادة الكسل مثلاً كما كنت لا تعترف الا مرة واحدة في السنة فاقتلها باعترافك كل شهر مرة ونشّط ذاتك بقولهِ تعالى العبد الكسلان شدّوا يديه ورجليه والقوه في الظلمة البرانية . وان لم تقتلها فترجع امها تزورها لان

من لها بنت في بيت فلا ريب انها تكرّر لها الزيارات واذا كانت هذه الام سرّاقة فتعلّم بنتها لتسرق من بيت معلمها وتعطيها لتأخذ لابيها. فالخطية هي الام والعادة بنتها والعدو هو الاب. فمتى كان للطائر او للحية فراخ في بيتك فلابد ان يفتقد كل منها فراخه فاخرج الامة وابنها. اي اترك الخطية وسببها واتكل على الله وشفاعة مريم العذراء طالبًا نعمة الثبات الى المنتهى التي نرجوها لجميعنا بنعمة الثالوث الاقدس الاب والابن والروح القدس

العظة العاشرة

« لاحد الاعمى »

وكان اعمى جالسًا على قارعة الطريق يستعطي

(مرقس ص ١٠ عد ٤٦)

من الواضح ان العمى مصيبة كبرى وبلية عظمى على الانسان واحب اليه ان يفقد كل شيء ولا يفقد نظره. لان الاعمى اولاً ممنوع من التمتع بمشاهدة النور الذي تفضل الله وخلقه قبل كل شيء كقوله تعالى فليكن نور فكان (تكوين ص ١). وممنوع من الابتهاج بضياء الشمس واشعة الكواكب واعمال الله البهية التي امتلأ العالم منها. ولا يتمكن من النظر الى وجوه الناس الطلقة التي تنفي الغم والكرب بل

يبقى حزيناً ابداً ولهذا كان يتنهد طوبيا البار حال عماه قائلاً من ابن لي الفرح وانا جالس في الظلام لا ابصر ضوء السماء (طوبيا ص ٦ عد ١٢) ثانياً ان الاعمى لا يقدر ان يسير بدون ضلال ويخشى ان تعثر بحجر رجلهُ او يطأ افعى فتلدغه او يسقط في مهواة . ثالثاً لا يمكنه ان يتعلم حرفة ولا يتقن مهنة ولا يطالع كتباً ولا يميز الخالص من الزيوف وكثيراً ما يطلب الامر من غير موضعه فتراه يطلب الماء من النار وبالعكس وكثيراً ما باع النفيس بالخسيس وما ابتاع الغالي بالرخيص

هكذا الاعمى بالروح فانه يفقد نور النعمة الالهية ومشاهدة الله البهية ويعثر متدهوراً من خطية الى خطية ولا يتعلم ما يفيد الخلاص ولا يميز نعمة الله من لذاتهِ الدنية ويطلب الراحة والغنى من ذات التعب والعناء ويبيع نفسه النفيسة بابخس الاثمان ويشتري جهنم بالسماء وعليهِ فيكون هذا العمى الروحي اكبر مصيبة من العمى الجسدي فلزم ان نبين اسبابهُ ونتائجه وكيفية الشفاء منهُ وقبل كل شيء نلتجي الى الروح الخ

فاسباب العمى الجسدي ثلاثة . اما من ذاته اما من علة خارجية . اما من الله تاديباً . هكذا العمى الروحي اسبابهُ ثلاثة اما من ذات خبث الخطاة كقولهِ خبثهم اعماهم (حكمة ص ٢) اما من الخارج كمن يعاشر العميان اي الخطاة فيبلي بعماهم وهم الذين اشار اليهم الرسول (قرنتية ص ٤٢) بقولهِ اله هذا الدهر قد اعمى بصائرهم . واما من الله عقاباً لخطيتهم كقولهِ تعالى اعمي قلب هذا الشعب (اشعيا ص ٦) . فالاعمى من ذاته هو اولاً الشهواني الذي يعمي عقلهُ بشهواتهِ ويبقى متمتعاً بها فلا يهوى ان

يسمع من يكلمه عن احكام الله العادلة والموت الرهيب والعذابات الخالدة وما شاكلها من الحقايق الابدية . وكانهُ يقول لله ابعد عني لاني لا اريد ان اعرف طرقك (ايوب ص ١١) . لان المعرفة تشق عليه وتزعجهُ وتضاد اميالهُ . ثانيًا المتكبر الذي يكره العلم ولا يطيق ان يعرف الحق لانهُ يذلّه ويوبخه على نقائصه ولا يحتمل من ينبههُ عليها ويعتبر اخلاص النصائح اهانة ويتخذها سببًا للغيظ والحقد . ثالثًا الذين لا يريدون ان يستنيروا في بعض ارتيابات لانهم ليسوا بمستعدين ان يتمموا ما يقضي عليهم هذا التنوير من الفروض كمن يرتفع من الفقر الى اوج الغنى بطرائق غير جائزة فاذا بحث عن تصرفه واحدّ النظر الى اعمالهِ يرى انهُ لا يخلو من الخيانة في ادارة مال غيره ولا من الخلل في قضاء واجباته فيتعامى ولا يعود يبادر الى منبر التوبة لئلا يستنير في امره او اذا شاء الاعتراف يطلب معرفًا يداهنه . فاعمى يقود اعمى

والاعمى من الخارج هو الذي يعميهِ ابليس وجنوده اي الناس الاشرار بمعاطاته معهم اذ يبعدون عنهُ النور الحقيقي بمثالهم وكلامهم

والذي يعميهِ الله هو الذي يمسك انعامه عنه قصاصًا وتاديبًا لخطاياه وهذا هو اشد قصاص لان باقي القصاصات التي تلم بنا في هذه الحياة يمكن استخدامها للوفاء عن الاثام مثلاً الفقر فمن يحتملهُ بصبر فيكون له كفّارة عن آثامهِ السالفة الخ . اما هذا العمى الروحي فيشبه عقاب المرذولين في جهنم . لانهُ لا يرضي الله ولا يلين صلابة القلوب . فباقي العقوبات الزمنية تنتهي بالموت مثلاً الفقر المرض الخ . اما هذا العقاب

فلا ينتهي ولا بالموت فكما ان الابرار يتحولون عند موتهم من بهاءٍ الى بهاءٍ ومن نور الى نور من نور الايمان الى نور المجد . هكذا الاشرار الذين يضربهم الله بالعمى يتحولون في موتهم من ظلمة الى ظلمة اي من العمى الزمني الى العمى الابدي ومن ظلام الخطية الى ظلام الجحيم

لما كان الظلام في ارض مصر كان كلٌّ جالسًا في مكانهِ لانهُ لم يعد يرى ان يتعاطى اعمالهُ نظير اعمى اريحا الذي كان جالسًا على قارعة الطريق . هذه حالة كل من هولاء الخطاة العميان فنراه جالسًا في طريق الهلاك عائشًا حسب مبادي العالم وجلوسه دليل طمأنينة في ذنوبهِ فلا نقاقة عقارب ضميره ولا مصائب هذه الحياة ولا المرارة الممزوجة بها افراح هذا العالم . وكونه على الطريق ومعرض لاختلاف الفصول والازمنة ولاهانة العابرين وهو عاجز عن الدفاع عن نفسهِ دليل على ان الاعمى الروحي معرض لجميع التجارب ولقساوة اعدائه والازدراء بهِ نظير اعداء شمشون اذ بخسوا عينيه واستهانوا بهِ وكانوا يديرونه حجر الرحي مكان البهيمة . ولسوءِ الحظ بلغنا الى زمن كثرت فيه العميان الذين يبصرون ولا يبصرون . يبصرون الخيرات الزمنية ولا يبصرون الخيرات الابدية كالباشق الذي له حدة النظر مثل النسر غير انهُ لا يحدق عينيهِ نحو الشمس نظير النسر بل يطرق نظره في الارض ليرى جيفة منتنة ليقتات منها

فترى ذاك المترأس لا يبصر المتوجب عليه لمرءوسيهِ ويبصر ما لهُ عليهم لاخر فلسٍ فانهُ اعمى . وذاك الطبيب الذي لا يميز مرضًا من

مرض ولا يصف ادوية تفيد بل تضر فهو اعمى فكم اعطى الكينا في نوبة الحمّى فقتل عليله وتمَّ فيهِ قول القائل

كم عليل بعلاجٍ قتلوا ثم قالوا ان ذا حكم القدر

وذاك الأب الذي كأنّه بدون بنين فيترك اولاده جياعًا عراة يسأَلون خبزًا يقدم لهم حجر العثرة يسالونهُ سمكة يعطيهم افعى القساوة والنفور ويسالونهُ بيضة يقدم لهم عقرب العبوسة يطلبون الكسوة يكسوهم لعناتٍ وشتائم أَما هو اعمى. ذاك الذي يجدُّ في ان يغتني بالحرام ويغش في بيعهِ وشرائه فهو اعمى. ذاك السكير اعمى اللاعب بالقمار اعمى. تلك المرأَة المحبة الزينات الباطلة عمياء. تلك الرقاصة عمياء الخ. وترى جميعهم جالسين على قارعة طريق الهلاك فقرآء نظير اعمى اريحا الذي اضطر الى التماس صدقة المارين. فالاعمى بالروح فقير جدًّا لانقطاع النعم الالهية عنهُ وعوض الاسعاف يجلب ازدراء الله وتركه وبغضه

غير انهُ يوجد فرق بين اعمى واعمى فالاعمى بالجسد يعرف عماه ويرغب شفاءه واما الاعمى بالروح فلا يعرف انه اعمى ولا يطلب الادوية وان أُعطيت لهُ فلا تنجع. اضرب العصا وأَحِل الماء دمًا املأ مصر ضفادع وظلامًا وجرادًا وبثورًا وقروحًا وبردًا ونارًا وجلّب عليهم الوباء اقتل ابكارهم فلا يصغي فرعون لان الدواء اصبح بلا منفعة وهكذا خذ الخاطي الاعمى القاسي القلب وانزل بهِ الى جهنم واره نارها ودودها وعذابها فلا يرى لانهُ اعمى واسمعهُ صراخ الهالكين وتجاديفهم فلا يحس

لانه فقد مخافة الله واصبح الدواء بلا منفعة . اصعده الى الصليب وأَره
آلام مخلصه وموته فلا يرى لانهُ اعمى والدواء اصبح بلا منفعة ارفعهُ الى
السماء واكشف لهُ عن وجه الله البهي وجمال ذاك الفردوس وسعادة
القديسين والراحة الدايمة فلا ينبهر لانهُ اعمى واصبح الدواء بلا
منفعة . خذهُ الى الكنائس وأَرهِ دموع التائبين . الى المقابر وأَرهِ عظام
اجداده الخ فلا يرى لانهُ اعمى . مرَّ به على الخمارة فيرى تلألوء الاقداح .
خذه الى موائد القمرجية فيرى لميع الليرات الخ . ذاك الاعمى لما سمع بان
يسوع الناصري مقبل طفق يصرخ يا ابن داود ارحمني فزجره كثيرون
ليسكت فازداد صراخًا . فاصرخ ايها الخاطي الى يسوع بالصلوة الحارة
وقل يا ابن داود ارحمني ولا تصغَ لصوت الاشرار لا تصغَ لذاك الذي
يحرّك الى حيث القت رحلها ام قشعم

فوقف يسوع وامر ان يدعوه فدعوا الاعمى قائلين ثق وانهض
فانهُ يدعوك فها ان يسوع من علو سمائهِ يامرنا ان ندعوك ايها الخاطي
ثق برحمة الله الذي يقبل التائب ويسرُّ برجوعه كما قبل الابن الشاطر
ثق وانهض فانه يدعوك بالهاماته يدعوك بتوبيخ ضميرك بمثال التائبين
الذين تراهم يذرفون الدموع . بموت بعض محبيك . بكسرات التجار
وانحطاط المقامات . . . .

فاك طرح ثوبهُ ونهض نحو يسوع فقم انت واطرح ثوبك الوسخ
الرث المنتن قم من ذاك البيت قم من تلك الخمارة قم من مجالس المستهزئين .
قم يا شمشون من حضن دليلا فقد استعدت على العجز . قم يا سيسرا من

خيمة ياعيل فانها قد هيأَت المطرقة والوتد لتشج راسك . قم يايونان
قد استعد الحوت لابتلاعك . قم ان الدودة قرضت العاشقة قم ياحمنون
كفاك تمارض فان سيف ابيشالوم مستل فوق عنقك . قم يا اليفانا
وافق من سكرك فان يهوديت هيأَت الخنجر . قم يا هامان المتكبر
الاعمى وانظر الخشبة المعدة لتتعلق عليها وتسقط عن مرتبتك فان
جزاء المتكبرين سقوطهم . قومي ياهيروديا من بيت هيرودس الدنس
فان الله قد جعل جنود المياه ان تتسلح بسيوف الجليد لتقطع راسكِ
قومي يا ايزبال المحتالة رجّعي لنابوتا كرمه الذي سلبتهِ بالمكر فلايفيدكِ
تكحيل عينيكِ ولايغني عنكِ تزيين راسكِ واشرافكِ من شباك قصركِ
لتخدعي ياهو فقد استعدت جنوده ليطرحوكِ الى اسفل وتلحس الكلاب
دمكِ . ارجعي من هذا الشباك يا شبيهة ايزبال فقد استعد جنود الله
ليطرحوكِ الى اسفل الجحيم فتلحس الكلاب الجهنمية دمكِ وتاكل لحمانكِ
وسوف تسمعين ما قيل عن ايزبال افتقدوا هذه الملعونة وادفنوها لانها
بنت ملك . قومي يا دينا وارجعي لخباكِ قبل ان تصلي الى شخيم فان
ذاك الشقي مستعد لافتراسكِ لا ترغبي التنزه خارج نظر والديكِ
قومي ياحمامة وديعة فان الباشق الجهنمي يمزقكِ بمخاليبهِ . اخرجي من
الهيكل ياعثليا ياقاتلة جميع نسل داود الملك فانكِ سوف تقتلين
ولايحميكِ هيكل الرب . وانتِ يامن قتلتِ النفوس بقبح سيرتك قومي
وارجعي الى الله بالتوبة . قومي ياشبيهة الامرأة الكنعانية واصرخي الى
يسوع قائلة يا ابن داود ارحمني لان ابنتي فيها شيطان التمرد والعصاوة

قاسية الراس كثيرة الجولان فيها روح خبيث ردي

فيسوع سأل ذاك الاعمى قائلاً ماذا تريد ان اصنع لك . قال الاعمى يا سيدي ان ابصر . هكذا يسأل يسوع يا ايها الخاطي ماذا تريد ان اصنع لك . فقل لهُ يا سيدي ان ابصر شناعة خطاياي وكثرتها . ان ابصر زوال الدنيا وبطلانها . ان ابصر تلك العذابات المعدة لي في جهنم . ان ابصرك على الصليب مجرحًا حبًا بي . ان ابصر تلك السعادة وما فيها من الافراح . والطريق التي تبلغني اليها فافتح اللهمّ بصائرنا فنتبعك حيث تمضي كما تبعك اعمى اريحا . نتبعك بحمل الصليب واحتمال ما يأتينا من يدك الابوية . نتبعك الى السعادة حيث الفرح الدائم والنور الابدي بشفاعة والدتك ام النور وجميع قديسيك امين

العظة الحادية عشرة

« لاحد الاعمى ايضاً »

العميان يبصرون (متى ص ١١)

ان من جملة العميان الذين شفاهم الرب يسوع كان رجل اعمى ومجنون واخرس فهذا قد شفاه من جنونهِ وعماه وخرسهِ . فالاعجوبة فيهِ مثلثة اي اخراج الشيطان منهُ واطلاق لسانهِ ورجوع بصره . فهذا الاعمى المثلث البلايا يشخص لنا حالة الخاطي الذي استحوذ عليهِ العمى

الروحي فامسى كالمجنون الذي يمزّق ثوبهُ ويلطخهُ بالوحول ولا يخجل من ظهوره عريانًا بمرأى من الجميع . هكذا الخاطي يمزّق ثوب البرارة ويدنسهُ بحمأة الرذايل ولا يخجل من اظهار نفسهِ عريانًا قدام الله وملائكتهِ القديسين . وكما ان المجنون يقتات باخبث المواكيل واكرهها هكذا الخاطي يقوت نفسهُ بما قبح من المآثم والذنوب . وهو اشد شبهًا بالمجنون الذي لا يأوى بيتًا وان قيدوه بالسلاسل فيقطعها ويسكن بين المقابر اي ان الخاطي يبتعد عن بيت الله ويقطع سلاسل المحبة بينهُ وبين الخالق ويسكن بين مقابر الشهوات . كل مرة طلبوا ذلك المجنون كانوا يجدونهُ في مقابر الاموات . اطلب هذا الخاطي في بيت الله فلا تجده فتّش جيدًا تراه في الخمارات حيث السكر واللعب المحرّم الخ . فهو اعمى لا يبصر طريق الكنيسة واخرس لا يقدر ان يصرخ باحد ليأخذ بيده ويقدمهُ الى يسوع ليخرج منهُ الروح الردي الذي اعماه ليبصر وينطلق لسانهُ . فنتكلم الان موضحين اسباب العمى والعلاج المفيد لزوالهِ فنقول

ان العمى الجسدي يصدر اولاً من الرياح الشديدة البرد المسببة انصباب مواد مؤذية بالعين . هكذا العمى الروحي في النفس فانهُ يصدر من رياح الكبرياء التي هي ينبوع كل الخطايا ومن رسخت فيهِ فاض ارجاسًا كقول ابن سيراخ (ص ١٠) لاننا نرى ان ريح الكبرياء هبّت في الفردوس السماوي واعمت عقول ثلث الملئكة فما عادوا نظروا ما انعم الله عليهم وما يجب لهُ من التعبد والاحترام . ريح الكبرياء زعزعت قواعد السماء وانزلت الاعزاء عن الكراسي لما قال زعيمهم لوسيفوروس

ارفع كرسيّ واكون شبيهًا بالعليّ . ريح الكبرياء ثارت في الفردوس الارضي فاعمت بصيرة من كان فيهِ فلم يعد يبصر تلك الوصية المحررة على صفحات قلبه باحرف لاتمحي فاكل ليكون شبيهًا بالله . الكبرياء اعمت بصائر الذين بنوا برج بابل اذ قالوا تعالوا نبني لنا مدينة وبرجًا يبلغ راسهُ الى السماء . وبشدة هبوب ريح الكبرياء سقط ذاك البرج البابلي وتشتت شمل من بناه . ريح الكبرياء اعمت عقل فرعون وجلبت عليه تلك الضربات الهائلة وهيجت عليه تيارات البحر لتبتلعهُ وما كان يبصر تلك الاهوال المخيفة التي جلبها عليه صلفهُ وقولهُ من هو الرب . هذه التي اعمت عقل هامان المتكبر حتى استحل سفك دماء امة عظيمة كان اختارها الرب خاصته واعمت بصيرة جليات الجبار الذي كان يعيّر صفوف اسرائيل فساقهُ عماه الى الموت صريعًا لمقلاع فتى صغير راعي مواشي . فكل من ذكر اعمتهم ريح الكبرياء وربطت السنتهم عن تسبيح الله والاقرار بذنوبهم وصاروا كالمجانين يفضلون السكن بين اقذار الذنوب على اخدار النعمة . ثانيًا يصدر العمى الجسدي من سقوط غبار او بعض مواد موذية في العين فيعدمها النظر هكذا العمي الروحي فانه يصدر من غبار محبة الارضيات ورسوخها في القلب فيعمي الروح . بهذا العمى ابتلي جحزي تلميذ اليشاع النبي حينما ترك معلمهُ وتبع نعمان السرياني واخذ منهُ الفضة والثياب واخفاها فمات بعماه وترك هذا العمي ارثًا لكل ذريته من بعده (ملوك ٢ ص ٥) . وبهذا العمى ابتلي حنانيا وزوجته سافيرا (براكسيس ٥) لمّا اخفيا من

ثمن الحقل فسقطا ميتين بعماها . وبهذا العمى ابتلى عاخان حينما اخذ الثياب والمال من نهب ايريحا واخفاها ضد امر الرب فرجم من الشعب بامر يشوع بن نون وهلك بعماه . وبهذا العمي ابتلى يهوذا المثلث الشقاوة وباع معلمهُ الالهي بثلاثين فضة وخنق نفسهُ ومات هالكًا بعماه . فممَّا ذكر يبان كيف ان غبار محبة المال يعمي العقل ويسوقهُ الى مثل هذه الآثام الفظيعة فانهُ يجر صاحبه الى القساوة حتى لا يعود يعرف ابًا ولا امًا ولا ولدًا ولا يجود بشيء الَّا بعد موتهِ وينسى نفسهُ ويفضل ماله على صحتهِ يعوزه كل شيء وهو مغمور بالخيرات ويدهوره عماه من قمة الصدق الى قاع الكذب والغش في بيعهِ وشرائهِ واخذه واعطائهِ . لا تجد في مخزن نفسهِ رائحة الصدق ولا اثرًا لشرف النفس بل كل الشرائع يخالفها ليزيد كنزه الذي وضع فيهِ قلبهُ . فكل الشهوات تضعف بمرور السنين اما شهوة المال فتكون في الشيخوخة اقوى منها في الشبيبة كلما تقدم نحو الموت زاد حرصه على المال فتنشب فيه المنية اظفارها ويموت بعماه . وشاهده ان يشوع بن نون قال للشمس قفي فوقفت لكنه لم يقدر ان يوقف عاخان لئلا يسرق من ايريحا ولا ريب في ان شهوة المال تعمي الانسان حتى لا يرى ما تراه البهيمة وشاهده بلعام فانهُ لم يرَ الملاك وقد رأَتهُ الاتان (الاعداد ص٢٢ عد ٢٢)

يصدر ثالثًا من تحديق البصر بالشعاع الشديد الضياء الذي يخدر العين ويضعف بصرها هكذا العمى الروحي يصدر من الحسد

الناتج من تحديق النظر في سعادة الغير ومجدهم العالمي . بهذا العمى ابتلي قاين وقتل اخاهُ وهلك بعماه . وبهِ ابتلي لولاد يعقوب وباعوا اخاهم يوسف . وبهِ ابتلي شاول الملك وعمد على قتل داود لانهُ احتسب كرامة داود خرقًا لكرامته وهلك بعماه . هو هو عمى الكتبة والفريسيين الذين هاجوا على المسيح وقتلوا عنصر الحياة وهلكوا بعماهم هذا هو داء عيسو الذي كان قد عمد على قتل يعقوب اخيهِ ومات بعماه .

رابعًا العمى الجسدي يصدر من شدة الحرارة التي تضعف البصر كما يظهر في البلدان الحارة وفي عملة الحديد والخزف وما اشبه لقربهم من النار هكذا يصدر العمى الروحي من حرارة نار الشهوة الدنسة المتوقدة في قلوب الخطاة لان هذه النار تعمي عقل الانسان فلا يعود ينظر الله ولا نفسه ولا الناس بل يتحول بصره الى تتميم شهواتهِ وبهذا قال المرتل سقطت عليهم النار فلم يعاينوا الشمس (مزمور ٥٧) . اي سقطت عليهم نار شهواتهم الردية فلم يعاينوا شمس النعمة الالهية لان اول مفعولات الخطية الدنسة هو عمى العقل . قال ارسطو ان الغضوبين يصغون للعقل ولا يقتدون به اما الزناة فلا يصغون ولا يقتدون فهم عميان لا يبصرون وصم لا يسمعون . هكذا كان الناس ايام نوح كانت علائم الانتقام بادية لدى عيونهم ونوح ينذرهم ويشتغل بالفلك وهم لم يسمعوا الانذار ولم ينظروا علامات الهلاك الى ان ادركهم الطوفان وماتوا بعماهم وذاك داء سكان سادوم واكثر الامكنة في ايامنا . ابرهيم اخرج من سادوم لا تنذر اهلها الدنسين فهم عميان لا يبصرون وصم لا يسمعون

بل دع النار تهطل عليهم ويموتون بعماهم . يا فنحاس الغيور قم من وسط الجماعة وخذ رمحًا بيدك واطعن زمرى الدنس والمديانية العاهر الاعميين وارفعهما على رمحك كفارة عن خطايا بني اسرائيل

خامسًا العمى الجسدي يصدر من الابخرة الردية المتصاعدة من المعدة الى العين هكذا العمى الروحي يصدر من ابخرة الغضب المستريح في حضن الغبي فيعمى العقل فلايعود يحكم بالحق بل يحب الاميال المنحرفة فكيف يمكن للمرآة المكدرة ان ترى الاشياء كما هي او كيف يرى نور القمر في الماء العكر وكما ان الضباب يحجب نور الشمس هكذا ضباب الشهوات يحجب نور العقل ويعميه عن الحق : فأنر اللهمَّ بنور نعمتك بصائر الخطاة ليروا طريق الخلاص ويسلكوا به آمنين من مرّ العقاب لانك ارحم الراحمين آمين

العظة الثانية عشرة

« لعيد القديس يوحنا مارون »

قال الحكيم في سفر الامثال ذكر الصديق بركة (ص ١٠)

لقد طالما راينا ونرى اهل العصر عاكفين على علوم مختلفة وفنون متنوعة واختراعات عجيبة . منهم عاكف على تاريخ العالم ووقائعه وما خرب منهُ وما دثر وما تجدد فيهِ وتعمر . والمشاهير فيهِ وما عملوا مما

يستحق الذكر كالاسكندر وغزواته . وتاليماك وافتتاحاته . ونابليون وانتصاراته وغيرهم كثيرين . ومنهم يعلل عن نواميس البخار وسير السفن في البحار والسلك البرقي الذي قرب العالم بعضه الى بعض . ومنهم يهتم بواسطة بها يتمكن الانسان من مشابهة الطيور جائلاً في الجو . ومنهم مفكر بآلة تحفظ الصوت بالفاظه ونغماته ذاتها . ومنهم من يحرك سواكن الاقلام لتسطير ما الفه او ترجمهُ ليبقي له الذكر المخلد . فكم من الكتبة الماهرين والعلماء البارعين الذين يستغرقون اوقاتهم بتزيين بنات افكارهم في جرايدهم آملين ان تخطبها السنة القراء وتجعل لها في صروح الذاكرة مقرا . وكم نرى من ولاة الامور يقظين على اجراء الحقوق ولهم عيون لا تنام عن مراقبة المذنبين واذان لا تمل من استماع شكوى المظلومين . وايدٍ لا تكل عن معاقبة المجرمين ومن تاب عن جرمه وكفر عن اثمه بدفع ما فرض على مثله من الجزاء سومح عمّا فعل ومن لا فلا . ذلك كله لازم لحياة الجسد وواجب لراحته في الدنيا وانما الالزم والاوجب هو علم تاريخ عالم النفس الناطقة المبدعة من الله على صورته والمفتداة بدمهِ والمساسة بعنايته التي سنّ لها شرايع وفرض عليها نواميس تلتزم بحفظها واقام حراسًا يسهرون عليها ويدبرونها وأمرها بالطاعة لاقوالهم والاقتداء بمثالهم . ولما كان القديس يوحنا مارون هو احد المشاهير الذي نبغ بايمانهِ وفضائلهِ وعلومه ومواعظه وقداسته قد عينت لهُ الكنيسة المقدسة تذكارًا لاعماله المبرورة لان ذكر الصديق بركة . وعليهِ قد تعين علينا ان نتكلم عن شرف هذا القديس واخص فضائله

ووجوب الاقتداء به

خبرنا الكتاب المقدس في سفر التكوين (ص ٢١) ان الله امر ابرهيم قائلاً اخرج من ارضك ومن قبيلتك وبيت ابيك وتعالَ الى الارض التي اريك واجعلك لشعبٍ كبير واباركك وابارك مباركيك والعن لاعنيك فاطاع ابرهيم امر الله فباركه الرب واكمل معه جميع مواعيده. هكذا دعا الله القديس يوحنا مارون منذ صغر سنه والهمهُ ان يترك العالم ويتجند لخدمته ليتمجد به كقول اشعيا النبي (ص ٤٩) ان الرب دعاني من البطن وذكر اسمي من احشاء امي. وجعل في كسيف ماضٍ. وقال لي انت عبدي فاني بك اتمجد. فاطاع امر الله والرب باركه واكمل معهُ جميع مواعيده وجعلهُ ابًا لشعب كبير ينتمي اليه وينضوي تحت لوائهِ

فمنشأُ هذا القديس من قرية سروم التي موقعها في جبل السويدية بين مدينة انطاكية ودير مارمارون الذي لبس فيه الاسكيم الرهباني. وهو اول بطريرك اقيم على طائفته. ومن الواضح من الكتب المقدسة ان الله اقام في كل جيل من فيه الكفاية لسياسة شعبهِ المختار. اقام نوحًا في عهد الطوفان ينذر الناس باعمال الخالق ويبين شدة عقابه للمخالفين فمن سمع له نجا من الغرق ومن عصاه ضُرب بعصا الانتقام ولما كان شعب الله في عبودية فرعون اختار له موسى قايدًا انقذه من رق العبودية وسار امامهُ في البحر ولم يخف سطوة الملك القاسي وبعده يشوع الذي ادخل بني اسرائيل ارض الميعاد واسقط اسوار

ايريحا السبعة وانتصر على الامم . ونرى في العهد الجديد ان سيدنا يسوع المسيح اقام رعاة للمؤمنين الرسل والمبشرين وفوض اليهم سلطان الرياسة بسلسلة غير منقطعة الى ان اتى الجيل السابع بعد صعود الرب الى السماء فاقام لنا هذا القديس المعظم راعيًا صالحًا وقائدًا امينًا نسير بانوار تعاليمهِ الخلاصية هذا الذي مذ بزغت انوار شمسهِ في المشرق كان يهذ في الفضيلة وصلاح الاعمال ليلاً ونهارًا الى ان ارتقى قمم الفضائل واختاره الرب نوحًا ثانيًا لنجاة قومه من طوفان الهرطقات التي كانت قد امتدت في اكثر الشرق وطالما كان يعظ من على المنابر لتثبيت شعبه في الايمان حتى كانت تلين لمواعظه جلامد الصخور . والف كتبًا كثيرة واخصها كتاب الايمان الصحيح الذي ملأه من قويّ البرهان وسديد الحجة حيث جاء سفينة تنجو بها النفوس من مياه الضلال والغوايات الطامية في عصره . ولكي ينجي نفوس قومه من اسر فرعون الجهنمي اقامه الرب موسى ثانيًا وبعصا لسانهِ كان يصنع المعجزات واذ حدث وباء قتال في عصره كان يشفي المنويين بهِ بقوة صلواته كما كان يخدمهم بذاته . فموسى الاول جلب الوباء وقتل الاحياء في مصر (اي الابكار) واما موسى الثاني فكان يحيي الموتى والمقتولين بالخطية لقد طالما جدَّ وكدَّ ليلاً ونهارًا في الانذار والتعليم والتاليف واعمال المحبة نحو القريب ومساعدة الفقراء البائسين فكانهُ احد الكاروبيم نزل من السماء ليطهر الارض بجمرته النارية من اشواك البدع والارطقات . وكان يسعى كالجبار طائفًا في المدن والقرى جائلاً بين الكنائس يشدد عزائم

المومنين. هذا الذي سبق يوحنا الانجيلي ورسم مثالهُ في سفر الجليان (ص١)
بقولهِ رايت في وسط المنائر السبع شبه ابن الانسان متسربلاً بثوب
الى الرجلين ومتمنطقاً عند ثدييه بمنطقة من ذهب وراسهُ وشعره
ابيضان كالصوف الابيض كالثلج وعيناه كلهيب نار ورجلاه كانهما
من نحاس خالص قد أُحمي في اتون وصوته كصوت مياه غزيرة وفي
يده اليمنى سبعة كواكب ومن فيهِ يخرج سيف صارم ذو حدين
ووجههُ يضيُّ كالشمس عند اشتدادها. بهذه الكمالات كان متصفاً
القديس يوحنا مارون فانهُ كان اولاً مترديًا بثوب البر وقداسة السيرة
ونقاوة النفس والامانة بالسلوك في الطريق الضيق طريق الكمال
الانجيلي. ثانيًا كان متمنطقاً بزنار العفاف والطهارة الملائكية التي
تلألات بهِ كاللؤلؤة الكريمة ولم يكدر صفاءها منذ نشاتهِ الى منتهى حياتهِ
هذه التي كانت تجعل كلامهُ آخذاً بمجامع القلوب. ثالثًا كانت افكاره
واشواقه نقية بيضاء متجهة جميعها لمجد الله الاكبر وخير القريب الروحي
والزمني. رابعًا كان مضطرمًا بنار الغيرة على حفظ ناموس الرب وكان
يقول مع النبي غيرة بيتك اكلتني. خامسًا كان ثابتًا بسلوكه في طريق الكمال
كأَن رجليهِ من نحاس خالص قد أُحمي في اتون لا يبالي بالاعتبار
العالمي ولا تضعف غيرته وتثنيه عن عزمه الصالح نار قبين الاتعاب
والمحن. سادسًا كان صوتهُ كصوت مياه غزيرة موردًا مضامين ومعاني
ذات حكمة سامية وممطرًا كريمة سماوية مطرًا وافرًا يسقي بهِ اراضي
القلوب اليابسة ويصيرها مخصبة بالافعال الصالحة. سابعًا كان يخرج من

فيهِ سيف صارم وهو تعليم كلام الله الذي بهِ كان يحارب اعداءهُ ويستاصل الرذايل ويميتها وينفذ القلوب سيف ذو حدين وهما الامر والنهي فكان يامر شعبهُ بحفظ الوصايا والنواميس وينهى عن مخالفتها بشديد العقاب الروحي. ثامنًا كان في يده اليمنى سبعة كواكب اي ان هذا القديس كان ملازمًا توزيع الاسرار السبعة على المؤمنين في سماء البيعة المقدسة وكان وجههُ يضيء كالشمس وذلك بجلال قداستهِ وحكمتهِ. هذا الذي يصدق بهِ ما قاله الروح القدس بلسان ابن سيراخ (ص ٥٠) عن سمعان ابن اونيا الكاهن الاعظم انهُ هو الذي اهتم بشعبه لئلا يهلك وكان في تصرفه بين الشعب نظير كوكب الصبح بين الغمام وكالبدر عند التمام ومثل الشمس المشرقة على هيكل العلي وكزهر الورد ايام الربيع وكالزنبق على مجاري المياه وشبه نبات لبنان اوان الصيف واذ كان ياخذ حلة مجده ويلبس كمال زينتهِ ويصعد الى المذبح المقدس كان يزيد لباس القدس بهاءً ·

ناشدتكم الله يامعشر المسيحيين واخصكم بالذكر يا بني مارون بان تصغوا لقول الرب القايل لكم بلسانِ اشعيا النبي (ص ٥١) انظروا الى الصخر الذي نحتم منهُ والى البئر التي نقرتم منها. واحيوا ايمان اجدادكم وابائكم باعمال مبرورة. وافعال مشكورة. وتذكروا انكم من اباء واجداد ثابتي الايمان كصخرة لم تزعزعها رعود الاضطهادات ولم تحركها عواصف المخاوف. انتم بنو اباء وجدود قد بذلوا اعزَّ ما لديهم حبًا بايمانهم القويم. انتم بنو اباء لم يبالوا بتعبٍ ولا نصب ولم يبقوا على مالٍ

ولا على حياة . اباءٓ قد جادوا بدم اعناقهم ولم يشحّوا باجسادهم بل قدموها ضحيةً لله . انتم بنو من اتخذوا الدين القويم سنداً لهم فقاوموا بومضطهديه انتم بنو ابرهيم ابيكم وسارة التي ولدتكم يقول الرب (اشعيا ص ٥١) انتم بنو مارون ابيكم وسارة الكنيسة الرومانية امكم . كونوا فخراً لابيكم وشرفاً لامكم بحميد الافعال ونقاءٓ الاعمال . انتم بنو من تمم الله وعده له بقوله دعوتهُ وهو واحد وباركتهُ وكثرته (فيه) . نعم لقد افاض الله عليه سحائب بركاته وكثَّر بنيه وبفائض بركاته الغزيرة ثبتوا متمسكين بعرى الايمان الصحيح ولهذا استحقوا الثناءٓ من الاحبار الرومانيين فمنهم من مثلهم بالسبعة الالاف الذين لم يسجدوا لباعال . ومنهم من شبههم بالورد بين الاشواك الى غير ذلك من الاثنية الدالة على ثباتهم بالايمان الوطيد الراكز على الصخرة البطرسية . انتم بنو من يليق به ما قالهُ الرب بلسان اشعيا النبي (ص ٥٩ عد ٢١) روحي الذي عليك وكلامي الذي جعلتهُ في فمك لا يزول من فمك ولا من فم نسلك ولا من فم نسل نسلك من الان والى الابد . اناشدكم باحشاء الرب ان تحافظوا على روح الله الذي فيكم روح الحب الاخوي والاتفاق المسيحي روح سلفائكم الذين به كانوا نفساً واحدة وقلباً واحداً . وتجنبوا روح البغضة والانقسام الذي ينذر بالدثار . لان كل مملكة تنقسم على ذاتها تخرب وكل مدينة او بيت ينقسم على نفسهِ لا يثبت (متى ص ١٢ عد ٢٥) . فمن يريني بكم روح تلك الطاعة المقدسة المتصفين بها منذ القديم الطاعة للروساء والمتسلطين المتوجبة لهم علينا جميعاً وعليكم ان تأدّوا لكل حقه . الجزية

لمن له الجزية . والمهابة لمن له المهابة . والكرامة لمن لهُ الكرامة (رومية ص ١٣ عد ٧) وابذلوا ما في وسعكم ليكون كلام الله في افواهكم دائمًا لتسبحوه هنا على الارض . وفي الاخرة تسبحونه في السماء بشفاعة ابينا القديس يوحنا مارون وصلوات مريم البتول وجميع القديسين امين

العظة الثالثة عشرة

« للشهداء الاربعين »

من يصبر الى المنتهى يخلص (متى ص ٢٤)

انه واضح بالايمان والعقل ان الصبر على خطوب هذه الدنيا و بلاياها هو الواسطة الكبرى الى الخلاص والبلوغ الى السعادة الابدية لان الله اذ دعانا الى اتباعه لم يدعُنا الى الراحة بل الى التعب بقولهِ من اراد ان يتبعني فليكفر بنفسهِ ويحمل صليبه الخ . ولا يستطيع الانسان ان يخلص بطريق مفروش بالزهور فيما ان مخلصهُ سلك طريقًا مملوَّة من الاشواك . هذه الطريق العمومية التي سلكها الرسل والقديسون والشهداء جميعًا لانه مقرر ان الدنيا ليست بمكان الراحة بل انها مكان الشقاء ووادي البكاء . جوبوا العالم باسره فتروا ان النوائب قد عمَّت الجميع ولا يوجد انسان فيه خلا من مضطهدين ومنكدين فلا ترون ايوب الاَّ اقبل اليه المخبرون بحاول النوائب عليه من كل جانب فاولاده

العشرة ماتوا تحت الردم. مواشيه جميعها امست غنيمة الناهبين جسمهُ ابتلى بالقروح .. ولا ترون هابيل بدون قاين ولا اسحق بدون اسماعيل ولا يعقوب بدون عيسو ولا حنةّ بدون فنةّ ولا داود من غير شمعي . ولا مردخاي من غير هامان ولا ايليا بدون ايزابال ولا الشهداء الاربعين بدون ليسياس قائدهم الظالم . وانما الصابر هو الظافر بالخلاص الابدي لان من يصبر الى المنتهى يخلص وعليه نبني الخطاب موضحين ان الشدائد هي التي تقرب الانسان الى الله ومن يتحملها بجميل الصبر يفوز بالخلاص ومن قلّ صبره خسر اجره وهلك

من يصبر الى المنتهى يخلص . ان كلاًّ من الشهداء الاربعين هو اعدل شاهد لصدق هذه الآية لان صبرهم الوطيد لم تقدر ان تزعزعه مياه بحيرة سبسطية الباردة والغزيرة . هولاء الذين شهدت لصبرهم وبسالتهم كل قطرة من مياه تلك البحيرة التي طرحوا فيها عراة . ولم ترقص هاتيك المياه بالمد والجزر الا طربًا لاستقبالهم . ولم تجمد بعد قليل الاَّ تعجبًا واندهالاً من احتمالهم . هولاء الذين شهدت لصبرهم عواصف الارياح والبرد القارس الذي تحملوه بجميل الصبر . هولاء الذين شهدت لهم تلك العصيّ التي كسرت سوقهم والارض التي انصبغت بدمائهم . هولاء الذين شهدت لهم المركبات التي حملت جثثهم الى المحل المعد لحريقهم . هولاء الذين شهدت لهم ألسنة تلك النار التي احالت اجسادهم الى رماد . هولاء الابطال الذين اجابوا قائدهم بكل شجاعة حينما كان يعدهم ويتوعدهم ليكفروا قائلين من يفصلنا عن محبة المسيح

الذي بذل نفسهُ دوننا . أَضيق ٌ كلاَّ فاننا نسرُّ بالضيق وان ضيق هذا الزمان اليسير يعدُّ لنا مجدًا ابديًا · ام حبسٌ كلاَّ لانه وان احاطنا القتال من خارج وغشينا الخوف من داخل فنحن الغالبون بواسطة من احبنا والنار المتوقدة لا تطفيها قطرات زهيدة من الماء · ام جوعٌ كلاَّ لان المسيح غذاؤنا · ام عري كلاَّ لاننا نرى المسيح عريانًا على الصليب. ام سيفٌ كلاَّ فاننا جنود المسيح الباسلون وكثيرًا ما حاربنا جماهير الاعداء وغلبناهم ولقد ودَّت اعناقنا السيوف لتنحل من الجسد ونسير الى المسيح · اسأَلوا قائدهم ليسياس الذي كان يلطف لهم المقال ويعدهم بجزيل المال والارتقاء الى اسمى المراتب فيجيبكم عما قالوه اننا لسنا نفرح بهذه الاشياء التي ترى·· وانهُ لا موت ولا حيوة ولا علو ولا عمق ولا خليقة اخرى تقدر ان تفرقنا من محبة المسيح · هولاء الذين تراكضوا نحو البحيرة المجلدة وخلعوا ثيابهم بفرح وزجلوا ذواتهم فيها بارادتهم قائلين ربنا باسمك دخلنا الميدان اربعين رجلاً فليعلُ اكاليل المجد هام الاربعين ولا ينقص شيء من ذلك العدد الذي شرفته بصومك الاربعيني . اننا من اجلك نموت كل يوم وقد حسبنا كالغنم للذبح . هولاء الذين جاهدوا جهادًا حسنًا وتمموا سعيهم وحفظوا ايمانهم واحتملوا المكاره والمصاعب والنكال والعذاب وسعوا في مضمار السيرة الصالحة الى ان بلغوا الغرض فاستحقوا ان تحفظ لهم الاكاليل التي لا تعطى الا للمجاهد بحسب السنة لان الله اراد بارادة ازلية ان يعطينا السعادة بمنزلة اكليل ولا يكلل الا المنتصر على البلايا بسلاح الصبر الطويل الاكليل الذي تناولهُ

النساك من مناسكهم والحبساء من صوامعهم والشهداء الاربعون من بحيرتهم المجلدة

قال السيد لهُ المجد ان ملكوت السماء يغصب والغاصبون يختطفونهُ اي الذين يغتصبون ذواتهم ويقمعون اجسادهم بالصبر على الصوم والسهر واعمال التوبة الشاقة والاضطهادات . لان الطبع البشري اشبه شيء بالماء الذي اذا تركتهُ يجري على هواه فانهُ ينحدر الى اسفل او يحتقن في محقن فينتن فيه ويفسد او يتبدد في الارض ويداس من الحيوانات . فاذا اردنا ان يعلو الى العلو فينبغي لنا ان نحصره في انبوبة رغماً عن طبعهِ وحينئذٍ يثب بعزم قوي نحو العلاء كما نشاهد ذلك في النوفرات . فعلى هذا المثال يصنع الله معنا على انهُ اذا كانت الاشياء تأتينا بحسب مرامنا فلا نعمل شيئاً سوى اننا ندب في الارض ونتهاون بعمل الخير ونتن في الشر فلا تعلو عواطفنا نحو السماء الَّا حينما تضغطنا التجارب وتحصرنا الضيقات . كما ان العود لا يبعث رائحة ذكية ما لم يلقَ في النار هكذا الانسان لا تفوح رائحة الفضيلة منهُ ويرجع الى الله ما لم يلقَ بنار التجربة

قال فم الذهب فلنفرض ان شاباً شريفاً خطب ابنة ذات ثروة وافرة وخصال حميدة واحضرها الى داره ليتكلل عليها ودعا الى العرس آلهُ واقاربه واصدقاءه وشرعوا جميعاً يمرحون فرحين بالمنتزهات المالوفة ايام الاعراس سيَّما عند الاعيان . قال فلندخل نحن لزيارة هذه الدار السعيدة ليت شعري ما الذي نبصره فيها فاننا نسمع ضحكاً غير مرتب

واحاديث باطلة ونرى حركات ذات خلاعة وقوماً قد انكربت بطونهم
من وسق الاكل واخرين ذاغت عيونهم وتصدعت رؤُوسهم واظلمت
عقولهم من السكر ونبصر ايضاً اباطيل في الملبوس ولعباً ودق آلات
واصوات غناء ورقص وعدم نظام ولا تسمعون صوتاً ولا تنظرون
حركة تدل على الحشمة والرزانة الاَّ ما ندر ولكن اذا طرأ حادث على
العروس وماتت على حين غفلة فكيف تتغير الاحوال. ارجعوا لزيارة
الدار ثانية فانكم عند اقترابكم منها فلا تسمعون شيئاً من تلك الضجة التي
كانت قبلاً واذا دخلتم الباب يلتقيكم الخدام بملابس الحداد ذات
الحشمة مسدولة الى الارض ويستقبلونكم برؤُوس منكسة ووجوه
مكفهرة ودموع هاطلة واصوات منخفضة وترون الجدران مصبغة
بالسواد خالية من الزينات · والاعواد ساكنة والموسيقة صامتة
والموائد منقلبة والاقداح مكسرة والاصوات بحَّاء· ولا ترى احداً يبدي
التبسم ولا ينطق الا بالفاظ رصينة تحرك الى الورع والزهد بالعالم وليس
الرجال الطاعنون بالسن فقط لكن النساء والخدام ايضاً نراهم اضحوا
بغتة حكماء وفلاسفة يتفوهون فيما بينهم باقوال راهنة تذهل السامعين
فمنهم من يقول ان حياة الانسان ليست الا حلماً ولعب صبيان واخرون
يتعجبون قايلين كيف تتعلق قلوب الناس بجمال فارغ لا يترك وراءه
سوى النتانة وقوم يقولون انهُ ينبغي لنا ان نستعد كل حين لانه لدى
مفاجاته لا يعتبر شرف النسل ولا فخر الغنى ولا زهر الشبيبة . من اين صدر
هذا التغيير في تلك الدار من هو المعلم الذي ارشدهم لاقتناء هذه الخصال

المرتبة فما هو الا الشدة التي بمقالة واحدة لا غير تلتها بلسان الموت ان حياة الانسان زايلة كالهباء قد استطاعت ان تزيح عن تلك الدار كل الرعانة وتضمحل الاباطيل وتعلم علوماً مقدسة . فالابن الشاطر لولا الشدة ما رجع الى بيت ابيه . ورسل المسيح لما كانوا في السفينة حال الهدو تلهوا بالمسامرة بعضهم مع بعض وتركوا معلمهم وحده حتى نعس ونام ولكن في حال الشدة والاضطراب اسرعوا اليه وصرخوا قائلين نجنا يا رب

في الشدة تتقاطر الناس لزيارة الكنائس العجائبية وان كانت بعيدة . وفي حال الشدة تتوزع الصدقات الوافرة وفي حال الشدة تتلى الصلوات الحارة بخشوع غير اعتيادي ولكن ليس الشدائد وحدها تخلص الانسان بل الصبر عليها . والدليل على ذلك اللصان اللذان صلبا مع المسيح فاحدهما لما صبر على شدته واعترف بذنبه خلص . والثاني لانه لم يصبر عليها بل جدف هلك . والشهداء الذين احتملوا شدة العذاب في بحيرة سبسطية فازوا بالخلاص واحدهم الذي قلّ صبره وخرج من الماء ودخل الحمام مات هالكاً

قال الحكيم الرجل الصبور افضل من القوي ومن يملك نفسه اقوى ممّن يفتتح المدن لان المدن هي خارجة وما يوخذ بالصبر هو داخل لان الانسان بالصبر يملك نفسهُ ويقهر ميله ويتسلط على ذاتهِ ويسوسها بسلامة ويميلها الى حيث شاء فيكون الصبر للنفس بمنزلة لجام يكبح اميالها الغير المرتبة ومن خلا منه تهوّر . فالسعادة متوقفة على ان نخضع لمشيئة الله

كقول الرسول انما ينبغي لكم الصبر لتعملوا بمشية الله وتستحقوا الوعد فالله يريدنا ان نحتمل ويدعونا الى اتباع يسوع مصلوبًا كقولهِ من اراد ان يتبعني الخ فمن احتمل حبًا بالله فقد فعل كثيرًا لاجل الله ومن لا يصبر فلا يكون فعل شيئًا من الفضائل. اننا نرى كثيرين يثابرون التقدم الى الاسرار ويظهرون في صلواتهم رغبة عظيمة ويقصدون مقاصد حسنة ولكن ادنى مصيبة تلم بهم واقل كلمة تجعلهم ان يتقدوا غيظًا ويخرجوا عن دائرة التعقل · ان الشدة تميز ابناء الله لان الله يؤدب من يحبهُ ايُّ ابن لا يؤدبهُ ابوه. لقد اصاب القديس امبروسيوس بخروجه من دار رجل غني كان حجر عثرة ولم تصبهُ قط مصيبة فصاح القديس قائلاً فلنخرج من هنا لان هذا البيت يخرب ويباد. فحالما خرج منه سقط البيت ومات صاحبهُ تحت الردم. والشدائد هي الطريق المبلغ الى الملكوت اذ بشدائد كثيرة ينبغي لنا الدخول الى ملكوت الله (ابراكسيس ص ١٤) فمن لا يقع في شدة ولا يتعذب في هذه الدنيا فيكون قد ابقاه الله للانتقام كعجل مسمن نظير ذاك الذي كان يلبس الارجوان متنعماً. ان المائل الى السكر لو علم ان في الخمر سمًا يقتلهُ لامتنع عن الشرب وشكر احسان من ايقظهُ على ذلك. فيجب الصبر على ما يصيبنا من البلايا لعل بالرخاء والنجاح ضررًا للنفوس فاذا صبرنا على المصائب والاحزان فتاول الى الافراح كما قال الرب لانصاره انتم تحزنون والعالم يفرح ولكن حزنكم يتحول الى فرح (يوحنا ص ١٦) فتنهد الصابرين يحولهُ الله الى تراتيل سماوية ودموعهم الى لآلٍ وجواهر كريمة وعريهم الى حلل فاخرة وفقرهم

الى غنى وذلهم الى عزّ وخضوعهم الى مجد وشرف . فمن يصدق انهُ من خرق وسخة رثة تصيرا وراق بيضاء وقراطيس رفيعة نظيفة جدًّا فهذا انما يصنعهُ العقل البشري والمهارة الانسانية في معمل الورق الذي تدق فيه هذه المادة اولاً ثم تُقصر وتهرا فهكذا يصنع الله من جسدنا البالي اذ يجلب علينا الضيق في هذه الدنيا لنقوم فيما بعد مرتفعين الى السماء ونحن اوفر اشراقًا من الشمس واخف من النسور واسنى من القمر . وكما انه كلما زادت مادة الورق عصرًا زاد صفاؤه هكذا كلما كان الانسان موعوكًا بالشدائد كان مجده مشرقًا في السماء . ان بني اسرائيل لم يدخلوا ارض الميعاد التي تجري لبنًا وعسلاً الا بعد مقاساتهم مشقات مصر بالتعب الشديد من جمع التبن وعمل اللبن . هكذا نحن يلزمنا ان نصبر على شقاء هذه الدنيا وعنائها لنستطيع الدخول الى ارض الميعاد السماوية

فيجب ان نصبر على الامراض اولاً لان الله يريد ذلك ونحن كل يوم نقول لهُ لتكن مشيئتك . فلنجرِ القول بالعمل ونحتمل المرض حبًا باتمام ارادتهِ على انهُ ايمن لنا ان نكون مرضى حسب مشيئتهِ ولا نكون اصحاء ضدها . ثانيًا لان المرض مفيد للذين يخدمون المريض اذ بخدمتهم لهُ يربحون اجورًا تبلغهم الى السماء . ثالثًا مفيد لمحو قصاصات الخطايا ومحوها على سرير المرض اسهل منه في النار المطهرية . الطوبى للرجل الذي يصبر على البلوى فانه اذا امتحن ياخذ تاج الحياة (يعقوب ص ١) . رابعًا مفيد لصون النفس من الخطية كقول الحكيم السقم الشديد يجعل النفس عفيفة (ابن سيراخ ص ٣١)

فيجب ان نصبر على فقد النظر مثل طوبيا وعلى التهمات الباطلة مثل يوسف الحسن وسوسنة العفيفة ومارينا . وعلى فقد البنين والآل والمال نظير ايوب القائل الرب اعطى والرب اخذ . وعلى رشق سهام الشتائم اقتداء بداود الذي شتمهُ شمعي وهو هارب من وجه ابيشالوم وكان يرشقهُ بالحجارة قائلاً اخرج اخرج ياسافك الدماء . ولما اراد عبيد داود صد شمعي قال لهم دعوه يشتمني لعل الرب ينظر الى ضيقتي ويجازيني خيرًا ... لما بني هيكل اورشليم قد تهندمت حجارته خارج المدينة حتى انه لم يسمع صوت مطرقة في الهيكل حين كان يبنى . هكذا يريد الله ان المنتخبين لبنيان اورشليم السماوية يتهندمون في هذه الدنيا بمطارق الشدائد والضيقات . قال الملاك ليوحنا (في الرؤيا ص ٧) عن جماعة القديسين هولاء هم الآتون من ضيقة عظيمة . وقال الحكيم في سفر الامثال انزع الصداء عن الفضة فتصير اناء نقيًا . فعلينا ان نقتدي بمثال الصابرين ولاسيما الشهداء الذين تحتفل الكنيسة المقدسة عيدهم هذا النهار ونلتمس شفاعتهم المقبولة قدام الله لنفوز بالخلاص وننال الاكليل الموعود به للصابرين كقوله من يصبر الى المنتهى يخلص

العظة الرابعة عشرة

« للشهداء الاربعين ايضاً »

جاهد في جهاد الايمان الصالح وأدرِك الحياة الابدية (طيموتاوس ص٦)

قال القديس يوحنا فم الذهب في خطبته على الشهداء ان جميع القديسين والابرار في كل عصرٍ وجيل جاهدوا وادركوا في جهادهم اكليل النصرة وجزاء الفضيلة . فمن ابتداء العالم قُتل هابيل البري ونُقل احنوخ الذي ارضى الله . ونجا نوح البار . وامتحن ابرهيم الامين . وفُضل موسى الوديع . ويشوع العفيف . وداود الحليم . والياس الغيور . ودانيال الفاضل . والفتية الثلاثة . فكل هولاء فازوا وانتصروا ومثلهم الرسل الانصار وائمَّة المومنين . والمعترفون المدرَّبون الذين حاربوا ببسالة وشجاعة . والشهداء الكاملون الذين تقوّوا وتغلّبوا . وفي كلهم ترى الفضائل متشابهة لكن معامع الحرب غير متشابهة . وكلهم فازوا بغلبات مجيدة فاخرة . فان كنت ايها المسيحي تظن انك تغلب من غير جهاد وتفوز بالنصرة بغير قتال فما انت جنديًا ليسوع المسيح ولا تدرك الحياة الابدية ولا تنال الاكليل المعد للمجاهدين نظير الشهداء الاربعين الذين تحتفل الكنيسة المقدسة تذكارهم في هذا اليوم . هولاء الذين جاهدوا عن الايمان وقاسوا الوان العذابات بفرح جزيل وصبر جميل

وشهدوا ليسوع المسيح بصدق ديانتهِ الحقيقية .وختموا شهادتهم الصادقة بدمهم . وضحوا حبًا به حياتهم الزمنية ليدركوا الحياة الابدية

ان هولاء الشهداء كانوا من مدينة سبسطية من جنود الملك ليكانوس مضطهد المسيحيين في الجيل الرابع وقد اعترفوا بايمان المسيح جهارًا فاخذ الوالي يخاطبهم تارةً بالوعد وتارةً بالوعيد ليستميلهم الى عبادة الاوثان فلم يقدر ان يزعزع ايمانهم الراسخ على الصخرة بل كان كلامه كمن يرقم على الماء او كمن يضرب في حديد بارد . فأمر ان يلقوا في سجن مظلم فقضوا ليلهم مرتلين من مزامير داود قائلين الساكن في عون العالي في ستر اله السماء يسكن فيقول للرب انت ناصري . حينئذٍ ترآى لهم يسوع وقال لهم انكم قد ابتدأتم جيدًا فاثبتوا لان الاكليل لا يعطى الا لمن يثبت الى الانتهاء . لاتخافوا ممن يقتل الجسد . لان من آمن بي وان مات فانهُ سيحيا فتقوا وتقووا . فامتلأت قلوبهم فرحًا فانظروا كيف ان الله لا يهمل مختاريهِ ولا يتركهم وحدهم في شدائدهم بل يسمح بتعذيبهم لافراط حبه لهم . ويعزيهم لئلا يضعف ايمانهم . ولذا قال الرسول ان اوجاع المسيح تتفاضل فينا كذلك ايضًا يكثر بالمسيح عزاؤنا (قرنتية ٢ ص ١) وقد افتقد الله يوسف الصديق ونزل معهُ الى الجب ولم يتركهُ في قيوده . وعزى بني اسرائيل بخبز السماء في البرية : ودانيال في جب الاسود . وسوسنة في تهمتها . وهكذا عزّى هولاء الشهداء الاربعين في السجن . وشجعهم على احتمال الجلد القاسي والبرد القارس في البحيرة التي القوا فيها وجمدت مياهها عليهم وهم عراة اقتداء

بسيدنا يسوع المسيح الذي عرّوه من ثيابهِ وهزأوا به والقوه في بحر الآلام. وكان يشجع بعضهم بعضاً قائلين ان العذاب سريع الزوال اما الاجر فهو دائم وليلتنا هذه سيعقبها نهار سعيد. ثم قالوا ربنا باسمك دخلنا الميدان اربعين رجلاً فلتعلُ اكاليل المجد هام الاربعين كلهم: ولا ينقص شيءٌ من ذلك العدد الذي شرفتهُ بصومك مدة اربعين يوماً

وحين انتصف الليل تلألأ على البحيرة نور عظيم ساطع وهبط ملائكة من السماء وبيدهم تسعة وثلاثون اكليلاً وكان احد الحراس ينظر الاعجوبة فتحيروا وقال في نفسه لماذا لم تاتِ الملائكة الا بتسعة وثلاثين اكليلاً اذ قد نزل في البحيرة اربعون. وفيما هو يردد هذا الفكر في عقله صرخ واحد من الشهداء مغلوباً من شدة البرد وطلب من الحارس ان ينقلهُ الى الحمام وكان ذلك دليلاً على جحوده الايمان فتقدم الحارس واخرجه من البحيرة وادخلهُ الحمام فمات حالاً وانحدرت نفسه الى بحيرة النار والكبريت. فيا ليعه احتمل قليلاً برد الماء في سبسطية لينجو من بحيرة النار الابدية. ولكن الله سبحانهُ لم يدع صلاة الشهداء تذهب بلا طائل لكون الحارس استنار حينئذٍ بنور الايمان وايقظ بقية الحراس وقال لهم انا نصراني على دين المسيح. ثم خلع ثيابه ونزل في البحيرة طالباً من الشهداء ان يتضرعوا لاجلهِ لكي يموت تلميذاً للمسيح. وحالاً تقدم اليه ملاك الرب ووضع على راسه اكليلاً.

فلتكن مباركة احكام الله الغير المدركة الذي يسمح بسقوط من

هو قائم . ويقيم من كان ساقطاً ويستبدل المسيحي بالوثني كما جعل متياس بدلاً من يهودا . فمن ذا الذي لا يعمل عمل خلاصه بخوف ورعدة متكلاً على جود الله ورحمته وقدرته . فتمسك بما عندك من الفضائل ايها المسيحي واحذر من ان ياخذ احد اكليلك . كن اميناً حتى الموت لتنال اكليل الحياة . كن صبوراً على الشدائد لئلا تخسر اجرك بعدم صبرك .

ثم حضر الوالي صباحاً الى البحيرة فوجد الشهداء بعدُ احياء فامر بكسر سوقهم ووضعهم في مركبات ليحرقوهم في مكان معيَّن . واستبقى اصغرهم حيًّا لعلهُ يطيع امر الملك . فلما رأت ذلك والدته المتورعة الشجاعة حملته على منكبيها وسارت وراء المركبة قائلة لابنها يا ما اسعد حظك وحظي يا ابني العزيز ان ثبتَّ على الايمان ومتَّ من اجل المسيح . فلتبكينَّ النساء على موت بنيهنَّ . واما انا فلست ابكي بل افرح لانك تسبقني الى السماء حيث تضرع من اجل خلاص نفسي . وفيما هي تخاطبهُ هكذا مات بين يديها فشكرت الله والقتهُ على المركبة ليحرق مع بقية الشهداء ولم تفارقهُ حتى رأت جسده اضحى رماداً . فلتتعلم النساء تربية الاولاد من هذه الام الصالحة . وليقتدِ الاولاد بهذا الولد المطيع حتى الموت . ولنؤدِ جميعاً الشهادة ليسوع المسيح القائل كونوا لي شهوداً (اعمال الرسل ص ١) كما فعل هولاء الشهداء الابطال لان الشهادة للديانة فرض محتوم به على كل مسيحي . نعم ان شهادة الدم لا تعمُّ كل الازمنة . والملوك الذين كانوا اعداء الكنيسة منذ

نشأتها قد اضحوا من اعظم المحامين عنها· غير انه توجد شهادة بالايمان كما وجدت شهادة الدم · وهي شهادة الاحتمال والخضوع والرغبة الشهادة التي تكرّم الديانة وتمجد الله وتبرّر المومن وتجعلهُ شهيد الحياة الآجلة بتضحيتهِ الحياة العاجلة

ان الشهادة ليسوع المسيح لاتقوم بالاقرار الخارجي لتعليمهِ الالهي فقط اذ ليس كل من يقول يارب يحصى مع عدد تلاميذه وتكون افعالهُ مضادة لاقراره بل تقوم بروح الصليب والاماتة التي تشهد لنا باننا تلاميذ المسيح وتبعة تعاليمهِ ومشتركون بمواعيده · الشهادة التي تحملنا على الكفر بالذات ومقاومة اميالنا المنحرفة ورغباتنا غير المباحة وتوبة القلب التي بدونها لا خلاص · والصفح عن الاهانات ومحبة الاعداء والتكلم خيرًا عمن يقول علينا شرًا · وكبح حركات الغضب وثوراته والانفعالات النفسانية وحركة المخيلة والمجد الباطل والاقلاع عن الافراط بحب الذات واللذات ومخاطر المتاجرات واسباب الخطية وتمليقات الكسل · وتحاذر عن اميال القلب لئلا ينخدع للصداقة الاثيمة ويتشوه بالبغضاء ويتسمم بالتمليقات وينقاد بالحياء الى مرضاة الناس ويتعامى عن واجباتهِ حبًا بمنافعهِ · ويتدنس بالحسد والكسل · ونستنتج من كل ما يضادنا ينبوعًا للفضائل وسببًا للاحتمال · هذا هو الاستشهاد الذي تطلبهُ الديانة من كل مومن وعليهِ مترتب الجزاء في الملكوت السماوي · فعذابات الشهداء وتقشفات النساك هي مشورات لا الزامات وليس لجميع الناس ان يُعطَوا هذه الهبة وينالوا هذا الشرف

واما الحياة المضحّاة باماتة الشهوات وقمع الحواس وانسحاق القلب فهي دعوة كل موءمن واول الزام للايمان وروح الحياة المسيحية . وهكذا كل مسيحي هو شاهد للسيد المسيح بالاغتصاب المتصل وبه نشهد له بانهُ رب قلبنا والحاكم على اعمالنا . فلنفحص ذواتنا هل الديانة تثقل علينا وهل يسوع هو لنا عريس آلام . وهل سيرتنا مغايرة لسيرة الغير المومنين . هل نحن اكثر صبرًا منهم واطهر منهم . واكثر حبًا للقريب منهم واكثر تقشفًا . واكثر استقامة في المعاطاة . واحتراسًا في المحادثات واقل تعلقًا بالخيرات الزمنية

واما شهادة الخضوع فلا تتوقف فقط على اخضاع العقل لاسرار الديانة الغامضة التي تفوق ادراكنا بل تستدعي منا خضوع القلب لقبول اوامر الله والسلوك بحسب ارادتهِ المقدسة في كل الاحوال . وان نحتمل كل الصلبان التي تلحق بنا والامراض التي تداهمنا . وشتائم اعدائنا . وموت اقربائنا ونكبات الدهر والحوادث التي تخفض كبرياءنا او تخيب آمالنا . وان نعتبر كل المشقات اللاحقة بحالتنا وسائط للخلاص

ان الفقير الذي اوجدته العناية الالهية في حالة الفقر والتعب فلا ينبغي ان يحسد حالة العائشين بالرغد وسعة العيش ويتذمر على الله كانه خلقه للشغل والفقر وينظر ذاته تعيسًا لانه فقير . بل يجب عليه ان يبارك رحمة الرب الذي اوجده بحالة اسهل للخلاص . بحالة اقل خطرًا واقل صعوبة . الحالة التي يدعو المسيح من خلق فيها سعيدًا .

لان الاغنياء عليهم ان يحرموا انفسهم من الملذات التي لم تعطَ للفقير وذلك بروح الايمان ٠ وان يحملوا في قلوبهم الفقر ويعوضوا بالتوبة عن المشاق التي يتحملها الفقير ٠ ويمكنهُ ان ينال نصيبًا من غناهم دون ان يشاركهم في تجاربهم وسقطاتهم ٠ فان الديانة تسلب من الاغنياء ما قد سلبتهُ الطبيعة من الفقراء ٠ وان كانت خيراتهم اعظم من خيرات الفقير فيكون حسابهم ادق واشد ٠ ومن النادر ان يكون الانسان سعيدًا في هذه الدنيا وفي الاخرى ٠ ان الحياة قصيرة . فعلينا ان لا نتعلق بخيرات هذه الحياة الزايلة التي تفسد القلب وتعوقنا عن الخلاص ٠ ولنذكر باننا في اية حالةٍ كنا لا بد لنا من وجود الصلبان والمشقات فالشهادة التي نوديها للايمان هي ان نمجد الله ونشكره على السرَّاء والضرَّاء ولنخف اذا كنا خالين من المصائب . ولا ننسب مصائبنا الى الناس مثلاً الى خبث اعدائنا او عدم استقامة روسائنا او عدم صدق محبينا او بغض حسادنا . بل ننسب كل ما يحدث لنا ليد العناية الالهية ولا يسقط شعرة من روسنا دون امره ٠ ولهُ بذلك مقاصد يستخدمها لتقديسنا فاية وسيلة للمومن مثل هذا الفكر وهو ان كل شيءٍ ياتي من الله لخير الانسان ٠ هذا الفكر يرفع المومن ويضعهُ فوق كل الحوادث ولو لم يكن للديانة غير هذا الفضل في وسط النوائب لكان كافيًا ان نتأسف على الخاطي الذي يسلم ذاته لنفسه ويعيش بلا ديانة ولا ضمير ولا صبر فيخسر الحياة الابدية ويكون حظه مع ذاك الجبان الذي خسر الاكليل فعلينا ان نقتدي بصبر الشهداء الذين جاهدوا حسنًا ونطلب شفاعتهم

لنحظى باكاليل المجد السعيد برفقتهم فلنعطَ ذلك بشفاعة الشهداء الاربعين وسيدة العالمين وجميع القديسين آمين

العظة الخامسة عشرة

« لمار يوسف »

من ترى الوكيل الامين الحكيم الذي يقيمهُ الرب على بني بيته ليعطيهم الغذاء في حينهِ طوبى لذلك العبد الذي يأتي سيده فيجده يعمل هكذا في الحقيقة اقول لكم انهُ يقيمه على جميع ما هو لهُ (لوقا ص ١٢) لقد ذكرت التواريخ ان تولوماوس احد ملوك الاسكندرية لما دنت ساعة وفاتهِ اقام وصيًّا على ابنه ومملكتهِ ديوان رومية فالديوان المذكور اعتمد على رجل حكيم يدعى مرقوس لابيدوس ووجههُ الى الاسكندرية للغاية المذكورة فمرقوس هذا قام بحق الوصاية وكان ملاحظًا ابن الملك واملاكه والمدينة كل الملاحظة . ولذلك اعتبر من الجميع واحبوه كل المحبة واظهارًا لحبهم لهُ ومكافاةً لصدق امانته وصيانتهِ كانوا يكتبون على كل قطعة من قطع معاملاتهم المسكوكة من الجهة الواحدة مرقوس لابيدوس مربي ابن الملك ومن الجهة الثانية يرسمون صورة امرأة واضعة يدها على قلعة فكانوا يعنون بالامرأة الاسكندرية وبالقلعة مرقوس المذكور اي ان الاسكندرية مستندة

على مرقوس

هكذا الملك السماوي اقام لابنهِ يسوع المسيح ومريم وكيلاً القديس يوسف الامين الحكيم الذي قام بحقوق الوكالة التي هي الامانة والعناية والصيانة كل القيام فاظهاراً لتكريمهِ ومكافاةً لقيامه بواجبات وكالتهِ قد رسمت الكنيسة المقدسة ان يرقم على كل قطعة من قطع معاملاتها الروحية من الجهة الواحدة يوسف مربي ابن الملك ومن الجهة الثانية صورة امرأة اي مريم واضعة يدها على قلعة برج داود اي يوسف ابن داود . وقد رسمت ايضاً ان يعيد له في مثل هذا اليوم من المومنين الذين اقامتهُ محامياً عنهم وشفيعاً بهم . وعليه اقتضى ان نوضح شرف هذا القديس واخص فضائلهِ والحث على الاقتداء بهِ . والمجد الذي نالهُ . مستشفعين به وبخطيبتهِ مريم اذ نحييها بالسلام . . .

ان جميع الذين اراد الله تعالى اظهار شرفهم وسمو مقامهم شاء ان يسبق رمزهم في العهد القديم كما سبق الرمز عن سيدنا يسوع المسيح بموسى النبي ذاك الذي انقذ بني اسرائيل من اسر فرعون . وبيشوع ابن نون الذي ادخل الشعب العبراني ارض الميعاد واسقط اسوار ايريحا وبداود قاتل جليات الجبار وكما سبق الرمز عن سيدتنا مريم العذراء بسفينة نوح واستير ويهوديت وتابوت العهد . هكذا لما اراد تكريم القديس يوسف سبق الرمز عنه بيوسف بن يعقوب اب الاسباط . فيوسف بن يعقوب رأى الشمس والقمر واثني عشر كوكباً يسجدون له . وقد سجد ليوسف خطيب مريم يسوع شمس العدل ومريم بدر الجمال والملائكة كواكب السماء . ذاك نزل الى مصر بمكيدة مبغضيه وهذا نزل الى مصر هرباً من

مكيدة هيرودوس اشرّ المبغضين . ذاك حفظ امانة سيده وهذا حفظ امانة سيده مع مريم عروسة الروح القدس . ذاك خزن القوت لحيوة الاجساد وهذا خزن حياة النفوس . ذاك كان نديم الملك ومكرمًا عنده وهذا كان نديم ملك الملوك . ذاك كان سمير الوزراء . وهذا كان سمير الملائكة وزراء الله اذ ناجوه مرات عديدة بقولهم اولاً لا تخف يايوسف من أن تاخذ مريم خطيبتك ثانيًا قم خذ الصبي وامهُ واهرب الى مصر ثالثًا قم فخذ الصبي وامهُ واذهب الى ارض اسرائيل فقد مات طالبو نفس الصبي . (متى ص ٢)

لا بل ان هذا القديس لم يكن سمير الملائكة فقط بل كان شبيهًا بالملائكة . كما ان الملك كان يهدي بني اسرائيل بسيرهم عند خروجهم من مصر هكذا القديس يوسف أهدى يسوع ومريم في دخولهما وخروجهما من مصر وكما ان الملاك كان حافظًا الفردوس الارضي هكذا يوسف كان حافظًا مريم الفردوس الحي . ففي الفردوس كانت شجرة الحياة وفي مريم وجدت شجرة الحيوة يسوع المسيح . ذاك الفردوس كان مسكن آدم الاول ومريم مسكن ادم الثاني . ذاك حوى كل الاشجار المثمرة ومريم حوت كل اثمار الفضائل . من ذاك الفردوس كانت تخرج اربعة انهر تسقي اقطار المسكونة ومن مريم تتدفق ينابيع النعم . فالقديس يوسف هو الحارس الامين لهذا الفردوس والهيكل الالهي مقر الروح القدس وهو رافائيل الملك الذى حرس طوبيا ونجاه من الحوت اي انه

نجّى يسوع من شر هيرودوس

ويتضح ايضاً شرف هذا القديس وسمو مقامهِ بادلة عقلية ايضاً وهي اولاً يجب ان تكون مناسبة بين الرجل والمرأة بالاصل والفضل فوجدت مناسبة بين يوسف ومريم بالاصل لانها من اصل ملوكي هكذا وجب ان تكون المناسبة بالفضل والحال ان مريم كانت كاملة بالفضائل هكذا كان يوسف كاملاً بالفضائل كاملاً بالايمان والرجا والمحبة كاملاً بالعفاف كاملاً بالصبر . . .

دليل ثانٍ ان الشيء يزداد كمالاً بقدر قربه من مصدره مثلاً الماء يزداد صفاء بقدر قربهِ من ينبوعه والنور ضياء بقدر قربه من الشمس والحرارة اشتداداً بقدر قربها من النار هكذا يوسف زاد كمالاً لقربه من ينبوع الكمال .

دليل ثالث ان من ملك شجرة ملك ثمرتها ويوسف مالك مريم بسنة الزواج فاذاً هو مالك ثمرتها يسوع الغني ومالك الغني غنيٌّ

دليل رابع ان من نظر الى قديس مرة واحدة او قرأ سيرته لابدَّ من ان ياخذ شيئاً من كمالاتهِ فكم يكون كمال القديس يوسف الذي عاشر رب القديسين وسلطانهم خمسة وعشرين سنة

خامساً من المقام الذي انتخبهُ الله اليه . قال فيلون الفيلسوف ان من يسوس الناس ينبغي ان يكون اكثر من انسان فكيف يجب ان يكون من يسوس الله . قال القديس توما ان الله يهب النعم على حسب المقامات والمراتب . اذا كان يوحنا المعمدان شهد لهُ انه لم يقم في مواليد النساء اعظم منه وذلك لانه رفع يده فوق راس المسيح مرة واحدة فكم

يكون شرف القديس يوسف الذي حمل المسيح مرات . قد افتخر ذاك الخادم الذي حمل الماء المستحيل خمرًا لان الاعجوبة ظهرت في محموله فكم بحق من الافتخار لهذا القديس الذي ظهرت العجائب لا في محموله بل من محمولهِ

قال الحكيم الرجل الامين كثير البركات . اذا كان الرب بارك بيت عوبيد ادوم الجيتاني لانه ادخل تابوت العهد الى بيتهِ وكان حافظًا لهُ ومكرمًا اياه مدة ثلاثة اشهر فقط فكم يكون قد اقتبل من البركات بيت هذا القديس الذي حفظ مدة تسعة وعشرين سنة مريم التي كان ذاك التابوت رمزًا لها . ذاك التابوت لم يكن فيه الا جرّة المن ولوحا الوصايا وعصا هارون وفي هذا كان المن الحقيقي وفارض الوصايا . .

ان القديسة هيلانة والدة قسطنطين الملك الكبير اقامت ابراجًا في الطريق من القسطنطينية الى اورشليم ووضعت فوق كل برج منارة متقدة لئلا يحيد عن الطريق الذين يرومون البلوغ الى اورشليم هكذا صنع الرب معنا لانه اقام لنا في طريق هذه الحياة القديس يوسف ويسوع ومريم بمنزلة ابراج نهتدي بمنائر فضائلهم الى اورشليم السماوية . فالقديس يوسف منارة للرجال ارباب البيوت ومريم العذراء منارة للنساء ويسوع منارة للاولاد . فيا ايها الرجال تقدموا الى منارتكم القديس يوسف واستنيروا . تعلموا منهُ الاهتمام والنشاط بتقديم واجبات عيالكم مع انه كان من ذرية ملوكية لم يستصغر على نفسهِ ان يشتغل بالنجارة

ولم يصرف زمانًا بطالاً نظير بعض اهل عصرنا الذين يصرفون اوقاتهم باللعب المحرَّم ويبددون اموالهم بالسكر وامور يقبح التصريح بها تاركين عيالهم جياعًا . هلموا اليه وتعلموا منهُ حسن الظن لانه رأى خطيبتهُ حبلى بدون ان يعرفها ومع ذلك لم يسمعها كلمة تغيظها ولم يسرع الى التصديق بثلم عفافها بل تمهل متأنيًا ليفحص عن الامر ويسترشد الله فيما ينبغي ان يفعلهُ ولذلك ارسل الله اليه ملاكًا عزاه قائلاً لهُ يا يوسف لا تخف من ان تاخذ الخ ·

ماذا نقول عن الذين يسيئون الظن في نسائهم ويوسعونهنَّ شتماً ولعنًا وضربًا لسبب خفيف او بدون سبب ويحكمون عليهنَّ بالشر من دون دليل ومن غير تأنٍ · ان الله في القديم اوصى الكاهن ان لا يميز الابرص الاَّ بعد سبعة ايام مع ان برصهُ يكون ظاهرًا · تعلموا من مار يوسف السهر والملاحظة لاولادكم · تذكروا كم جدَّ وسهر طالبًا يسوع لمَّا تخلف في الهيكل وكم سأَل من الاقرباء والاصدقاء عنه · هل تلاحظ ولدك وتسهر على سيرتهِ لتعلم اين يمضي · اذا طلبتهُ ترى تجده في الهيكل يصلي · اهًا ربما يكون ابنك في الخمارة يسكر هناك ويلعب في القمار وانت لا تسأل عنه · ابنك يعاشر الاشرار ويتردد الى امكنة هي باب لجهنم ولا تسأَل عنه

ويا ايتها النساء اذهبنَ الى منارتكنَّ مريم العذراء وتعلمنَ الطاعة والخضوع لازواجكنَّ وتذكرنَ قول الرسول القائل اخضعنَ لرجالكنَّ كالخضوع لربنا ولتكن المرأة تهاب بعلها تعلمنَ منها الحشمة

في الملابس والادب في الحديث واصغين الى نصائح ارسطاطاليس القائل فلتكن الامرأة اولاً ميتة الهوى ليتأتّى لها الخضوع لزوجها وليكن عندها رجلها بمنزلة القلب والعين واللسان تسرُّ بسروره وتحزن لحزنه لا عن تظاهر ورياء بل بالخلوص كأنها من جسده ولتكن معهُ بروح واحد . ثانيًا لتكن متشاغلة ابدًا الا تملّ من العمل ولتكن جواريها وبناتها مثلها في الاشتغال وهذا يجديها نفعًا كبيرًا في امور بيتها ويسدُّ عنها ابواب الفحشاء التي تتسنى الى البطّالات . ثالثًا لا تسمح لاحد ان يلج بيتها دون رضى بعلها ولا تطلع احدًا على ما في بيتها مما لا يريد زوجها اظهاره . رابعًا ولتهذب اولادها وتبالغ في تثقيفهم ولا تدعهم يبايتونها بعيدًا عن مرآها ولا تذرهم ينطقون بالمجون والكلام السفيه والغناء غير اللائق وهي لا تنطق بذلك قدامهم . خامسًا لا يحسن منها ان تتداخل في امور اجنبية . سادسًا لا تخاصم جوارها واهل بيتها ولا تكن شتامة ولا معاندة بعلها ولا محبة للخمر ولا مبدرقة ولا متفاوتة في التحلّي والتزين فان ذلك يروق الغير ويسوء زوجها

ايها الولد تعلم من منارتك يسوع الطاعة لوالديك . .

طوبى لذلك العبد الذي يأتي سيده فيجده يعمل هكذا كما عمل القديس يوسف متممًا واجبات وكالته ففي الحقيقة ان الله يقيمه على كل ما هو له مكافاة لاعماله وفضائله وجزاء لامانته

قد كرَّم الملك احشوروش مردخاي اليهودي اكرامًا ملوكيًا اذ البسهُ ثيابًا لبسها الملك واركبهُ فرسًا ركبهُ الملك وتوجه بتاج الملك وامر ان

ينادى في المدينة هذا اكرام من يريد الملك اكرامه وما ذلك الاَّ لانهُ اظهر للملك المكيدة التي كان دبرها عليهِ بغتان وتارش حافظا القصر الملكي كما جاء في سفر استير (ص ٦) . فبالاولى ان يكون الملك السماوي كرم القديس يوسف اعظم كرامة لانهُ نجاه من مكيدة هيرودوس

قال طوبيا لابنهِ ماذا ترى نعطي هذا الرجل القديس الذي ذهب معك فاجابهُ قائلاً يا ابتِ اي اجرة نعطيه واي شيء يكون موازيًا لاحسانهِ اخذني ورجع بي سالمًا والمال هو استوفاه من عند غابيلوس وبه حصلت على زوجتي وهو كفَّ عنها الشيطان وفرح ابويها وخلصني من افتراس الحوت وبه غمرنا بكل خير فماذا عسى ان نعطيهُ مما يكون موازيًا لهذ (طوبيا ص ١٢)

هكذا على سبيل التمثيل لو سأل الاب الازلي ابنه الوحيد قائلاً ما ترى نعطي هذا الرجل القديس الذي ذهب معك لاجابهُ قائلاً اي اجرة نعطيه واي شيء يكون موازيًا لاحسانهِ اخذني الى مصر ورجع بي سالمًا والمال اي الخسارة التي كان خسرها آدم ساعدني على استيفائهِ وبه حصلت على زوجتي النفس وهو كفَّ عنها الشيطان وخلصني من افتراس الحوت هيرودس وبه غمرنا بكل خير اي كان يقدم لنا ما نحتاجه من تعب يمينهِ . وحينما يقول جعت واطعمتموني فيوسف وحده يقول نعم انا اطعمتك الخ . فطوبيا سمح لخفيره بنصف مقتناه واما الله فلم يرضَ ليوسف بالنصف بل اقامهُ على كل ما هولهُ . فملك مصر كان

يقول لكل من يطلب منهُ شيئًا امض الى يوسف . هكذا الملك السماوي يقول لمن يسأله نعمة جسدية او روحية امض الى يوسف . فان طلبت الشفاء من مرضك يقول لك امض الى يوسف او الغنى الروحي والزمني الخ . يقال لك امض الى يوسف

ينبغي لنا ان نذكر هنا ما كتبته القديسة ترازيا في اكرام هذا القديس ونصهُ : اني اتخذت القديس يوسف شفيعًا لي فاعانني وانالني ما لم اكن اتجرأ على طلبه من النعم التي تتعلق بخلاصي حتى اني ما طلبت منه شيئًا منذ استشفعته الى اليوم ولم انلهُ . ولا غروَ اذ يظهر ان الله منح بقية القديسين ان يسعفونا في بعض الاحوال اما هو فمنحهُ قوة على مساعدتنا في كل حال فكأَن سيدنا يسوع يريد ان يعلمنا انه كان خاضعًا لهُ وهو على الارض ويجيبه الى ما يطلب وهو في السماء . فعلينا ان نجتهد في الاقتداء بفضائلهِ والمداومة على طلب شفاعته المجابة لننال ما نالهُ من البركات والحظوى في ذاك النعيم الدائم سروره فلنعطَ ذلك آمين

العظة السادسة عشرة

« لعيد بشارة سيدتنا مريم العذراء »

قال الانجيل المقدس السالك في الظلمة ابصر نوراً عظيماً والجالسون في بقعة الموت وظلالهِ اشرق نور عليهم (متى ص ١٤ عد ١٦)

ها قد عبر اربعون جيلاً ونيف والجنس البشري متقلب في المصيبة التي ورثها من ابويهِ الاولين مضى اربعون جيلاً والرحمة الالهية تنظر الى خراب العالم مفكرة بهندسة جديدة لقيامهِ لان الجنس البشري في تلك الاجيال جميعها كان في حالة الشقاء والمصائب يرشقه الله بسهام سخطه تارةً بالطوفان العام وتارةً بنار وكبريت واحياناً بافتتاح الارض وابتلاع الكثيرين وبالحروب المتواصلة وذلك لانهم هدموا النظام الاول الذي سنّه الرب ولهذا حتمت المراسيم الازلية ان ما قد هدم بواسطة ثلاثة هم ملك الظلمة وحواء وادم يتجدد بواسطة ثلاثة هم ملك النور ومريم ويسوع. ولم يزل الجنس البشري متوقعاً الوقت السعيد الذي فيه يتم هذا التجديد المشوق اليهِ الى ان حضر ملوء الزمان وارسل جبرائيل الملك من عند الله الى مدينة تدعى ناصرة الى عذراء اسمها مريم مخطوبة لرجلٍ اسمه يوسف ومثّل امامها قائلاً السلام عليكِ يا ممتلئة نعمة ..

ماذا نصنع بهذا الرجل (يوحنا ص ١١) ان القديس برنردوس يتصور المحاكمة التي جرت في الديوان الالهي ما بين عدل الله ورحمته على ادم الرجل الاول قائلين ماذا نصنع بهذا الرجل قال العدل ان ادم يستوجب الهلاك لمخالفة وصية الرب . قالت الرحمة يليق ان يغفر لهُ لانهُ مخلوق للسماء . قال العدل والملك كان مخلوقاً للسماء ولما خالف هلك قالت يوجد فرق بين ادم والملاك فهذا روح نوراني قويٌّ وادم من تراب ضعيف الملاك كان في السماء وادم على الارض . قال نعم انهُ ضعيف وعلى الارض ولكن لهُ وسائط تقويهِ وهي النعمة الفعالة وخضوع الجسد للروح قالت والملاك ايضاً كان له وسائط تقويه وهي سموّ معرفتهِ وقوة ارادتهِ وقربه من الله . قال كان الواجب على آدم ان يخاف من قصاص الملاك ولا يخالف نظيره قالت ما كان للملاك شيطان يجربهُ ولا حواء تغويه ولا ثمرة يشتهيها . قال كيف كان يجب قصاصهُ لانهُ لم يعتبر ربه ولا الملكوت ولا خاف من جهنم . والخطية ما هي امر هيّن ولا شرها قليل حتى تعتذري عنه فالمذنب يجازى بذنبهِ ولا محاباة . فالحكم ذاته الذي انصبَّ على الملائكة الطالحين يجب ان يحكم بهِ عليه . قالت لم يشمل كل الملائكة بل بقي منهم القسم الاكبر في السماء يمجد الله واما الحكم بالهلاك على ادم فيشمل كل ذريتهِ . قال فليكن لكل ذريته فيتمجد عدل الله فيهم . قالت عدل الله تمجد في قصاص الملائكة واما انا فاي متى اظهر ممجدة ومع من اعود استعمل شفقتي . في جهنم لا دخل لي وفي السماء لا احتياج الى

الرحمة . قال لا يهمني يقتضي ايصال حقي تماماً . قالت اذا وصل حقك تماماً بدون هلاك ادم الا ترضى . قال ارضى . قالت أيكفي لذلك ان يطرد ادم من الفردوس الى ارض الشقاء والهوان وهناك يبكي ويحتمل الامراض والخوف بحيث ينجو من الهلاك الابدي . قال لا يكفي . قالت أيكفي ان يموت ويرجع الى التراب ويصير طعاماً للحيات بحيث تنجو نفسه من جهنم قال كلاً لا يكفي بل يجب ان يموت بارٌّ عنهُ . فتشوا هل يوجد على الارض بارٌّ . لا يوجد ليس بارٌّ ولا واحد بل جميعهم زاغوا والتطخوا بخطية ادم . وان قيل ان الكتاب المقدس يسمي كثيرين ابراراً مثل نوحٍ ويوسف وموسى ويشوع بن نون وغيرهم فالجواب ان تسميتهم ابراراً محمولة على انهم ابرار من الخطية الفعلية لا من الخطية الاصلية ولهذا نرى نوحاً خلص ذاتهُ وسبعة اشخاص فقط وذلك من الطوفان لا من الهلاك . ويوسف انقذ اهل مصر وجوارها لا غير وذلك من الجوع لا من جهنم . وموسى انقذ الشعب من عبودية فرعون لا من عبودية الشيطان . ويشوع ادخل العبرانيين ارض الميعاد الارضية لا السماوية فاذاً لا يوجد من يوفي عن ادم على الارض فلننظر في السماء من يريد ويقدر ان يوفي العدل . أميخائيل او جبرائيل ام رافئيل سكت جميعهم وما ارادوا الموت عن ادم . ومع ذلك ان موت البشر اجمع وملاشاة الملائكة باسرهم وابادة العالم برمته غير كفوء لايفاء العدل الالهي لان كل ما ذكر هو متناهٍ والدَين غير متناهٍ . فعندها برز الاقنوم الثاني وقام في الوسط قائلاً لابيهِ الازلي هوذا انا يا ابتِ فارسلني لاتخذ

جسداً واحتمل الالام والموت لخلاص ادم وايفاء للعدل وتعظيماً
للرحمة ولان الانسان اخطأ لرغبته ان يتشبه بالله فاريد ان اصير
بحالة اذا تشبه بي يخلص . قال الآب يا ابني يلزمك ان تولد في مغارة
بين الحيوانات فقيرًا قال لا يهمني هئذا فارسلني . يلزم ان تهرب الى
مصر وتكون مضطهدًا مهانًا وتموت عريانًا قال لا يهمني ارسلني ماذا لي
هنا وشعبي قد سبي مجانًا . بشراك افرح يا ادم . يقول من اين يكون
لي الفرح وانا جالس في الظلمة افرح قد حكم بخلاصك وارتضى ابن الله
ان يتجسد من بتول فترجّ وتب . فبقي ادم وذريته ينتظرون تلك المنتخبة
ليتجسد منها ابن الله فقد مرّت سارة ولها عظمة الخلافة ولم تكن هي
المختارة لانها ولدت اسحق الذي هو رسم لمخلص العالم . مرّت راحيل
وهي مهابة ولم تكن المنتخبة لانها ولدت يوسف لا يسوع . اتت بتشباع
ولم تكن المرجوة لانها ولدت سليمان الحكيم لا حكمة الله . مرّت رابورة
بوظيفة فايدة للشعب المقدس ولم تكن المعينة . مرّت ياعيل وبشجاعة
قتلت سيسرا ولم تكن الموعود بها . مرّت يهوديت مخلصة مدينة الرب
بيت فالو وبيدها راس اليفانا علامة للظفر ولم تكن المنتظرة . فاستمر
العالم سالكًا في الظلمة كانهُ في ليل متصل مدة اربعين جيلاً
ينتظر بزوغ شمس الخلاص . بقي ادم تسعماية وثلاثين سنة يبكي
منتظرًا اتمام هذا الوعد فمات ولم يحظَ بهِ . ومثله شيت وانوش ونوح
وغيرهم وكنت تسمع كلاً منهم يسأل ياحارس ما من الليل ياحارس ما
من الليل . متى ياتي اوان التسلية متى يشرق الفجر متى تحضر تلك الساعة

المباركة فالجواب الليل طويل . كان نوح وابرهيم ويعقوب يسألون
يا حارس ما من الليل متى يرتفع هذا الظلام متى يسكن غضب الرب
الذي بعث بطوفان الماء والنار على الارض · الجواب الليل طويل يسأل
موسى ويشوع وغيرهما ما من الليل الجواب باقٍ ليل · متى تنتهي هذه
المصارعة بين يعقوب والملاك ويجري الصلح بين سكان السماء والارض
لا تنتهي حتى يطلع الفجر · ابشر وا قرب الصبح طلعت النجمة ظهرت مريم
نجمة الصبح التي هي وحدها رجاء العالم وانتظار الشعوب ومختارة العلي
الموقوف عليها اجراء عمل الخلاص . ولما بلغت سن ثلاث عشرة سنة
اذ كانت تصلي في بيتها الفقير متنهدة من عمق فوادها ملتمسة من الله ان
يرسل سريعًا الى العالم المخلص المنتظر لانها لتعمقها في نصوص الكتاب
المقدس كانت تعرف ان مجيء المسيح قرب وتعلم ان عذراء تحبل وتلد
ابنًا وكانت تشتهي ان تراها لتخدمها واذا بجبرائيل زعيم الملايكة قد انحدر
من القناطر العلوية الى بيتها · واذ مثل امامها قال لها السلام لكِ يا ممتلئة
نعمة الرب معكِ مباركة انتِ في النساء (لوقا ص ١) فلما سمعت
كلامه اضطربت وخافت . عجبًا مريم خافت من ملاك سماوي وحواء
لم تخف من ملاك جهنمي . مريم لما قال لها جبرائيل انكِ تقبلين حبلاً
وتلدين ابنًا هو ابن الله قالت كيف يكون هذا . وحواء لما قال لها
سطانائيل ان اكلتِ من الثمرة تصيري مثل الله لم تقل كيف يكون هذا ·
وما اكثر الذين يسمعون وساوس الشيطان فلا يخافون ولا يتوقفون
قائلين كيف يكون هذا

ان اجراء المراسيم الالهية بامر الخلاص كان موقوفاً ليس على مجيء
مريم فقط بل على رضاها ايضاً وكان العالم كله منتظراً اذعانها لقول
الملاك الذي كان يخاطبها بقول النشيد افتحي لي يا اختي افتحي قلبكِ
للايمان وشفتيكِ للاعتراف واحشاءكِ للخالق فها هوذا المشتهى من جميع
الامم قائم خارجاً يقرع الباب فقومي واسرعي وافتحي . واذ كان يخاطب
قلبها اذعنت لقوله وفتحت قلبها وفمها قائلة ها انا امة الرب فليكن لي
بحسب قولك ومع جوابها هذا حلّ الاله في احشائها . الكلمة صار جسداً
وحلّ فينا . وابتدأ اضمحلال الظلام الذي كان استولى على العالم
بسبب الخطية . فلم تكن كلمة مريم فليكن اقل من كلمة الاله فليكن نور
فكان لان النور الذي كان قد حجب بظلام الخطية قد اشرق على
السالك في الظلمة والجالسين في بقعة الموت وظلالهِ وتجدد بمريم ما كان
اتلف بحواء وتمت نبوة اشعيا القائل اني اخلق سماوات جديدة وارضاً
جديدة (ص ٦٥) تعالَ يا اشعيا وانظر ان الذي لا تسعهُ السماوات
هو في احشاء مريم السماوات الجديدة . والارض التي كانت قد عقمت
صارت تقطر لبناً وعسلاً . كانت ارض العبودية فصارت ارض الحرية قال
فم الذهب ان ما كان أُسر بادم قد تحرر بالمسيح وذلك قد تم بقول مريم
فليكن وفيه صار الاله ابناً وهي اماً لهُ وبذلك رفع الله مقام مريم ومريم
مجدت الله بتسليمها لهُ فما ارفع هذا المقام الذي لم يصل اليهِ غيرها

قد ذكر عن رجل شريف اسبانياوي اسمهُ فرننــدوس انهُ لما كان
صحبة العسكر في حصار احدى المدن وهجم مع من هجموا على المدينة

فعند وصوله الى بيت كتب على حائطه الى هنا وصل فرنندوس لظنهِ ان لا جراءة لغيره من العسكر ان يصل اليه وانه وحده حاز قصبات السبق فرأى هذه الكتابة احد الجنود رفقائه فشجع ذاتهُ وتقدم اكثر منه وكتب على حائطٍ الى هذا المكان ما وصل فرنندوس . هكذا كثير من الآباء والانبياء والرسل والشهداء حاضروا في طريق الفضائل لكنهم ما وصلوا الاَّ الى درجة اصدقاء الله او جنوده تلاميذه فاذا اراد الرب ان يكلم ابرهيم يقول لهُ يا خليلي او ايوب يا صديقي او موسى يا كليمي او داود يا عبدي او يوحنا يا قاصدي او بطرس يا نائبي اما مريم فيقول لها ياامي . الى هنا لم يصل فرنندوس ولا الملايكة وصلوا لانهم خدام الله وما من احد يقدر ان يقول لله انت ابني وانا اليوم ولدتك الاَّ مريم . قال القديس انسلموس ان الكائنات كلها امَّا اعلى من مريم واما دونها فالله وحده اعلى منها والباقي دونها

ان ابنة فرعون وجدت صندوقًا في المياه فانتشلتهُ واذ فتحتهُ وجدت فيهِ صبيًا يبكي فرقت له (خروج ص ٢) فانظروا بعين الايمان تروا في بحر هذا العالم صندوقًا مختومًا اي مريم العذراء وضمنها صبيٌ جميل يبكي هو يسوع ابن الله المتجسد في حشاها بمثل هذا اليوم . ان هذه الابنة رأت الصندوق عندما كانت ذاهبة لتستحم فاذهبي اذًا ايتها النفس واغتسلي بمياه التوبة فتنفتح عيناكِ وتنظري هذا الصندوق وفيهِ صبي واحترسي عليهِ نظيرها لان بهِ يكون خلاص لاسرائيل من اسر العبودية

قد شبهت مريم بذاك الجبل السامي الذي صعد اليه لوط ونجا من حريق نار سادوم وعاموره ويلزم من يلتجي اليها لينجو من سعير تلك النار المؤبدة الاَّ يلتفت الى الرذائل القديمة التي تركها في اراضي الشيطان وان التفت إمتنع عليه الوصول كما اصاب امرأة لوط تذكروا

هي تابوت العهد فكما ان ذاك التابوت اوقف مياه الاردن الفاصل بين الشعب العبراني وارض الميعاد ولولاه ما عبروا بامان ولا دخلوا ارض الراحة بل كانت جرّتهم المياه الى البحر هكذا مريم التابوت الحي اوقفت مياه عدل الله التي كانت مانعة ايانا عن الدخول الى ارض الميعاد السماوية ولولاها لقذفتنا مياه ذاك العدل الالهي الى بحر النار

قال سليمان الملك لابيتار الكاهن انك لرجل مستحق الموت لكنني لست اقتلك في هذا اليوم لانك حملت تابوت الرب الاله بين يدي داود ابي (ملوك ٣ ص ٢) فابيتار كان معاونًا لادونيا في اخذ الملك الذي لا يحق له بل لسليمان الموعود به بقسم من ابيهِ داود . ان ابيتار يشخص لنا الخاطي الذي عاون ابليس على اخذ الملك من سليمان الحقيقي يسوع المسيح الموعود بهِ بقول الملك ويملك على بيت داود الى الابد . فيقول المسيح لذاك الخاطي انك لرجل مستحق الموت لكنني لست اقتلك اليوم لانك حملت تابوت الرب اي حملت عبادة مريم التابوت الحي في قلبك يا من شتمت الدين انك مستحق الموت لكنني لا اقتلك اليوم لانك تتلفظ باسم مريم التابوت الحي · يا من بسط يده للمحرمات انك رجل مستحق الموت لكنني لا اقتلك اليوم لانك حملت

ايقونة او مسبحة مريم التابوت الحي . يامن دنست ثوب الطهارة بجريرتك انك رجل مستحق الموت لكني لا اقتلك اليوم لانك حامل ثوب مريم التابوت الحي

لا تستخفي يا ميكال بتابوت العهد فيضربك الرب بالعقربة . فلنقدم الاكرام للتابوت الحي مريم البتول الحاوية المن السماوي الذي يقيتنا في برية هذا العالم الى ان ندخل ارض الميعاد السماوية فلنعطَ هذه النعمة بشفاعتها امين

العظة السابعة عشرة

« في وجوب الاعمال الصالحة »

ايها المعلم الصالح ماذا اعمل من الصلاح لارث الحياة الابدية

(متى ص ١٩ ع ١٧)

ان هذا السائل لما كان من علماء الناموس قد عرف ان الضرورة تدعوه الى الاعمال الصالحة ليتمكن من الدخول الى السماء والتمتع بالمجد الدائم ولذا لم يسأل ماذا افتكر ولا ماذا ارغب ولا ماذا اقول بل سأل ماذا اعمل لارث الحيوة الابدية . فثبات الكونين المادي والروحي لا يكون بالافتكار وحده ولا بالرغبة والشوق ولا بالقول . بل هو مقصور على العمل ولا يمكن الحصول على مقصد او مأرب بدونه .

فالعمل اذًا مستلزم لكل أمر ومحتوم به على كل المبروآت التي اوجدها الله الخالق لخدمة الانسان ولمساعدتهِ على عمل خلاصهِ الابدي الامر المهم جدًا ويلزم العمل به اكثر من كل ما سواه كما نثبت ذلك ببراهين عقلية وعملية والهية

قال يسوع ان ابي حتى الان يعمل وانا ايضًا اعمل يوحنا (ص ٥ ع ١٧) . . من الواضح ان العمل مستلزم لقيام الكون الطبيعي والمادي وذلك في كل موجود . فالله عمل في خلقة الكون ولا يزال عاملاً بحفظهِ الموجودات بما انه علتها الاولى لكون الحفظ خلقة متصلة . والملائكة تعمل بحراسة العالم الخ . وسائر الموجودات لا تزال عاملة لاننا نرى الشمس والكواكب عاملة بحركاتها المتواصلة والهواء بهبوبه غير المنقطع والسحب بهطل الامطار باوانها . والارض لا تزال عاملة بدورانها . والبحر يواصل عمله بالمد والجزر . والانهر والينابيع لا تبرح عاملة بجريانها . والنباتات والاشجار لا تمل من العمل بامتصاصها الرطوبة وتوزيعها على اغصانها والاغصان على اوراقها واثمارها . والمعادن لا تتكون في قلب الارض بدون عمل تأثير بعض الكواكب . واذا تأملنا الحيوانات الغير الناطقة وسائر دبابات الارض وطير السماء وحيتان البحار نراها جميعها مثابرة على العمل لقيام حياتها وحفظ انواعها ولنفع الانسان فالنحلة تجني عسلاً ودودة القز تبني بيتًا الخ . ولو امعنا النظر في كل عضو من اعضاء الجسم الحيوي لرأيناه مشتغلاً بالعمل المكلف به من بادئ الكون فالقلب لا يزال عاملاً بتوزيعهِ الدم على

سائر الاعضاء والدم يعمل دائمًا بدورتهِ . والنبض بحركتهِ والعين بنظرها والاذن بسمعها

والاخبار يثبت مانحن فيه لانه لابد للتاجر مثلاً من العمل بتوسيع نطاق تجارتهِ والتيقظ على ضبط حساباتهِ والبحث عن امنية عملائهِ وعن الظروف الموافقة لرواج بضائعهِ ليربح ما كان يقصده ولا يعود بصفقة خاسرة فلا يكفيه الامل بدون عمل ولا الافتكار بغير اتجار. ولا بد للصانع من العمل باتقان صناعتهِ والاجتهاد في تحسين مصنوعاتهِ وترغيب المبتاعين لها ليزيد ربحًا ولا يكفيه ان يامل من غير ان يعمل . ولا بد للزارع من عمل الارض وخدمتها والقاء البذار الجيد فيها وان يتفقدها ويقيها ضرر المواشي ولا يكفيه رجاؤُه الباطل انه يحصد ويجمع غلات كثيرة من غير ان يعمل . ولا بد لمتطلب العلوم من بذل ما في وسعهِ من الجد في الدراسة والمطالعة ولا تفيده رغبته تحصيل ما يتمناه بدون عمل . ولا بد لمن يروم الوصول الى بلد بعيد من تحمل مشاق الاسفار وتواصل السير واعداد ما يحتاجه في طريقهِ وكل هذا لا يناله بمجرد التصور فقط بل يلزمهُ ان يجريه بالعمل

وحيث اتضح ان العمل ضروري لقيام الكون المادي والحياة الزمنية فباولى حجة يكون العمل ضروريًا لقيام الكون الروحي والحياة الابدية . ويزيدنا بيانًا ما ورد في الكتب الالهية عن اعمال المسيح الكثيرة واقواله المصرحه بانهُ لا يكفي الافتكار او القول لذلك بل

يجب العمل . قال السيد المسيح ليس كل من يقول لي يارب يارب يدخل ملكوت السماوات لكن الذي يعمل ارادة ابي الذي في السماوات هو يدخل ملكوت السماوات (متى ص ٧ ع ٢١) وكل شجرة لا تثمر ثمراً جيداً تقطع وتلقى في النار . وكل من يسمع كلامي هذا ويعمل به يشبه رجلاً حكيماً الخ . والتينة العادمة الثمر استحقت اللعنة والعبد البطال شُدَّت يداه ورجلاه والقي في الظلمة البرانية . والجاهلات اللواتي كنَّ بدون عمل اغلق دونهنَّ باب المراحم الالهية . واما الذين اخذوا دينار المجد فقد كانوا اشتغلوا في الكرم . والسيد لهُ المجد يوم الدين يطالب بالعمل على الخصوص فيكافي الذين عملوا بقوله تعالوا رثوا الملك المعد لكم منذ انشاء العالم لاني جعت فاطعمتموني الخ . ويعاقب من لا يعمل بقولهِ اغربوا عني الخ . لا ترضى من خادم يعتبرك ولا يعمل واجباته .

ولا ترضى من شجرة ببستانك تورق ولا تثمر

فلا تسد فاقة المسكين بمعرفتك فقره واحتياجه . ولا يكسى بمشاهدتك عريه بل يحتاج العمل في مساعدتك اياه . ولا يشبع الجائع من نظره الى الاطعمة ولا يرتوي الظمآن من تصوره الماء بل يلزم لذلك العمل اي التناول من الطعام والاستقاء من الماء

وعلى ذلك لا تفيد معرفة الوصايا دون العمل بها كما انهُ لا يفيد لنجاة السفينة من الغرق كثرة عيون الملاحين ونظرهم الى عمق البحر ليروا ما فيه من المخاطر وتارة الى الجوّ لمراقبة الافلاك اذا لم يكن ايدي تشتغل بالمقاذيف وارجل تصعد الى الصاري وغير ذلك من

الاعمال المقتضية لبلوغ السفينة الى المينا سالمة من العطب . فلا فائدة بالايمان وحده والتامل تارة في عمق بحيرة النار وحينًا في السعادة الابدية اذا لم توجد الاعمال الصالحة التي تبلغ النفس الى مينا الامان

ان عمود النور الذي كان يهدي الاسرائيليين حين خروجهم من مصر قد اوصلهم الى البرية لكنهُ لم يدخلهم ارض الميعاد بل لزمهم لدخولها محاربة الامم الذين كانوا مالكيها . هكذا نور الايمان يخرج الانسان من الكفر وظلام مصر ويجعلهُ مسيحيًا ويرشده في برية هذه الدنيا لكن لا يدخلهُ ارض الميعاد السماوية بدون جهاد متصل وحرب عوان مع الاعداء كما فعل القديسون واخصهم الرسول القائل قد جاهدت حسنًا وتممت سعيي

فالاعمال الصالحة هي اجنحة النفس بها ترتقي الى المجد السماوي . فياليتنا نهتم في ربح السعادة الابدية كما نهتم بربح الخيرات الزمنية . فاهل العالم يجدون وقتًا لكل اعمالهم الحاضرة ولا يدعون فرصة تفوتهم بدون ربح واما الاعمال الروحية فيأخرونها من وقت الى وقت قائلين ان وقتها لم يأتِ بعد . فلمثل هولاء يوبخ السيد المسيح بقولهِ ان زماني لم يحضر بعد واما زمانكم فانهُ معد في كل حين (يوحنا ص ٧ عـ ٦) . لكم وقت للاكل والشغل الخ . واما وقت عبادة الله وخلاص النفس لم ياتِ ٠٠٠ مع ان هذه الافعال ذاتها يمكن ان تتوجه لمجد الله كما قال الرسول ان اكلتم او شربتم او صنعتم شيئًا فاصنعوه لمجد الله (قرنتية اولى ص ١٠) فاذا امعنا النظر في البرايا جميعها نرى بكل منها استاذًا

يبرهن لنا امثولة وجوب العمل لخلاصنا فالشمس بعملها اي باعطائها
النور لبعض الكواكب وارسال اشعتها وحرارتها الى الارض تعلمك
انت العاقل ان تعمل ما يجب عليك لنفسك ولقريبك فليضيء نوركم
قدام الناس الخ . والطيور بنغماتها تعلمك التسبيح لله . والبحر بحركة
امواجه الدائمة يعلمك ان لا تفتر من العمل الذي يأول لمنفعة نفسك
وفوق ذلك عملك لجسدك المائت يعلمك ما يجب عليك ان تعملهُ
لنفسك الغير المائتة نقدم الطعام لجسدك كل يوم ونفسك تتضوَّر
جوعًا الخ :

فلكي يمكن ان ندخل الحياة الابدية يجب ان نداوم الاعمال
الصالحة ولا نفتر من العمل بها فاحيِ ايمانك بصلواتك الحارة وامانة
اميالك وصياماتك ومساعدة المحتاجين واضرم ارادتك بمحبة الله عاملاً
بوصاياه الالهية وثابر على اقتبال الاسرار المقدسة وبالاستعداد الواجب
وحينئذٍ ترجَّ ان يكون جزاؤُك الحياة الخالدة في ذلك النعيم الدائمة
افراحه الذي ارجوه لي ولكم اجمعين بشفاعة مريم البتول وجميع
القديسين العاملين الصلاح امين

العظة الثامنة عشرة

« في وجوب سماع كلام الله والعمل به »

من يسمع كلامي ويعمل بهِ يشبه رجلاً عاقلاً بنى بيتهُ
على الصخرة الخ . (متى ص ٧)

ما اكثر الذين يسمعون كلام الله وما اقل العاملين بهِ يسمعون يسوع المسيح يقول ان شئت ان تدخل الحياة فاحفظ الوصايا ولا يحفظونها . يسمعونهُ يعطي الطوبى للمساكين والويل للتمولين وتراهم يحتقرون البائسين ويهتمون بجمع المال ولو كان بطرايق محرمة ويسمعون المواعظ ويحضرون الرياضات ولا يتممون شيئاً بالعمل والحال انه ليس العالمون بالناموس يتبررون بل العاملون به يتبررون ولهذا قال يسوع طوبى لمن يسمع كلام الله ويعمل به . الشجرة العديمة الثمر استحقت القطع . والسماع بدون عمل مثل نحل بدون عسل . لا بل يضر سامعهُ كما قال الرب لو لم اكلمهم لما كان لهم خطية . والذي يعرف ولا يعمل ليس لهُ حجة تبرره قدام الله . والذي يعرف الخير ويعمل الشر كالذي يبني على الرمل او كمن يبني في اليد الواحدة ويهدم في اليد الاخرى . ولكن من اراد ان يبني بيتهُ الروحي على الصخرة ويكون ثابتاً لدى هبوب الارياح وهطل الامطار وجري الانهار يلزمه ان يبنيه من مجموع الفضائل التي يجتنيها من سماعه

كلام الله والعمل بهِ وهذا هو موضوع الخطاب

ان البيت الروحي اشبه بالبيت المادي يبنى بتعب جزيل ويقوم بوضع حجر على حجر بترتيب وتشكيل جميل الى ان يكمل . كذلك البيت الروحي يقوم من فضائل مختلفة الاشكال ويقتضي له تعب جزيل وترتيب حسن وينبغي ان يكون اساسه التواضع المبني على صخرة الايمان لانه بدون الايمان لا يقدر احد ان يرضي الله وبغير الاتضاع يهدم البناء كما هدم برج بابل المبني على الكبرياء لان جزاء المتكبرين سقوطهم . واتساعه المحبة الصادرة من ضمير صالح وقلب نقي . وارتفاعه الرجاء الوطيد بمواعيد سيدنا يسوع المسيح لمن يسمع كلامهُ ويعمل بهِ . وجدرانهُ الاربعة هي الحكمة والعدل والشجاعة والقناعة . وسقفه الصبر . وكوتهُ الارتياح الى المجد السماوي . وبابهُ حفظ الوصايا . والبواب هو خوف الله وحراسه الملائكة والقديسون . وسوره هو التأمل . والمتولي على هذا البيت هو العقل والعروس الارادة والبنون الاعمال الصالحة والعبيد الحواس المطيعة للعقل والمائدة هي الكتب المقدسة والخبز هو القربان الاقدس والخمر دم المسيح والماء الحي هو الروح القدس والزيت هو الرحمة . السرير هو سكون النفس وراحتها والادوية الاسرار والاطباء هم الكهنة والضيوف هم الآب والابن والروح القدس . فمن اجتمعت بهِ هذه الفضائل كان بيت نفسهِ عامرًا واهلا لان يحل فيه الرب وان خاس شيء من مقتضياتهِ كان ذلك عيبًا . مثلاً لو كان مبنيًا على الرمل اي على روح العالم وتعليمه لسقط بلا محالة او لو كان ضيقًا خاليًا من طول

الاناة والتأني في المقاصد والامور المهمة لما وسع من لاتسعهُ السماوات والارض ولذلك قال الله وسع قلبك فاملأهُ . وكذا لو كان غير مرتفع بالرجاء في السعادة الابدية بل ملتصق بالخيرات الزمنية السريعة الزوال لما استحق ان يدعى بيت النفس بل بيت الجسد الذي يسقط بسقوطهِ في الموت . وما نفع البيت دون سقف فانهُ لا يرد نوافح البرد ولا لوافح الحرّ فوجوده وعدمهُ سيّان . وهكذا حال النفس الخالية من الصبر لايمكنها ان تدفع تجربة ولا ترد سهماً من سهام العدو التي يرشقها بها . ومثلما ان الباب ضروري لدخول البيت هكذا حفظ الوصايا مستلزم لبيت النفس الروحي وبدونهِ لا مدخل للحيوة الابدية . ولا بدّ للبيت الكبير الشهير من بواب يفتح الباب للصديق ويغلقهُ بوجه العدو لئلا يدخل فيقتل صاحب البيت ويسلب كنوزه هكذا حال بيت النفس فالبواب هو خوف الله الذي يمنع دخول الخطية التي تقتل النفس وتسلب منها كنوز النعم ويفتح الباب لقبول الافكار الصالحة والالهامات الالهية قال الله في (ص ٣ من سفر الجليان) هاءنذا واقف على الباب اقرعُ فان سمع احد صوتي وفتح الباب ادخل اليهِ . فالخالي من خوف الله لايسمع صوت الرب ولا يفتح له . وعلى رب البيت ان يقيم لهُ حراسًا خوفًا من هجمات العدو فحراس بيت النفس هم الملائكة الذين يحدقون بها ليلاً ونهارًا ويحرسونها من مكائد الابالسة ووثباتهم مادامت في هذه الحياة . وما يلزم لصيانة البيت السور المحدق به من كل جهاته هكذا يلزم لصون بيت النفس التامل في الحقائق الابدية كديمومة النفس

ودينونتها الخ . لان مثل هذه التاملات تقي النفس وتحفظها من فساد الشر كما ان الملح يحفظ اللحم من الفساد . واذا كان لابد للبيت من متولٍ خبير يحسن ادارته ويكون لهُ حق في الامر والنهي ويوزع الاعمال على سكانهِ فارضاً على كل منهم ما يستطيعه هكذا لبيت النفس متولٍ وهو العقل والحواس عبيده ملتزمة باطاعتهِ فيستخدم كلاً منها بما يأُول لمصلحة الروح من الاعمال الصالحة فيامر اليد بالصدقة ومساعدة المحتاجين والرجل بالمسير لعيادة المرضى . واللسان بالمديح والتسبيح وارشاد الضالين الخ . لان العقل قوة منيرة وظيفتها البحث عن الحق والامور النافعة ولها ان تامر الحواس الداخلية والخارجية بالعمل المفيد لبناء البيت الروحي وعلى الحواس ان تطيع بكل نشاط دون ابطاء . وعلى ربة البيت ان تكون صالحة امينة رزينة تثبت فيه غير قلقة ولا طوّافة حريصة غير مبدرقة ولا متغافلة هكذا بيت النفس فان عروسةُ هي الارادة فيلزمها ان تكون ثابتة في عمل الخير وبنوها الاعمال الصالحة الواجب عليها ان تربيها كما تربي الام اولادها ولا تكون قلقة مضطربة سريعة التقلب بل تثبت على ما ابتدأَت به من العمل الصالح الى المنتهى . ولا تكون عقيمة من الخير بل مخصبة وغير مائلة الى الشر وتجمع جواريها وخدامها اي اميالها وعواطفها الى المائدة الروحية التي هي الكتب المقدسة . وتغتذي من القربان المقدس لكونهِ هو الخبز الذي يشدد قلب الانسان ويقوّيه وتستقي من خمر العذارى الذي هو دم المسيح . وترتوي من الماء الحي الجاري من ينابيع الحياة اي من

مواهب الروح القدس الذي هو حياة الروح وروح الحياة . ومن الواضح ان البيت دون مصباح يكون سجناً مظلماً فمصباح النفس هو الايمان القويم بكلما اوحاه الله والزيت هو عمل الرحمة فلو خلا المصباح من الزيت لانطفأ حالاً كما اصاب العذارى الجاهلات فامسينَ في الظلمة البرانية هكذا الايمان بلا اعمال

ونرى لكل بيتٍ طبيباً لمداواة مرضاه عند الاقتضاء ولا يصير اغضاء عن استدعائه لدى الاستشعار بادنى مرض وهكذا يلزم لبيت النفس طبيب روحي من الكهنة الغيورين الماهرين في فنّ مداواة النفوس وشفائها من اسقام الخطية ليقدم لها الادوية الروحية التي هي الاسرار المقدسة . وتستريح في سرير راحة الضمير وسكونهِ وسلامة القلب وهدوءه . فما اعظم المنزل الذي يشرفهُ الثالوث الاقدس بحلولهِ فيهِ . هذا هو بيت النفس الواجب على كل مسيحي ان يهتم بقيامهِ طالباً من الله المعونة على بنيانهِ لانه ان لم يبنِ رب البيت فباطلاً يتعب البناؤون . فعليهِ تعالى ان يعلمنا كيف نبنيهِ وعلينا ان نسمع كلامه ونعمل بهِ كالرجل العاقل الذي بنى بيته على الصخرة . فالمسيح يعلمنا ان ندخل من الباب الضيق لان الباب الواسع يؤدي الى الهلاك والداخلين فيهِ كثيرون . قال اغوسطينوس الفيلسوف ان الباب الضيق الذي نلج بهِ الى السعادة الدايمة هو ناموس الله الذي يحصر شهواتنا ويضيقها اذ يامر بالطاعة والعفة والامانة وحمل الصليب كل يوم وان من قال لاخيهِ احمق قد وجبت عليه نار جهنم ومن نظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها في قلبهِ .

وان شككتك عينك اليمنى فاقلعها . لا تخافوا البتة . لا تقاوموا الشر بالشر لكن من لطمك على خدك الايمن فحول لهُ الاخر ومن سألك فاعطهِ . احبوا اعداءكم واحسنوا الى من يبغضكم . وكونوا كاملين الخ ولا ريب في ان هذه الاشياء ضيقة غير انها هي الحجارة المهندمة المنحوتة التي تصلح لبنيان البيت الروحي وبها يتزين جبين الدار . فعلينا اذاً العمل بمقتضى هذا التعليم الالهي للخلاص لان الذين يخلصون هم قليلون وهذا يتضح لنا قياسهُ بالامثال الواضحة في الكتب المقدسة فاننا نرى انهُ لم ينجُ من حريق صادوم وعموره والمدن العشر سوى لوط وابنتيه والباقون احترقوا جميعهم لانصبابهم نحو الشهوات الردية والحال ان العالم يشبه صادوم مشتعلاً بنار الشهوات . ولم يخلص من الطوفان الذي اهلك الناس كلهم بامواههِ لسبب خطاياهم سوى نوح وعائلتهِ والحال انهُ يوجد في العالم طوفان المآثم وهذه يعقبها كل عقابٍ وشقاء . ولم يدخل ارض الميعاد التي كانت رسماً للملكوت الا اثنان من ستماية الف مقاتل وهما يشوع بن نون وكالب . واشعيا النبي شبه العتيدين ان يخلصوا من قتل الكلدانيين في مدينة دمشق بسنبل يسيرٍ يلتقط من بعد الحصاد . وبقليل من العنب الذي يوجد بعد القطاف . وبحبتين او ثلاث من الزيتون بعد فرطهِ . مع ان جميع الذين هلكوا في الامثلة المذكورة قد سمعوا كلام الله منهم استمعوه من نوح البار ومنهم من ابرهيم الخليل ومنهم من موسى الكليم ومنهم من الانبياء ولكن لم يعملوا بهِ فكانوا كالرجل الجاهل الذي بنى بيتهُ على الرمل فلما هطلت الامطار وجرت الانهار

وعصفت الرياح وصدمت ذلك البيت فسقط وكان سقوطهُ عظيماً

ان الامطار والانهار والرياح هي كل مصيبة وبلاء وكل تجربة تحدق بنا من قبل العالم والجسد والشيطان . فانهدام البيت يحدث اما من سقفهِ واما من جدرانه واما من اساسهِ . فغزارة الامطار تهدم سقفهُ وعواصف الارياح تزعزع اركانهُ وجدرانه ومجاري الانهار تقلب اساسهُ اذا لم يكن راكزاً على الصخرة بل على الرمل المنهال . هكذا البيت الروحي يهدم بالامطار الدالة على تجربة العالم المنحدرة من العلى بسماح الله لامتحان الانسان واختباره كالذهب الممتحن بالنار لرفع الصدى عنه . وتدل ايضاً على كبرياء البشر واستعظامهم ورغبتهم في المال الذي يقدمهُ العالم للانسان المحب الاباطيل فاذا تعرقل بها يبتعد عن ناموس الله ويخرج ايضاً عن ايمانهِ . واما الانهار بما انها تنبع من الارض وتحيط بالبيت وتهدمهُ فتدل على تجارب الجسد كالشراهة والسكر والزنا الصادرة عن الجسد عينه وتحيط به فتبعده عن الطهارة والقناعة التي يامر بها الله والارياح التي تهب على البيت من جانبيهِ وتقلب جدرانه دون ان نراها دلت على تجارب الشيطان الذي هو روح غير ملحوظ واركون الجو ولذلك يهبُّ على مخيلتنا ويُدخل اليها تجارب قوية واهواءً ردية تندسُّ خفيةً حتى اننا لا نعلم ان كانت صادرة عنهُ اخزاه الله او عن حفظ وصايا الله مجتذباً اياهُ نحو كل شهوة فيسقط في جهنم كالبيت المبني على الرمل الذي يسقط منهدماً اذا صدمته الارياح العاصفة

ان المسيح قد شبه عدم ثبات وطاعة من يسمع كلامهُ ولا يعمل بهِ بالرمل اولاً لان الرمل سريع الحركة والانتقال ولا يمكنهُ ان يقوم مقام الاساس الصلب الثابت كذلك النفس المتقلبة الغير الثابتة والغير المطيعة لا يمكنها ان تكون اسًا للفضيلة والكمال بل تسقط لوقتها · ثانيًا لان الرمل تهبهُ الريح وتذريهِ الى كل جانب كذلك الروح الخفيفة المتقلبة تنجذب نحو كل شهوة عند حلول التجربة · ثالثًا كما ان الرمل ناعم جدًّا يحوي الوفا الوفًا من الحبوب هكذا القلب المتقلب الغير الثابت يمتلي افكارًا ورغباتٍ متعددة . وقال الانباء سلميرن في تفسيره هذه الآية ان الرجل الجاهل يبني على الرمل اي على الخليقة التي هي كالرمل عقيمة من كل خير وسريعة السقوط في الخطاء متى طرقتها امواج التجارب · واما العاقل فيؤسس بنيانه على المسيح وناموسهِ وخوفه ومحبتهِ كانهُ على صخرة فلا يبالي من شهائب الاضطهادات . ولا من سيول المصائب والبلايا · ولا يحفل بنسيم المواعيد العذبة · ولا يجفل من عواصف الوعيد والتهديد · بل يثبت غير متزعزع في دعوته ووظيفته ومحبته لله كالصخرة التي تصدمها امواه البحر وتلطمها من كل جانب · وتهب عليها الرياح وتطرق بالبرَد والصواعق وهي ثابتة لا تتحرك كما حدث لكثير من القديسين

فيلتزمنا ان نجاهد بقدم راسخ ونحارب اعداءنا بقلبٍ شجاع ونتنصر على تجارب العالم بالصبر والهرب من الاسباب · وعلى الجسد بالصوم والاماتة · وعلى الشيطان بالصلاة والالتجاء الى الله وسائر الاعمال

الصالحة . ونطلب الرحمة من يسوع نظير ذاك الاعمى الذي كان جالسًا
يتسول على قارعة الطريق . فلما سمع بان يسوع الناصري مُقبل
طفق يصرخ ويقول يا يسوع ابن داود ارحمني . فزجرهُ كثيرون ليسكت
فازداد صراخًا يا ابن داود ارحمني (مرقس ص ١٠) . فهذا الاعمى لم
يكتفِ بسماعه عن المسيح انهُ يفتح العميان ويعمل العجائب بل بادر الى
الصراخ حتى اقلق السامعين ولما دعاه يسوع نهض حالاً وطرح ثوبه
وابتدر اليه ولم يبالِ بزاجريه . وعلى هذا المثال لا يكفينا لنوال الخلاص
من التجارب ان نسمع ليسوع المسيح وتعليمه بل يلزمنا العمل بموجبهِ
فنصرخ اليه بالصلوات المتواترة قائلين يا ابن داود ارحمنا ونطرح عنا
ثوب الرذائل الوسخ ونتقدم اليه بالايمان والرجا والمحبة ونقمع شهوات
الجسد التي تزجرنا لنسكت ونسالهُ تعالى ان يفتح اعين عقلنا التي اعمتها
الخطية ويقوّي ارادتنا بنعمتهِ الفعالة . ولا يسمح ان يسقط حجر من
البناء الروحي الذي شيدتموه في هذا الصوم المقدس بالاعمال الصالحة
والرياضات التقوية والاعترافات النقية واستماع المواعظ والتلاوات
الروحية . وذلك بشفاعة سيدة العالمين وجميع القديسين آمين

العظة التاسعة عشرة

« في الصدقة »

قال السيد المسيح اعطوا صدقات فكل شيء يكون لكم نقيًا
(لوقا ص ١١)

ان الصدقة امر مفروض لازم لابدَّ منهُ للخلاص الابدي لانهُ للخلاص يلزم اتمام الوصايا المامورة من الله والحال ان الله يامر بالتصدق على المحتاجين بقوله قبل كل شيء اعطوا صدقات . وهذا القول الالهي ليس هو مشورة فقط بل هو امر لازم ويتهدد الله مخالفيه بعقوبات جهنمية بقولهِ يوم الدين لمن امسكوا عن مساعدة المحتاجين اغربوا عني . لاني جعت ولم تطعموني . وعليهِ اقتضى ان نبين هذا الالزام ببراهين طبيعية وعقلية والهية ثم نوضح فوائد الصدقة الكثيرة وكيفية اتمامها وعقاب من يهملها ملتجئين اليه تعالى طالبين منهُ نعمة الاستنارة مستشفعين مريم الخ

اثبات ذلك اولاً من البراهين الطبيعية

ان الخالق قد رتب بعنايته الالهية ان ما فاض عن الواحد يكون للاخر المحتاج كما يجري في الامور الطبيعية فاذا امطرت السماء على الارض العطشى فتشرب كفايتها وتدع الباقي يجري لنفع غيرها . ثم اذا

نال غصن من الكرمة رطوبةً كافية له فيكف عن اخذ ما بقي من الرطوبة ويتركها للاغصان الاخر المحتاجة ومثلهُ اذا اكتفت ثمرة الشجرة الواحدة من الماء تقدم لغيرها من الثمار ما تفتقر اليهِ من ذلك الماء وهذا ايضًا يجري في الازهار والحشايش والبقول اذ كل منها يشارك مجاوره بالغذاء الذي فضل عن كفافه الضروري وهكذا الهواء فاذا اضطرم بحرارة كثيرة سكبها ومدها الى الاجرام الاخر. والباري تعالى بعد ما ابرز الارض الى الوجود لم تبخل بما عندها بل انبتت لمنفعة غيرها وهكذا الماء فانهُ لهذه الغاية قد دبَّ الحيتان

ثانيًا من البرهان العقلي

ان هذه الوصية موسَّسة على ثلاثة امور. سلطة الله وحاجة القريب ومافاض عن الغني. فالله لهُ السلطة المطلقة على جميع ارزاقنا وهو وحده ربها وصاحبها واما نحن فوكلاوه وخازنوه فقط وهذا واضح من نور العقل والايمان ايضًا فاذًا يجب علينا ان نودي لحضرتهِ الالهية الجزية والعشر منها وان كان تعالى صاحب اموالنا فيحق لهُ بعض ايرادها فهو تعالى لا يطلب بنفسه ولا لنفسه هذه الجزية وذاك الايراد لانهُ لا يحتاج الى خيراتنا وهو امر غير لايق بجلال حضرته الالهية بل انهُ يطالبها على ايدي الفقراء موكلاً اياهم ليجمعوها عنهُ ولذا يدعوهم القديس بطرس الذهبي الكلام اصحاب دفتر الله. ومن هذا ينتج ان الصدقة التي هي من واجبات المحبة والرحمة نظرًا الى المساكين هي من واجبات الحق والعدل والطاعة نظرًا الى الله. فاذًا من ينسى الفقراء ويأبى التصدق على البائسين هو

عبد عاصٍ يأبى تأدية الجزية المتوجبة عليه لمولاه

واما المحتاج فلا بدَّ من ان يكون لهُ في العالم ملك وعقار لمعاشه لان الله لم يخلقهُ ليموت جوعًا ومن المعلوم ان هذا الملك والعقار ليس هو عند الفقراء فاذًا هو عند الاغنياء ويلتزمون بالنفقة منهُ على المعوزين والاَّ لكان ذلك عدم كمال في الصفات الالهية فلو فرضنا الخلاف اي ان الله ما رتب معاش الفقراء على الاغنياء لكان اما من عدم معرفتهِ باحتياج المساكين وهذا يناقض معرفته الالهية واما انهُ عرف وما استطاع ان يرتب لهم ما يعيشون بهِ وهذا ينافي قدرته المطلقة واما انهُ عرف وقدر وما اراد ان يغيثهم وهذا مما يخلُّ بجودتهِ ومحبته فاذًا على الاغنياء ان يسدوا فاقة المحتاجين فالذي يعتني بفراخ الغربان و بزهر الحقل ودود الارض هل يترك الاهتمام بالمساكين . اليس هو ابًا للجميع فايُّ ابٍ يترك بعض اولاده بلا قوت ويعطي الاخر ما يتنعم به بالشراهة والبذخ ويدع بعضهم عريانًا وبعضهم يتبجح بالملابس بعض شبعان والاخر ظمآن . ولئلا يضيع رزق الفقير قد اسنده تعالى على ما زاد عن الغني كما اسند مصدر نور النجوم على ما زاد من نور الشمس ولهذا قال ما فاض اعطوه صدقات . وقال الرسول فلتكن فضلاتكم سدًّا لحاجات الفقراء (قرنتية ٢ ص ٨ عد ١٤)

اثبات ذلك من الكتاب المقدس

قال الله في سفر الخروج (ص ٢٣) ست سنين تزرع ارضك وتجمع غلاتها وفي السابعة اجمعها وتخلُّ عنها فياكل منها مساكين شعبك

وكذلك تصنع بزيتونك وكرمك . وقال في سفر الاحبار (ص ٢٥) اذا رقَّت حال اخيك وقصرت يده فاعضده. وقال في تثنية الاشتراع (ص ١٥) اذا كان بينكم فقير فلا تقسِّ قلبك عليهِ ولا تقبض يدك عنهُ . وقال اشعيا (ص ٥٨) اكسر للجائع خبزك وادخل البائسين المطرودين بيتك واذا رأيت عريانًا فاكسهِ

واسمعوا ما اوصى به طوبيا البار ابنهُ قائلاً يا بنيَّ تصدق من مالك ولا تحول وجهك عن فقير وحينئذٍ وجه الله لا يحوَّل عنك . كن رحيماً على قدر طاقتك ان كان لك كثير فابذل كثيرًا وان كان لك قليل فاجتهد ان تبذل القليل عن نفس طيبة فانك تذخر لك ثوابًا جميلاً الى يوم الضرورة لان الصدقة تنجي من كل خطية ومن الموت (طوبيا ص ٤) والسيد المسيح قد امر الاغنياء قائلاً اعطوا المساكين ما فضل عنكم (لوقا ص ١١ عد ٤١) قبل كل شيء اعطوا صدقات فكل شيء يكون لكم نقيًا . وقد اثبت ايضًا الزام هذه الوصية بايراده تعذيب مخالفيها وذلك في خبر الغني الشرير المحكوم عليه بالعذاب الجهنمي لقساوة قلبهِ على المساكين . وفي مثل الغني الاخر الذي اخذت نفسهُ مع امواله حينما كان يرجو التمتع بها زمنًا مستطيلاً قال رجل غنيٌ اغلت لهُ ارضه كثيرًا ففكر في نفسه قائلاً ما اصنع فانهُ ليس لي موضع اخزن فيه غلالي ثم قال اصنع هذا اهدم اهرائي وابني اكبر منها واخزن هناك جميع ارزاقي وغلاتي واقول لنفسي يا نفسي ان لكِ خيراتٍ كثيرة موضوعة لسنين عديدة فاستريحي وكلي واشربي وتنعمي

فقال له الله يا جاهل في هذا الليل تطلب نفسك منك فهذا الذي اعددته لمن يكون (لوقا ص ١٢) فيا معشر المؤمنين الاحباء اني اقول لكم الحق ان فرائصي ترتجف عند تاملي هذه الاية الالهية ترى ما هو الاثم الثقيل الذي قصد هذا الغني ان يجترمه حتى استحق هذا القصاص الهائل . قال انه يريد ان يهدم اهراءه ثم يبنيها ويوسعها ليت شعري هل فيكم من يحسب ذلك اثماً ثقيلاً كم من الذين ولدوا في دور فاخرة ولهم فيها كل انواع الراحة ومع ذلك لا يستريحون بها مكتفئين بل يصرفون ايامهم في الهدم والبناء . وقال ايضاً انه بعد ذلك يريد ان يرتاح ألعل طلبه الراحة ذنب كبير لانه لو قال انه يريد ان يظلم او يقيم دعاوي باطلة او يقتل او ينهب او يعيش بالبذخ مع العواهر لكان ذلك اثماً كبيراً ولكن اي ذنب هو الرقاد على الفرش الناعمة الليل كله وجزءًا من النهار ايضاً . قال انه يريد ان يتكلف على الاكل والشرب اكثر مما مضى فهل يوجد اثم ثقيل في الاكل والشرب كلاً ولاي سبب استحق هذا الشقي ان يحصى مع الهالكين اسمعوا سبب هلاكه من فم المسيح نفسه لانه اراد ان يحفظ لنفسه جميع الخيرات التي تفضل بها عليه الباري تعالى ولذلك ختم الاية قائلاً هكذا من يذخر لنفسه وهو غير غني بما لله

في فوائد الصدقة . نثبت اولاً من البرهان

لا يعدُّ عاقلاً من يقدر ان يبلغ ماله وهو في غربة الى وطنه بطريق امينة ومع ذلك يريد ان يحمله مسافراً فيما بين اخطار عديدة من قطاع الطريق واللصوص ومخاطر الموت الخ . فحالة من يأبى الصدقة

حالة مخطرة لانهُ لا بد من ان يخطف الموت ما نمسكه عن الفقير شيئنا او ابينا فلمَ لا نرسلهُ امامنا بيد الفقير الامينة وسوف نلقاه مع ربحو في ذلك الفردوس الابدي . فا لقمح اذا بذر يتضاعف وان حفظ فسد هكذا حال الاموال الزمنية ان فُرّق منها يضاعفها الباري تعالى السخي بعطاياه والصادق بمواعيده

ثبت ثانيًا من الكتاب المقدس . قد تقرر بالايمان ان من يعطي المسكين لا يحتاج لا هو ولا ذريته كما قال داود (مزمور ٣٦) كنت شابًا وقد شخت ولم ارَ صديقًا مرفوضًا ولا ذريتهُ تلتمس خبزًا النهار كلهُ يرأف ويقرض وذريتهُ مباركة . وقال ابن سيراخ (امثال ص ١٩) من يرحم مسكينًا يقرض الله وسيكافيه على قدر عطيته . والرسول قد عبر عن الصدقة بزرع يضاعف حصاد النعمة والخيرات الارضية ايضًا مقررًا ان الاموال التي نفرقها على الفقراء لا تضيع بل تاتي بمائة ضعف حيث يقول من يزرع بالشح فبالشح يحصد ومن يزرع بالبركة فبالبركة يحصد . فالبذار هو الخيرات والزرع هو الصدقة وحقل الرب هو المسكين

قال السيد لهُ المجد لا تكنزوا لكم في الارض كنوزًا حيث السوس يفسد والسارقون ينقبون فيسرقون لكن اكنزوا لكم كنوزًا في السماء حيث لا يفسد سوس ولا اكلة ولا سارقون يسرقون (متى ص ٦) . فالرب اذ كان عالمًا رغبة الانسان في ادخار الكنوز لم يمنعهُ عن الادخار بل علمهُ اين يدخر كما انه لم يمنع بطرس عن الاصطياد بل علمهُ ماذا يصطاد اي يصطاد الناس الى الخلاص ولم يمنع تلاميذه عن

الفرح بل فهم باي شيء يجب الفرح اي بان اسماءهم مكتوبة في السماء ولم يصدهم عن الخوف بل اوضح لهم من اي شيء يجب ان يخافوا

فاذاً اكنزوا لكم كنز الصدقة الممدوحة من الجميع دون سائر الفضائل لانه اذا مدح احد فضيلة العدل في رجل يذمها آخر ناسباً اياها الى التعنيف والقسوة واذا امتدح فضيلة الحكمة فيذمها غيره وينسبها الى الخبث والمكر وان مدح فضيلة الصبر فينسبونها الى الضعف وصغر النفس . واما الصدقة فقد اجمعوا على مديحها لانها مفيدة ومحبوبة جداً ومقبولة عند كل احد . وفي هذا الصدد حُكي ان رجلاً مكاراً حسوداً كان يذم اعمال القديس كارلوس العجيبة ولكن لما سمع عنه انهُ كان يتنزل عن حقوقهِ لاجل خير العامة ويعطي الفقراء ما يحتاجون اليه بسخاء وافر ارتجع عن مذمتهِ واقرَّ ظاهراً وتاب منادياً قائلاً الان صدقت ان هذا الرجل قديس . فان شئتم دوام ذكركم وامتداح اسمكم وزيادة خيراتكم فاقرضوا الرب بشخص الفقير كقول الحكيم من اعطى المعوز لم تدركه الفاقة ومن اغضَّ عينيهِ عنهُ فعليهِ لعنات كثيرة (امثال ص ٢٨ ع ٢٧) . وقولهِ ايضاً اكرم الرب من مالك ومن اوائل جميع غلالك فتمتلئ اهراؤُك وفراً وتفيض معاصرك خمراً (امثال ص ٣)

قال القديس بطرس كرسوغولوس ان المسيح في اليوم الاخير سيصمت عما اصاب هابيل وعن حفظ نوح للعالم وعن ايمان ابرهيم الحي وعن صلب بطرس منكساً ويمدح المتصدقين بقولهِ جعت

فاطعمتموني . لان الذي نترجى منهُ الملكوت هو يطلب منك الصدقة للفقير فان لم تعطهِ ما يطالبهُ منك فلا يعطيك ما تطالبهُ منهُ بل يزجرك قائلاً اغرب عني لاني جعت ولم تطعمني . فلنفرض ان رجلاً بخيلاً اراد ان يبتاع حقلاً مخصباً ثم عدل عن شرائهِ لاجل درهم او درهمين فاشتراه اخر بالثمن المطلوب فابتدأ ان يدبره حتى اعطى غلات تفوق ثمنهُ اضعافاً فكم يكون ندم ذاك البخيل على ما فاته من ارباح الحقل هذا لو اراد مشتراه فيما بعد لا يحصل عليهِ . اذاً فلنشترِ الملكوت بالصدقة لئلا نندم ولات ساعة مندم

في كيفية اعطاء الصدقة

يجب ان يكون توزيع الصدقات بيد سخية وبوجه باش وبعين مرتقية الى العلى . فيفهم باليد السخية قدر امكان المتصدق كقول طوبيا لابنهِ ان كان لك كثير اعطِ كثيراً لان النقط القليلة لا تعد مطراً اذ لا تروي الارض العطشى ويفهم بالوجه الباش ان لا تكون بضجر لان الله يحب المعطي الفرحان . ويفهم بالعين المرتقية الخ توجيه نية المتصدق لمجده تعالى القائل اذا صنعت صدقة لا تعلم شمالك بما صنعت يمينك . وتيقن ان ما تبذلهُ من الصدقة محفوظ من الرب ولا يضيع منهُ شيء . حكي عن قبطان انهُ دعا الى مأدبة فاخرة قوماً من الذوات وكانت آنية تلك الوليمة كلها ثمينة جداً وكان يامر الخدم بان يلقوا في البحر ما يفرغ منها فحزن المدعوون على هذا الاسراف اما هو فكان فرحاً مسروراً الا انه قد كان مدَّ شبكة في البحر تحفظ تلك الآنية الذهبية

وبعد ذهاب المدعوين اي اخر النهار جذب تلك الشبكة فاذا بها الآنية نظيفة سالمة . هكذا ما توزعه من الصدقة فيكون محفوظاً لك

ذكر عن روبرتوس ملك فرنسا انه كان يعول كل يوم الف فقير وكان يدعوهم من اعز حواشيه والقديس يوحنا الرحوم بطريرك الاسكندرية كان يسمي الفقراء اسياده

يحتج بعض الاغنياء قائلاً اننا بلغنا الى عصر لا نعرف فيه المستحق الاحسان من غير المستحق فنجيبهُ عليك الاحسان لا الامتحان وان تتصدق لا ان تتحقق أتظنون ان الخمسة آلاف الذين اشبعهم المسيح في البرية كانوا جميعهم فضلاء ومساكين . اوليس ان الله يشرق شمسهُ على الاخيار والاشرار ويهتم بالغربان والحمام . فمن يمتحن الفقير في كثرة الاسئلة عن حاله ومكانهِ ومولده ومذهبهِ . . . فهذا اشبه بذاك المجرب الذي لما رأى السيد المسيح جائعاً شرع يزيد بالسؤال عن حالتهِ ليعلم هل هو إله او انسان ويا ليتهُ بعد كل ذلك الامتحان قدم لهُ ما يسد جوعه . ولبعض الاغنياء احتجاج آخر في عدم اعطاء الصدقة وهو احتياج عيالهم فنجيبهم ان من اعتنى ببني الله اعتنى الله ببنيه اذ ما من احد يتغاضى عن مرضعة ابنهِ بل يقدم لها كل ما يلزمها حتى ولو كانت دنية الاصل وفقيرة فانهُ يغذوها بألذ الاطعمة ليغزر لبنها . فلنتذكر قول الحكيم ان من اغضى عينيهِ عن الفقير لهُ لعنات كثيرة . وقد ذكر في سفر القضاة (ص ٨) انهُ لما طلب جنود جدعون

من اهل سكّوت مـا ياكلونه في شدة جوعهم فابوا عن فعل الرحمة فانتهرهم جدعون قائلاً اني اذا رجعت اليكم سامزق لحومكم في وسط الشوك . فكم يكون انتقام الله من اولئك القساة القلوب على الجياع فلا ريب انه من كرسي مجده يراهم بعين السخط ويخاطبهم بوجه من قد سلَّ سيفهُ للانتقام قائلاً اني ساعود اليكم عن قريب وحينئذٍ امزّق لحومكم بالشوك والقرطب ساحزم الاغنياء مع غناهم المشبه بالنجيلي بالشوك واحرقهم بنار لا يستطيع احد ان يطفئها

خبر . قد اخبر تورُناس في تواريخهِ ان امرأة تدعى ترازيا غرق لها سفينة موسوقة حنطة حينما امسكت عن فقير رغيفًا من الخبز وقد ذكر ايضًا ميتافرستي في تواريخهِ ان تاجرًا اسمهُ فوستينانوس خسر احدى عشرة سفينة مملوءة حينما بخل على الفقراء بقليل من القوت . فقد بطل اذًا اعتذار القائلين انهم يأبون التصدق خوفًا من نقص اموالهم وفقر عيالهم لان الصدقة لا تفقر احدًا لكون من يعطي الفقير يقرض الله ويصير الله تعالى مديونًا لهُ وهل يوجد اغنى ممن يقرّ لهُ الله الصادق بانهُ مديون لهُ . والايمان يوكد لنا ذلك اذ قال تعالى من يسقي كاس ماء بارد اجره لا يضيع فكم يكون اجر من يطعم الجياع ويكسو العراة

ولكن لا ينبغي ان يكون القصد في نيل العوض عن الصدقات في هذه الدنيا لكوننا غرباء وعابري سبيل فخيرات الارض تثقل علينا بل يجب ان نسألهُ تعالى ان يبقي لنا الوفاء الى السماء . فلو كان لاحدكم

مبلغ مال وافر على آخر والتقى بهِ وهو راجع وحده من بلاد غريبة واراد ان يغنبهُ مالهُ على قارعة الطريق في برية مملوءة لصوصًا اما كان يلتمس منهُ ان يبقي الوفاء حتى يبلغ الى وطنهِ

أَترى يوجد بين المسيحيين من يستطيع ان يقول مع ايوب الصديق هل اكلت لقمتي وحدي فلم ياكل منها اليتيم (ايوب ص ٣١) يظهر من هذه الآية انهُ اذا لم يكن لنا سوى رغيف واحد فالواجب ان نقسمهُ بيننا وبين المحتاجين وحينئذٍ يصح القول اننا نعطيهم مما هو لنا لاننا اذا تصدقنا بالفاضل فنكون اعطيناهم ما هو لهم لان فضلات الاغنياء للفقراء يقول القديس اغوسطينوس

وماذا يحل باولئك الذين بدلاً من ان يسعفوا الفقير يظلمونهُ فالويل ثم الويل لمثل هولاء اننا في ايام يسوغ لنا ان نقول فيها ما قالهُ ابن سيراخ ان الفقراء مرعى الاغنياء (ص ١٣ ع ٢٣). انهُ يوجد بعض الاغنياء يجتنون من تعب الفقير مهما ارادوا كانه خزنتهم وثروتهم فيجتنون منهُ المعاش واللباس وكل ما يلزمهم فيستخدمونه وبعد ذلك لا يفونه الاجرة وما بالي قلت لا يفونه اجرته فانهم لا يسخطون منه ويشتمونه ويصرفونه بشديد الغضب. فان وجد من يجترم هذا الاثم الفظيع أَفلا يخاف من اداء الحساب الصارم للديان الرهيب. باي ضمير وباية ذمة نخدم غيظًا على من لهُ اجرة او دين اذا طلبهُ ونخسب رجاه اياك لجاجة بالطلب ها ان صراخ الفعلة الممسكة اجرتهم قد دخل الى اذني رب الصباوت (يعقوب ص ٥). أَهذه هي المحبة للاشخاص

الذين اوصى بهم السيد المسيح أهذه هي الرحمة والحلم على البائسين . ان ابرهيم حينما التزم ان ينكر على احد الهالكين نقطة ماء بارد انما كلمه كلاماً ليناً باشاً ولم يزجره قائلاً له تباً لك ياشقياً لقيّاً يا قاسي القلب باية دالة تطلب مني ماء . احترق . تمزّق غيظاً لانك قد استحققت هذا العذاب بل جاوبه بحلم و بشاشة قائلاً تذكر يا ابني انك قبلت خيراتك في حياتك

فكيف تجورون انتم على الذين ربما سترونهم في السماء اسمى منكم مرتبة وان كنتم عاجزين عن الوفاء فلا تعاملوهم بالجفاء بل اصرفوهم شاكرين لكم على بشاشة وجوهكم ولا تتشبهوا بسحاب الخريف الذي يرشق الارض العطشى بالبرد بدلاً من الماء الفاتحة فمها لاقتباله

قد اخبر الانباء بولس السنيري عن القديس فرنسيس البادوي انه وبّخ ذات يوم الفونس ملك نابولي لانه كان يظلم المملكة بضرائب غير عادلة ثم تناول بيده درهماً كان وقتئذٍ اتى بهِ وكلاء الجزية فكسره قدام الملك واراه دماً يسيل منهُ

لو كانت لي قدرة الهية نظير هذا القديس الجليل كم من الدم كنت اجري امام عيونكم من اموال الذين يظلمون في البيع والشراء والاخذ والعطاء ومن الفوائد الغير المحللة ومن البضائع المغشوشة ومن مال الذين يحتالون على اكل مال الناس بدعوى التاخير والكسرة فلو عصرت ثيابهم الثمينة ومفارشهم الناعمة لقطر منها دم المظلومين . اعصر حلى نسائهم ومصاغهنّ وموضهنّ يقطر دم المغدورين . اعصر

حجارة قاعاتهم ورخام دورهم تراها ملطخة بدم المساكين . اعصر دفاترهم واوراقهم المزورة يقطر منها الدم . اعصر الموازين الناقصة التي يبيعون فيها والزائدة التي يشترون فيها يقطر منها الدم . ادخل تلك الخمارة واستخلص الماء من المشروبات فيقطر منها الدم . ادخل دكاكين ذوي الصنائع واعصر مصنوعاتهم المغشوشة فيقطر منها الدم . ادخل الاجزائيات واعصر الادوية الفاسدة الكاسدة والقليلة الثمن المباعة باغلى الاثمان فيقطر منها الدم . تقدم الى موائد القمرجية واعصر ما عليها من الدراهم فيقطر منها الدم . اثقب اكياس الفعلة الكسالى الذين لا يشتغلون بنشاط وياخذون اجرتهم بالحرام واعصرها فيقطر منها الدم . ادخل تلك الملاحم واعصر اللحم المزغول ومطبوخات اللوكاندات التفهة فيقطر منها الدم . واحسرتاه لو اجتمع دم المظلومين لبلغ لجم الخيل الى مدى الف وستمائة غلوة كما قال يوحنا في سفر الرؤيا (ص ١٤)

اجاركم الله من ظلم المساكين وزادكم نموًا ونجاحًا في نفوسكم وبيوتكم وخيراتكم وادامكم عضدًا وسندًا للبائسين وانالكم تلك الطوبى المعطاة للرحومين آمين

العظة العشرون

« في الملكة الرديئة »

تذكروا امرأة لوط (لوقا ص ١٧)

لما اراد الله ان يخلص لوط وعائلته من حريق صادوم امرهُ قائلاً اسرع الى جبل ساعور ولا تلتفت لتسلم فامرأته التفتت الى الوراء فانقلبت عمود ملح . التفتت نظرت جمدت . فالارض بجملتها مشتعلة بنار الخطية مثل سادوم والرب يشاء ان ينقذك من هذا الشر فيقول لك اسرع الى جبل الفضيلة المسيحية ولا تلتفت لتنظر الاباطيل التي تقتنص البشر من عيونهم كالدبق والارادة لا تسمع لذلك بل تلتفت الى الرذيلة وبالتفاتها يقبض عليها . تلتفت لتنظر ذلك الشخص فتقبض عليها الشهوة البدنية . لتري ذلك الربح فتقبض عليها محبة الفضة لتعاين ذلك المجد الباطل فتقبض عليها العظمة والكبرياء . التفتت الى الرذيلة شاهدت الرذيلة وجمدت في الرذيلة حصلت عمود ملح كامرأة لوط ثابتة في الشر غير منتقلة عنه . فتصير العادة شريعة وتغصب السلطة الذاتية المطلقة ويكون مثلها مثل ساميراميس امرأة نينوس ملك الاسيريين فهذه الملكة رغبت في ان تختبر لذة الحكم والتسلط والتمست من زوجها ان يسلمها الملك لتفرح به يوماً واحداً فقط . ففي بادئ الامر

انكر عليها نينوس هذه المنة التي طلبتها بقولهِ لا يليق ان يسلم الحكم لامرأَة ومهما طلبت غير ذلك يعطي لها بطيبة نفس فاجابت حسن قولك ولكن ليس بامر عظيم ان سلمتني اياه يومًا واحدًا (آهٍ فاي امر ولا تقدر عليهِ حيلة النساء فتضرعات المرأَة ودموعها سلاحان لا يحاربان) ولم تزل متضرعة ذارفة الدموع حتى غلبت زوجها ونالت مطلوبها وهو انها تملك السلطان كله وتفعل مهما شاءَت بشرط ان يكون ذلك يومًا واحدًا فقط . الآن هذه الامرأَة المتعظمة حالما لبست التاج على راسها ومسكت البند والعلم في يديها جلست على السدة الملوكية وضبطت ختم الملك ورات الشعوب مطيعين لامرها . اسمعوا ماذا فعلت . الامر الاول انه صدر امرها بان يوثقوا الملك نينوس رجلها المحسن اليها ويربطوا يديهِ ورجليه ويقطعوا راسهُ حالاً وهكذا كان . فيا ايها الملك التعيس الفاقد البصيرة يا ليتك لم تصدق كلام امرأَة خدَّاعة يا ليتك ما كنت تركت بنود ملكك وسلطانك في يد امرأَة متعظمة فها انت على هذه الحال قد عدمت ملكك وحياتك معًا وتلك التي التمست ان تملك يومًا واحدًا قد لبثت مالكة العمر كله . فالملك هو الارادة المطلقة والمملكة هي اعمال الانسان والعادة هي الملكة المتمردة التي متى تسلطت دفعة تتسلط العمر كله . فاذا نظرت الى ذلك الشخص دفعة واحدة ربما تسلطت عليك الشهوة البدنية عمرك كله . وانت كنت تحسب ان الخطية تمتلك ساعة واحدة يومًا واحدًا . ولكن ويحك قد قتلتك وتملكت كل الحياة . انت تمشي وفكرك مقيم في الرذيلة . تقف وشهواتك

تمشي لتجد لها غذاءً جديدًا . تتكلم وكلامك ملغزٌ فيها . تنام وفكرك فيها. وتحلها في منامك تستيقظ من النوم وهذا يكون فكرك ومقصدك هذا اليوم وهذا غدًا وهذا الى الابد الامر الذي كان ابتداؤه دفعة واحدة. مددت يدك الى السلب دفعة ولكن احسب كم تعددت افعالك حتى امتلأ بيتك من مال الحرام . فايدة فوق فايدة ظلم فوق ظلم قد سمنت بدم الفقراء والمساكين حتى جدلت لك منها سلسلة طويلة تربط ضميرك ربطًا شديدًا . دموع اليتامى ما عدت تبالي بها . تنهد المساكين وتحسراتهم لا تلين قساوتك . الحياء من الناس لا يردعك ولا يغير عادتك. الخوف من الله لا يخطر لك ببال . ما عدت تفتكر بنفسك ولا تتذكر الموت ولا تهذ بالدينونة ولا تخاف العذاب لكنك عطشان الى جمع المال كيف كان وبقدر ما تشرب يزداد فيك لهيب محبة الفضة . هذا الامر اليوم هذا غدًا هذا على الدوام وهو قد أُبتدي ان يكون دفعة واحدة

تعال الان وتامل انت تريد ان تتوب الآن ارادتك قد جمدت وتبجنت في الشر وقد ضبطتها العادة وتملكت عليها . انت تريد لكن بقصد الا تترك خطيتك السالفة تريد ان تعترف لكن لا تريد ان تصلح سيرتك فاذًا تريد ولا تريد . وهذا يدل على ان الحبال المربوط بها ترتخي قليلاً الا انها لا تنقطع . فالان حينما تسمع الوعظ يلين قلبك يسيرًا وبعد خروجك من الكنيسة يتصلب قلبك ويعود راسخًا في الرذيلة . وان بقيت هكذا يتم فيك ما قاله الروح القدس بفم ارميا النبي

ان كان الحبشي يغير الخ

فعليك ان تسرع الى التوبة . فالجرح يسهل شفاؤهُ ان لم يصر ناسورًا والاسد يسهل قتله ما دام شبلاً والشجرة تتقوم صغيرة · والرباطات تنقطع بسهولة قبل ان تجدل وتتمكن

واشرُّ الربط ثلاثة رباط الحقد ورباط محبة المال ورباط الزنا · فان كنت تريد ان تقطعها فاسمع

ان اسكندر الملك المظفر حينما قدم بجيوشهِ الى بلاد اسيا ليستولي عليها بلغ هيكل المشتري فكاهن الهيكل اراه عقدةً مجدولة بصناعة غريبة وقال له من فكَّ هذه العقدة تملك اسيا بجملتها . (اهًا ما اسهل هذه الطريقة لاخذ ملك كبير) فاسكندر اخذ تلك العقدة وشرع يتاملها من كل جهة ويقلبها بين يديهِ فلم يرَ لها اولاً ولا اخرًا لا بداءة ولا نهاية وكانت اطرافها مستترة مربوطة ربطاً شديداً يستحيل انفكاكها فعندما ضاقت به الحيل عن فكها استل سيفهُ وقال ان فككتها وان قطعتها فالامران سيان

فرباط الخطية هو متين والحصول على الملكوت السماوي موقوف على حلهِ فما اخف العمل واعظم الربح فعندما تعجز عن حلهِ بمجرد التامل والافتكار فاقطعهُ بسيف اسكندر فتكون قد تممت الشرط · فانت ماسك عقدة الحقد وتجدها مشتدة جدًّا فتقول في ذاتك ما اصعب مسامحتي لعدوي لانه حسد سعادتي واحتال على حياتي وهتر عرضي وشاني ماذا تقول الناس عني اذا غفرت لهُ . ولكن على هذا

السماح يتوقف الدخول الى ملكوت السماء فانت في حيرة لا تدري ماذا تفعل وانما ما دمت بمثل هذه الافكار لا تقدر ان تفك هذه العقدة كل ايام حياتك . السيف السيف كن حزوماً عزوماً اقطعها بسنيف كلمة الله احبوا اعداءكم وقل كما ان المسيح سامح الذين صلبوه قائلاً يا ابتاه اغفر لهم هكذا انا اغفر . وان لم اسامح غيري فانا لا أُسامح من الله وبهذا العزم تفك العقدة

مثقل الذمة بمال حرام وهذه عقدة ثانية . فتقول كيف يمكني ان اردّه وافقر بيتي واولادي واعدم مدخولي وثروتي الاَّ انهُ يلزمني ان اتوب لان ملكوت السماء في الوسط . فعند ذلك تضيق عليك محبة الفضة ضيقة شديدة تريد ان تمد يدك وهي تمنعك تريد ان ترد ما قد سلبتهُ فتحسب لك ما تبقى معك وتقللهُ بعينك فما دمت بمثل هذه الافكار لا تقدر تفك العقدة جميع ايام حياتك . السيف السيف في هذا المحل يلزمك غزم شديد ويجب ان تقول اريد ان ارد ما ليس لي والافليس لي خلاص . خير لي ان افتقر من ان اهلك نعم احب اولادي لكن احب نفسي ايضاً . واصغَ الى ما قالهُ الذهبي الفم ان شئت ان تترك الى اولادك ثروة جزيلة سلمهم لعناية الله وعلى هذه الجهة تنقطع العقدة

العقدة الثالثة وهي اشد العقد وليست عقدة بل انها سلسلة من حديد مؤلّفة من عادة مستطيلة ومعاشرات ردية فانت تريد ان تتركها لان ملكوت السماء في الوسط غير ان دموعها وكلامها وتصنعاتها لا تدعك ان تتوب . فانا اراك في هذه الحالة وانا آسف عليك . برجلٍ

واحدة تخرج وبالاخرى تلبث داخلاً تنصرف وترجع ايضاً تمقتها ثم تعود · فقلبك منقسم قسمين قسم تمتلكه تلك وقسم يمتلكه خوفك من جهنم · ومن شدة اضطراب فكرك ما عدت تعرف ماذا تفعل فانا اقول لك ماذا تفعل ولكن اريد ان اعلم مع من اتكلم . فالمريض المشرف على الموت اذا كان يشعر بالنخس يكون فيهِ امل الحياة فيجتهد الطبيب بعلاجه وان كان عديم الحس فالامل مقطوع منه فالتعب عبث هكذا حالة الخاطي اذا كان لا ينخسهُ ضميره ولا يخاف من الله ولا يستحي من الناس مقطوع الامل منهُ فالكلام ليس معه · فكلامي معك انت الذي تحس وتشعر بنخس الضمير وتخاف الله

فعشا ان تتوب ولكنك لا تدري كيف تحل هذه العقدة فاسمع ما اقوله لك والامل ان تنقطع بسيف الروح ، فعليك ان تتامل بشرف مقامك ودعوتك فانت مسيحي يجب ان تفر هارباً من الخطية التي تجرك الى العذاب الابدي وينبغي لك ان تصون حسن سمعتك وشرف نفسك · واصنع ما صنعهُ احد الملوك الذي كان تعلق قلبه بابنة تدعى ايريني حتى انهُ ترك الحرب مع الاعداء واهمل مهام المملكة جميعها فاخذت العساكر ان تتذمر منهُ خفية وتتكلم في شانهِ جهاراً اذ رأوا ملكهم الشجاع الباسل اسيراً الى ابنة كانت اسيرة فسمع الملك نفسه مداينتهم لهُ فاخذت افكاره تحاربه ويقول في نفسهِ كيف يليق لي ان اكون ملكاً وانا عبد هذه الامرأة · رغبتي تلومني وتدينني ومحبة هذه تربطني . فان ابقيتها عندي اعدم شرفي وان تركتها اعدم رغبتي ولذتي

ترى ماذا افعل وباي الامرين احكم فان بقيت افتكر بهذا لا اقدر احل العقدة · السيف السيف ومع قوله هذا استل سيفهُ وذبح تلك الفتاة المحبوبة التي ما كانت تتأمل ان يصيبها منه ضرر البتة وبعد ان صنع ذلك التفت وعلامة الغضب تتقد في وجهه وقال اني لو لم افعل هكذا لما كنت انعتقت ابدًا فلتعلم سكان الدنيا اني بمثل هذه الشجاعة أقهر المدن واغلب اميالي

بمثل هذا العزم القوي الفعال يجب ان يتدرع من اراد التخلص من حبائل عوائده ويقطع اشراك العدو بسيف التوبة الباتر ويهرب من الاسباب التي تجره الى ارتكاب الاثام ولا يلتفت الى ورائهِ مستمعًا صوت امياله لئلا يصيبه ما اصاب امرأة لوط تذكروها وارجوا النجاة من حبائل هذه الحياة الابدية وتملكوا ذلك الملك الابدي المعد لكم من قبل انشاء العالم بشفاعة من لا ترد شفاعتها وبنعمة الثالوث الاقدس الاب والابن والروح القدس امين

العظة الحادية والعشرون

« في آلام السيد المسيح »

قد شاهد العالم المسيحي في الكون اعجوبتين مذهلتين وهما الهٌ منحدرٌ من السماء ليصير انسانًا وهذا الاله المتجسد صاعدٌ على الصليب

ليموت حبًا بالانسان. فالواحدة صدرت من حكمةٍ الهية والاخرى حصلت من محبة ازلية وكلاها مكتنف من حوادث مختلفة . ففي حصول الاولى قد صنعت الخليقة كلها حفلةً عظيمة فكانت ليلة انس لم يُرَ لها نظير. ملئكة في السماء ترتل المجد لله رعاة يسرعون باذاعة بشرى الخلاص للعالم كله . مجوس من المشرق قد اقبلوا بهداياهم الثمينة وسجدوا لهذا الاله المتانس جديدًا . واما عند حصول الثانية اي عندما علق هذا الاله على الصليب بين لصين فناح العالم العلوي والسفلي · السماء حجبت وجهها بظلام حالك جدًا لان الشمس سترت انوارها بكسوفها والارض اهتزت اساساتها من الرعدة الصخور تشققت والقبور تفتحت · فليلة الاعجوبة الاولى كانت منيرة مبهجة العالم باسره واما نهار الاعجوبة الثانية فكان مظلمًا لابسًا ثياب الحداد علامة حزن شديد · في الاولى صنع الله الى الانسان احسانًا غريبًا وفي الثانية صنع الانسان الى الله شرورًا لم يسمع بمثلها · الله بيده اخذ من تراب الارض وجبل الانسان ونفخ فيهِ نسمة الحياة وشرفهُ بصورتهِ والانسان بيده جعل الاله مخضبًا بدمائه مجرحًا من الراس الى القدم معلقًا على الصليب ليس له صورة ولا جمال بل عادمًا نسمة الحياة . الله كلل الانسان بالمجد كقول داود النبي بالمجد والكرامة كللته (مزمور ٨) والانسان كلل الاله بالشوك · الله سلط الانسان على جميع المخلوقات وعلى اعمال يديك سلطتهُ (فيهِ) والانسان عرّى الاله من كل شيءٍ . الله كمل بالانسان احساناته كلها والانسان كمل بالاله شروره باسرها · محبةٌ من الله للانسان غير متناهية

وبغضةٌ من الانسان لله غير محدودة . فالله مات ليحيينا واما نحن فنحيا لنجدد سبب موته وهذا موضوع الخطاب . . .

قال يوحنا الحبيب (في ص ١٥ من بشارتهِ) ما من حبٍ اعظم من هذا وهوان يبذل الانسان نفسهُ عن احبائهِ . نرى من المحبين من يبذل مالهُ عمن يحبهُ اظهارًا لمودته لهُ . ومنهم من يعبّد ذاتهُ للخدمة بيانًا لمحبتهِ كما صنع يعقوب اب الاسباط الذي خدم خاله لابان اربع عشرة سنة حبًا براحيل . ومنهم من يقدم لمحبه ما كان عزيزًا وضروريًا كما قدم يوناتان سلاحه لداود صديقهِ وكما اعطى ايليا وشاحه لتلميذه اليشاع . ومنهم من يقدم ذاتهُ للسجن بدلاً من صديقه او اخيه كما صنع يهودا بن يعقوب واراد ان يكون عبدًا في بيت فرعون عوضًا عن اخيه بنيامين (تكوين ص ٤٤) وقد يقدم الانسان ابنهُ اكرامًا لمن يحبه كما صنع ابرهيم لما قصد ان يقدم ابنه اسحق ضحية لله على جبل الاموريين ولكن لم نسمع قط ان احدًا قدم ذاتهُ للموت عمن يحبهُ الاّ سيدنا يسوع المسيح ابن الله المتجسد الذي مات عنا جميعًا . هل من حب اعظم من هذا نعم يوجد حبٌ اعظم من هذا وهوان يبذل الانسان نفسهُ عن اعدائهِ . هذا ما بلغ اليه حب فادينا ومخلصنا يسوع لانهُ احبنا حينما كنا اعداءهُ كما قال الرسول واذ كنا خطاة مات المسيح عنا (رومية ص ٥ ع ٨) ليفي ما علينا من الديون للعدل الالهي ويرد لنا حق الوراثة في الفردوس السماوي الذي كنا خسرناه بالخطية الامر الذي لا يقدر عليهِ احد من سائر المخلوقات . لان كل مخلوق هو متناهٍ وشر الخطية الذي حرّك الله

للسخط علينا هو غير متناهٍ فاقتضى ان ابن الله الذي هو اله وانسان يتكفل
بهذا الوفاء . ولهذا قد احتمل من الاهانات اشدها ومن العذابات
امرّها ومن الاحزان اعمقها . يداهُ ورجلاهُ ثقبت وسمرت بمسامير حادة
كقوله بلسان داود النبي ثقبوا يديّ ورجليّ (مزمور ٢١ ع ١٧)
ورأسهُ قد انغرس فيه اكليل من شوك . وجههُ تلطخ بالبصاق . وعيناه
غطاهما الدم القاطر من رأسهِ المكلل واذناهُ آلمها كلام الهزء والسخرية
والتجاديف . فمهُ تالم بالخل والمرارة وخداه باللطم وشعر راسه ولحيته
بالنتف ورقبته بثقل الاغلال ورجلاه بالعثرات ومصادمات الصخور
وذراعاهُ بشد الحبال عروقهُ تقطعت ولحمانه انتثرت بقساوة الجلد
واعضاؤه تخلعت وتفككت . وظهره انحنى من ثقل الصليب جنبه فتح
بالحربة هذا ما احتملهُ في جسده الشريف اللطيف جدًا . فترى كم
يكون ما احتملهُ في نفسهِ من شديد الحزن حيث قال نفسي حزينة
حتى الموت (متى ص ٢٦ ع ٣٨) . قال احد القديسين مخاطبًا السيد
المسيح يا سيدي من ذا الذي جعلك ان تحمل مثل هذه الآلام الفادحة
المحبة ام الجنون . واجاب ذاته بذاتهِ قائلاً المحبة والجنون معًا . فالمحبة هي
محبتك والجنون هو جنوني . المحبة هي التي جعلتك ان تسفك دمك
لتنظف ادران خطايانا وتشفي برص انفسنا وترجع لنا حق الوراثة
بالاشتراك مع الملائكة في السعادة السماوية والجنون هو الذي يجعلني ان
اجدد صلبك بارتكاب افظع الآثام . فيالهُ من نكران جميل تأباه الوحوش
الكواسر مع من يحسن اليها . لقد ذكر الكتاب المقدس في سفر

اللاويين (ص١٤) ان الابرص كان يمكث مبتعدًا خارجًا عن معسكر الشعب الى ان يتقدم اليه الكاهن ومعهُ عصفوران حيان طاهران وعود ارز ويذبح العصفور الواحد ويرش من دمهِ على الابرص سبع مرات فيطهر ويطلق العصفور الحي. فالابرص هو رسم الجنس البشري المعترى ببرص الخطية والمطرود من الفردوس والكاهن هو يسوع عظيم الاحبار والعصفوران هما الطبيعة اللاهوتية والناسوتية وعود الارز هو عود الصليب. فالعصفور الاول اطلق سالمًا لانه لم يتألم بالطبيعة الالهية وانما ذبح العصفور الثاني اعني الناسوت على عود الصليب وبرشاش دمهِ طهرنا من برص الخطية. وقد ذكر ايضًا في سفر العدد (ص ٣٥) ان القاتل الهارب لم يكن مباحًا لهُ الرجوع الى وطنهِ الا بعد موت عظيم الاحبار فهكذا آدم وذريته القاتل نفسه بخطيتهِ الهارب من وجه الله فلم يتيسر لهُ العود الى وطنهِ السماوي الاَّ بعد موت يسوع المسيح عظيم الاحبار. هذا الذي نقض السياج وهدم الحائط الحاجز بيننا وبين الله ووفى ديوننا بدمهِ الذي سفكهُ في آلامهِ. قيل عن حجر الماس انهُ قاسٍ جدًا لا يلين بالمطارق الحديدية ولكن مع صلابتهِ هذه تلينهُ قطرة سخنة من دم الحمل كذا كان بيننا وبين الله حائط مبني من صخور الآثام الفظيعة وحجارة العثرة الشديدة الصلابة ولم يكن لاحد قدرة على هدمهِ ونقضهِ الا بدم الحمل الالهي

ليت شعري ماذا اصنع. هل اتعجب مما صنعهُ الله الى الانسان ام اوبخ صنيع الانسان مع الله. فانا انوح على الاثنين انوح على الاله

المتألم بالجسد وعلى الانسان المتجاسر فعندما ابكي على آلام المسيح القاسية ابكي ايضاً على مسببها واذ أُحصي جراح المسيح تستحضر امامي تلك الايدي التي سببتها وحينما انظر المصلوب اشاهد حالاً الصالبين . ولدى تأملي بالمقتول ارى القاتل الخائن الذي هو الخاطي

ذكر في الكتاب المقدس (تثنية الاشتراع ص ٢١) انه اذا وجد قتيل مطروح لا يعرف من قتلهُ فكان شيوخ شعب المكان الاقرب الى القتيل ياخذون عجلة من البقر لم يحرث عليها ويهبطون بها واديًا وعرًا لم يفلح ولم يزرع ويكسرون عنقها في الوادي ويغسلون ايديهم على العجلة المكسورة العنق بحضور الكهنة بني لاوي قائلين ان ايدينا لم تسفك هذا الدم وعيوننا لم ترَ . هوذا القتيل مخضب بالدم مطروح على الصليب وقاتله غير معروف فمن يقدر ان يغسل يديه ويبرز اليمين قائلاً يدي لم تسفك هذا الدم وعيني لم ترَ . أَتقدر ان تبرر نفسك ايها الشاتم الدين انك ما قتلته بلسانك وطعنت جنبه بالفاظك السمجة اتقدر ان تبرّر نفسك ايها المبغض الحقود انك ما قتلته باصرارك على العداوة وعدم مصالحتك لقريبك . اتستطيع ان تبرّئ نفسك ايها السالب مال قريبك انك ما سمرت يديه ببسط يدك للسلب والنهب والضرب . اتقدر ان تزكي نفسك ايها الدنس السيرة انك ما قتلته باقتراف المآثم ما سمرت رجليه بذهابك الى ذاك المكان المملو ارجاسًا ما جلدته على العمود بتسليم جسدك للذات المحرمة . اتقدرين ان تبرّري نفسكِ ايتها الامرأة انكِ ما قتلتِ المسيح بفحش شرورِكِ ما عريتِ مخاصكِ

بعدم حشمتك وسقيته المرارة بلسانك المرّ . نعم يا يسوع اننا نقر
معترفين بذنوبنا التي اقترفناها امامك وبها جددنا آلامك لكن
رحمتك عظيمة اغفر لنا ما اهنّاك به ونعدك اننا ما عدنا نرجع الى آثامنا
السالفة . لا تعاملنا بشريعة العدل التي كنت تعامل بها الشعب القديم
وهي ان القاتل يقتل فنحن قتلناك فنرجو ان دمك المسفوك لاجلنا يقينا
من القتل الابدي . فقد ذكر في سفر الخروج (ص ١٢) انه لما نزل
الملاك وقتل ابكار المصريين كان يتجاوز كل بيت مرشوشة ابوابه بدم
الحمل بدون ان يقتل من فيه من الابكار. فانت هو الحمل البري
من العيب وابواب قلوبنا مرشوشة بدمك فرجاؤنا ان نتطهر بهذا الدم
وننجو من الهلاك الابدي . فعلينا ان نتامل بآلام المخلص ونحزن
باكين على ذنوبنا التي سببت هذه الآلام الشديدة . وكل نفس لا تحزن
متواضعة بهذا اليوم تهلك تلك النفس من شعبها (احبار ص ٢٣ ع ٢٩)
قد حظي ايوب بثلاثة اصدقاء في حال بلواه قد شاركوه بالحزن ومزقوا
ثيابهم تاسفًا على مصابه وثبتوا معهُ سبعة ايام وسبع ليال جاثين ببكاء على
الحضيض ساهرين باكين ناثرين الرماد على رؤوسهم بتفاقم الحزن
مع انهم لم يكونوا سبب بلائه فكم احرى بنا نحن المومنين ان نمزق قلوبنا
متاسفين من ذنوبنا التي سببت مثل هذه الآلام لفادينا ونصرف سبعة
ايام وسبع ليال هذه السبة المفروضة من الكنيسة المقدسة للتامل بما
احتمله سيدنا يسوع المسيح حبًا لنا ونتمم ما كان مفروضًا على الابرص
بعد طهره اذ كان يقيم خارج خيمته سبعة ايام ويغسل ثيابه وبدنه

بالماء ويحلق جميع شعر راسهِ ولحينه وحواجب عينيه هكذا يلزمنا ان نقيم سبعة ايام هذه السبعة في الكنائس للصلوات والتاملات ونغسل نفوسنا من ادرانها بدموع التوبة ونقطع بموس التامل بالآم المسيح شعور عوائدنا الردية لنستحق الرجوع الى وطننا الذي كنا نُفينا منه

فعلينا ان نحيا ما بقي لنا من العمر لمن افتدانا لا بذهب وفضة بل بدمهِ الثمين. لانه اذا افتدي اسير بفضة وذهب فالفضل للارض التي اخرجت من جوفها ثمن فدائهِ لا للمفتدي كونه لم يدفع عنه شيئاً من جوهره واما ابن الله فلم يشأ في امر افتدائنا ان يدفع شيئاً خارجاً عن ذاتهِ ليكون الانسان مديوناً له وحده لانه هو الفادي وثمن الفدى معاً فنحن اذاً ملك للمسيح بنوع خاص حيث اشترانا بدمهِ فلهُ ان يتصرف بنا كما يحب. فان احببت ان تخطأ اطلب يداً غير يدك ورجلاً غير رجلك لان يديك ورجليك قد اشتراها السيد المسيح بتسمير يديه ورجليه على الصليب وان اردت ان تسلم قلبك الى محبة ردية فاطلب قلباً اخر غير قلبك لانه اشتراه بالدم الذي خرج من قلبهِ الاقدس المطعون بالحربة. وان شئت ان تطلق لسانك لشتم الدين وللالفاظ السمجة وهتك عرض القريب اطلب لساناً لا يكون اشتراه المسيح بشربهِ الخل والمرارة وان رمت ان ترفع راسك بالكبرياء والعجرفة اطلب راساً لا يكون اشتراه المسيح بتكليل راسهِ بالشوك . فان الشرائع باسرها لا تبيح لاحد ان يختلس من آخر ما اشتراه بدرهمهِ . فكيف يباح لك ان تختلس من السيد المسيح ما اشتراه بدمهِ وتتصرف بهِ ضد ارادتهِ القدوسة

فنسالك اللهمّ ان تحفظ حواسنا من كل خطية وتطبع فيها ذكر آلامك المنقذة لنهذبها دائمًا فنعيش ونموت برضاك يا ارحم الراحمين امين

العظة الثانية والعشرون

« في آلام السيد المسيح ايضًا »

قال اشعيا النبي هلموا نصعد الى جبل الرب هو يعلمنا طرقهُ فنسلك في سبله (ص ٢ ع ٣)

جولوا بافكاركم في براري الموابيين واصعدوا جبالها تنظروا هناك مشهدًا غريبًا لم يرَ لهُ نظير في الاجيال القديمة . هناك تشاهدون ثلاثة ملوك وهم ارام ملك اسرائيل . ويوشافاط ملك يهودا . وملك ادوم قد جهزوا جيوشهم الجرارة الكثيرة العدد ضد ملك مواب فهدموا المدن واحرقوا القرى وقطعوا اشجارها وردموا ينابيعها ولم يبقوا الاَّ الحجارة وحاصروا الملك في عاصمة ملكهِ . فلما راى هذا الملك قساوة اعدائهِ وضنك شعبهِ وضاق بهِ الامر من كل جهة حيث لم يعد لهُ امل بالفوز بوسائط بشرية لجأَ الى الههِ (وكان يعبد الشمس) وهتف قائلاً قفي يا ايتها الشمس واثبتي في مكانك تنظري امرًا غريبًا ما نظرتهِ من قبل وزيدي اشعتك ليرى اعدائي ما انا صانعهُ . فها انني اقدم لكِ ابني وليّ العهد اذ لم يكن لديَّ اعز من بكري والذي حملني على تضحيتهِ

هو بغض اعدائي ومحبتي لشعبي . وارسلي لي النصرة بدلاً عن هذه التقدمة .
واخذ ابنه بيده الواحدة والسيف بيده الاخرى وصعد بهِ اعلى السور
برأى من شعبهِ الذي شيعهُ بدموع ذارفة ووجوه كاسفة وقلوب آسفة
على موت هذا الابن وعلى ما ألمّ بامه من الانكسار وتفتت كبدها وعظم
مصابها . واذ بلغ الملك الى اعلى سور المدينة التفت الى ولده وقال لهُ
اقبل هذا الموت ياولدي قبل اوانه اقبلهُ من يد ابيك القاسية ولكن
اعلم اني اكون انا وانت كلانا تقدمة تامة ومحرقة كاملة . اما انت
فمذبوح من يد ابيك . واما انا فمذبوح من ألمي وحزني وتحقق يا ابني ان
بموتك نجاة لشعبك وشرفاً لمملكتك وخزياً لاعدائك . وليعلم اعدائي
من قد صار خصماً لهم اذا كنت اصنع هكذا بابني وانا راضٍ عنهُ فماذا
اصنع بهم وكيف يكون سخطي عليهم . سوف اخضب سيفي بدمائهم واتمم
غضبي فيهم فتقبّلي ايتها الشمس هذا الابن مذبوحاً من ابيهِ . وحينئذٍ
انتضى ذلك السيف وذبح ابنهُ البكر وليَّ عهده واصعده محرقةً على
السور فحنق اعداؤه حنقاً شديداً وانصرفوا عنهُ ورجعوا الى ارضهم
(ملوك ٤ ص ٣ ع ٢٧) نعم ان تصرّف هذا الملك البربري لا يليق
ان يقابل بتصرّف الرحمة ولكن قد يمكننا استخدامه لنعرف شدة غيظهِ
تعالى من الخطية وكيف انه لم يشفق على ابنهِ بل اسلمهُ عن جميعنا
(رومية ص ٨ ع ٣٢) وكيف ان الابن احتمل من الآلام اقساها ومن
الاهانات اعظمها كما ابين ذلك بقسمين الاول يحتوي ما نال السيد
المسيح من الآلام وفي الثاني اوضح وجوب التامل بهذه الآلام . ولكن

من لي بان يعين ضعفي والى من التجئ فان لجأت الى الاب فاراه
مسخطًا من أثامنا وان لجأت الى الابن فاراه غريقًا في بحر آلامهِ وان
استعنت بالروح القدس فارى اننا قد احزناه بجرائرنا . وان توسلت
الى مريم فاراها غائصة في بحر من الاحزان فان حييتها بالسلام كمألوف
عادتي فتجيبني من اين لي السلام وانا متقلبة فيما بين تيارات الاوجاع
والغم . ارى الملائكة في ذهول والسماء محجوبة بظلام الحزن على
موت باريها والارض مضطربة وصخورها مشققة وقبورها مفتحة
والكنيسة لابسة ثوب الحداد . كهنتها متنهدون وعذاراها متحسرات وهي
في مرارة (مراثي ص ١ ع٤) فليس لي معين سواك يا ايها الصليب
المقدس . فاحييك بالسلام قائلاً السلام عليك ياشجرة الحياة الذي يحيا
من يتناول من ثمرتك السلام عليك ايها الصليب المقدس يا كرسي
النعمة الذي استراح عليك يسوع في مثل هذا اليوم من أتعاب آلامه
وذبح في وسطك سكران من خمر المحبة وانقذ العالم بدمهِ فانرنا يا منير
المظلمين واجعلنا ان نستفيد من ذكر آلام مخلصنا الفوائد والاثمار
المرغوبة منهُ تعالى

القسم الاول

هلموا نصعد الى جبل الرب جبل الجلجلة في اورشليم وهناك
تشاهدون امرًا اغرب واعجب من المنظر الذي نظرتموه في ارض
الموابيين . تنظرون لوسيفورس و بيلاطوس وقايافا قد اعدوا عساكرهم
الجرارة وجنودهم القساة واستعدوا لمحاربة ملك الملوك ورب الارباب

وضيقوا على مملكتهِ اسروها بالخطية وسجنوها بسجن الآثام . وقطعوا عنها ينابيع النعم ولوسيفورس احد هولاء الثلاثة اركون هذا العالم الذي كان قد بلبل الملائكة وخرب الفردوس الارضي وسبب حريق سادوم وعاموره وهيج الخطاة حتى نشروا اشعيا النبي وطرحوا ارميا في الجب وقتلوا ذكريا بين الهيكل والمذبح قد حرك جميع ملوك الارض حتى قاموا على الرب وعلى مسيحهِ (مزمور ٢) فاراد الله ان يستظهر عليهم وينقذ النفوس من اسرهم ويخزي تمردهم بعمل غريب وهو انهُ شاء ان ابنه البكر يكابد الامًا واوجاعًا لم يكابدها احد قط ويقدم ذاتهُ محرقة تامة عن جميع الناس فوق جبل الجلجلة بمرأى ومسمع جميع المخلوقات . فهنا اهتف مع ابن نون قائلاً قفي ايتها الشمس في جبعون . واثبت يا ايها القمر في وادي ايالون (ص ١٠ع ١٢) لا لتنظرا محاربة يشوع مع العمالقة بل لتشاهدا محاربة يسوع مع الخطية والعالم والابالسة اثبت ايها القمر في وادي قدرون لترى فادي العالم غارقًا في بحرٍ من الاحزان ليغرق بعرقهِ الدموي جيوش الخطايا الكثيرة . اثبت لترى اضطرابهُ وقلقهُ من تصوره كثرة الذنوب والمآثم التي صدرت وتصدر من البشر ليوم القيامة وقلة المستفيدين من الامه وخيانة احد تلاميذه الذي كان قد اتخذه امينًا لهُ وسلمه صندوق النفقة وهو يسلمهُ للموت . وكم حاق بهِ من الحزن والغم حين رأى ذاتهُ مهملاً من الجميع . يهوذا اسلمهُ بيد الجند القساة طمعًا بثلاثين من الفضة . بطرس انكره خوفًا من بوابة حقيرة . يوحنا فرَّ هاربًا . وسائر تلاميذه تشتتوا تحت كل كوكب .

واتفق على قتلهِ الوثنيون واليهود والكهنة والقضاة والجنود والشبان والشيوخ والاحداث. وقد زاد حزنهُ حزنًا نكران الجميل لان الكهنة الذين كان يحافظ على اكرامهم والولاة الذين كان يعتبرهم وينذر بوجوب الطاعة لهم بقوله اعطوا مال قيصر لقيصر كانوا هم الاولين في احتقاره واهانتهِ. والمرضى الذين اشفاهم كانوا مجدين على صلبه. وتلك اليد اليابسة التي ابراها كانت تلطمهُ على خده وذلك المخلع الذي اشفاه قائلاً قم احمل سريرك وامشِ قام يرفصه برجلهِ. وذاك اللسان الذي كان معتقلاً وحلّه من عقاله انطلق يشتمهُ مجدفًا عليه تافلاً في وجهه والذين اشبعهم من الخبز في البرية لم يشبعوا من تعييره. والذين سقاهم الخمر الجيد في عرس قانا الجليل سقوهُ الخل والمرارة. ولهذا كان يشكو بفم النبي داود قائلاً جازوني بدل الخير شرًّا وبغضًا بدل حبي لهم (مزمور ٣٤ ع ١٢ و ١٠٨ ع ٥). اثبت ايها القمر فوق بستان الزيتون لترى جمًا غفيرًا قدموا اليهِ بسيوف وعصيٍّ من قبل روساء الكهنة وشيوخ الشعب جمًا قُدّت قلوبهم من جلامد الصخور. وقطعت جباههم من اقسى الحديد قومًا كانهم غذوا بلبان الوحوش. وتربوا في مرابض النمورة قد وثبوا عليهِ وثبة الذئاب على الحمل واوثقوه بالحبال كأنهُ لص وقاتل وجرّوه بعنف شديد. نعم ان يوسف بن يعقوب بيع من اخوتهِ بغضًا وحسدًا وأُوثق بالحبال وانتشل من الجب ولكن بيع لا ليموت بل لينجو من الموت لان اخاه يهودا نجاه بقولهِ لاخوته ما المنفعة من قتلهِ تعالوا نبيعهُ (تكوين ص ٣٧) ولكن انت ياسيدي كان بيعك وسبب

موتك يهودا الذي اتخذته اخًا لك

ففي ايتها الشمس فوق اورشليم حيث تصبُّ على خالقك سيولٌ من العذاب المرّ وانظري ايدي ذاك الشعب مخضبة بدماء ابن الله الدماء الهاطلة من جراحه المقدسة اذ كانوا يجلدونه مربوطًا على العمود ويكللونهُ لا باكليلٍ من زهور بل باكليل من شوك خرق في راسهِ حتى الدماغ نعم لقد شاهدتِ ايتها الشمس سلوفوش الملك مهشماً عريانًا مطروحًا على الحضيض جائعًا مدنفًا يرتجف من البرد غير انكِ قد شاهدتِ ايضًا اعداءه انفسهم الذين كانوا قد نفوه من مملكته رقّوا لمصابه ورأفوا به ورجعوه الى ملكهِ. واما يسوع ملك السماء والارض فلم يوجد من يرحمه ولا من يرثي لحالهِ. وقد عاينتِ اسحق ماخوذًا الى جبل الاموريين ليقدم ذبيحة محرقة على حطبٍ كان حملهُ على منكبيه ولكن نظرتِ ذلك الكبش الذي قُدّم عوضًا عنه فنجا من الذبح. والان نرى اسحق الحقيقي ابن الله حاملاً على منكبيه الصليب المعد ليقدم عليهِ ذاته ذبيحة فوق جبل الجلجلة مسوقًا من قومٍ قساة ليس للشفقة اثر في قلوبهم يجرونهُ على الارض كحملٍ سيق الى الذبح وما من كبشٍ يفتديه. اسحق لم يحمل الحطب الا مسافة قليلة ولم يكن من يراه الا ابرهيم ابوه. اما يسوع فقد حمل صليبهُ مسافة طويلة امام جم غفير يزدرونه شامتين ويرفسونهُ بارجلهم ويلطمونه بايديهم. اسحق لم يلتقِ بامه ساره اذ كان صاعدًا الى الجبل اما المسيح فقد التقى بمريم امه في طريق الجلجلة فزاد حزنًا لحزنها والمًا لالمها. اسحق لم يحمل الحطب

منهوكاً من سهر الليل ولا مجرَّح الجسم من الراس الى القدم ولا كان اريق اكثر دمه من الجلد كما كان جرى بيسوع . اسحق لم يكن عالماً بما يكون من صعوده لذلك الجبل بدليل قولهِ يا ابتِ هذه النار والحطب فاين الحمل للمحرقة (تكوين ص ٢٢ ع ٧) اما يسوع منقذنا فكان عارفاً ومتحققاً كل ما كان مقبلاً عليهِ بالتدقيق كما شهد يوحنا الانجيلي قائلاً وكان يسوع عالماً بكل شيء ياتي عليه (ص ١٨ ع ٤)

تعالوا نصعد الى جبل الرب فنرى هناك نوحاً ثانياً قد سكر من خمرة الحب وتعرى تعالوا واستروا بثوب المحبة كما صنع سام ويافث ابنا نوح اللذان غطيا اباهما . واذرفوا الدموع الغزيرة من العيون حتى لا تبصر يسوع عرياناً ممتداً على الصليب ها ان الشمس حجبت انوارها لئلا ترى الخليقة عري باريها فحدث ظلمة على الارض كلها من الساعة السادسة الى الساعة التاسعة كما قال لوقا البشير (ص ٢٣ ع ٤٤) فاي قلب لا يتمزق حزناً عند ما يتامل ما ذاقهُ يسوع من شدة الاوجاع ومر الالام وذلك حينما نزعوا عنهُ ثيابهُ اللاصقة من الدم بجسمهِ اللطيف وبهذا تفتحت جراحاته وانسلخ جلده واي عين لا تهطل الدموع السخينة عندما تشاهد ذلك الجندي الجهني يجذب بعنف شديدٍ يد المسيح لتصل الى موضع التسمير في الخشبة وبهذا الجذب تقطعت شريانات قلبهِ . مَن مِن البشر لا تتفتت كبده حينما يسمع فاديه في الساعة الاخيرة يطلب قطرة من الماء بقولهِ انا عطشان ولا يوجد ذو شفقة يقدمها لهُ . اين انتِ يا مريم هوذا ابنك على سرير الموت يسأل

قطرة ماء الا تعلمين ان لسانهُ جفَّ وكبده احترقت ومتلهف الى ما يبرّد غليلهُ أما سمعتِهِ يقول انا عطشان . قدمي لهُ كاس ماء بارد فهذه المرة الاخيرة التي بعدها لا يطالب منكِ الماء اسرعي قبل ان يموت . فمريم تقول آهًا ويجي من ابن لي المياه في هذا الجبل فليس عندي سوى دموعي ومع ذلك كيف اتوصل اليك يا ولدي وانت معاق على صليب عالٍ من يعطيني جناحي حمامة فاطير اليك واسقيك من عبرات عيني واسترك بثوبي . واسندك على ذراعي واموت معك على هذا الصليب . نعم اني انا وانت كلانا تقدمة تامة ومحرقة كاملة اما انت فمضحى بسماح ابيك السماوي . واما انا فمذبوحة من ألمي وحزني . فاقبل هذا الموت ياولدي اقبلهُ من يد هولاء القساة لان بموتك نجاة لشعبك وشرفًا لمملكتك وخزيًا لاعدائك الجهنميين . وعند قولها هذا نادى يسوع بصوت عظيم قائلاً يا ابتِ في يديك استودع روحي ولما قال هذا اسلم الروح واذا حجاب الهيكل قد انشقَّ اثنين من فوق الى اسفل والارض تزلزلت والصخور تشققت والقبور تفتحت وقام كثير من اجساد القديسين الراقدين . وكل الجموع الذين كانوا مجتمعين على هذا المنظر لما عاينوا ما حدث رجعوا وهم يقرعون صدورهم (متى ص ٢٣)

القسم الثاني

هلموا نصعد الى جبل الرب هو يعلمنا طرقهُ فنسلك في سبلهِ .

هوذا مدرسة عمومية في جبل الجلجلة مفتوحة ابوابها لجميع الطلبة

الراغبين في اكتساب العلم الحقيقي المتضمن فيه جميع العلوم وكل علم دونهُ باطل لا منفعة فيهِ والمعلم الماهر والاستاذ الفصيح هو يسوع جالس على منبر التعليم منبر الصليب يهتف قائلاً تعلموا مني الزهد في الدنيا واباطيلها لاني لم اتخذ لي موضعاً اسند اليه راسي لا في مولدي ولا في حياتي ولا عند موتي فقد استعرت المغارة من رعاة المواشي ودكان النجارة من يوسف بن داود والقبر من يوسف الرامي . تعلموا مني الصبر على الاتعاب الشاقة والآلام القاسية واحتمال الاهانات والشتائم والتعبير . لُقّبتُ باركون الشياطين وانا ابن الله دُعيت سامريًّا وانا ابن داود الملك . أُتهمت باني خليل الخطاة والعشارين وانا قدوس القديسين . عُرّيت من ثيابي وانا كاسي البرايا . كاسي الطيور بريشها والحيوانات بصوفها وشعرها وكاسي الارض بنباتها واعشابها والاشجار باوراقها . سُقيت الخل الممزوج بمرارة . وانا حليت لهم مياه مران فصارت عذبة (خروج ص ١٥ ع ٢٥) . اقمت لهم الاموات فاماتوني مصلوبًا بين لصين . هذا كلهُ صنعوه بي وانا سامحتهم بقولي يا ابتِ اغفر لهم (لوقا ص ٢٣ ع ٣٤) . فتعلموا مني ان تغفروا لاعدائكم ولمن اهانكم

قد ذكر في الكتاب المقدس عن احشوروش الملك انهُ كان ساهرًا في الليل يقرأُ ما كان قد دوّنهُ فيما بين تواريخهِ من عمل مردخاي اليهودي الذي انقذه من الموت باخباره اياه عن بغتان وتارش اللذين قصدا ان يلقيا ايديهما على الملك . هكذا يجب عليك ايها المسيحي ان تصرف لياليك بملازمة الدرس والهذيذ في مصحفك الخلاصي مرددًا

في ذهنك ما نلتهُ من مردخاي الحقيقي الصادق يسوع المسيح بانقاذه اياك من الموت الابدي. مردخاي خلص الملك من موت الجسد فقط. اما المسيح فقد استفكنا من موت النفس والجسد في جهنم. مردخاي لم يتكلف لنجاة الملك احشوروش من الموت الا الكلام فقط اذ اخبره بما سيكون من الغدر به. واما السيد المسيح فقد بذل كرامتهُ وحياته محتملاً اشد العذاب وامرّه. مردخاي لم يسفك قطرة من دمهِ ولا دمعة من عينهِ عن احشوروش ولكن فادينا يسوع المسيح بذل حياته وسفك كل دمهِ الثمين لاجل خلاصنا. فيقتضي ان تسطر في تواريخ نفسك الاعمال العظيمة والمنن الجليلة الوسيمة التي منَّ بها عليك ابن الله ونجاك من مكر بغتان الجهنمي وغش تاراش الخداع. ومحا صك ذنوبك بذاك العرق الدموي وفتح لك باب السماء بانفتاح جنبه بالحربة. ودفن اصنام عوائدك تحت تلك الشجرة شجرة الصليب وغلق دونك باب الجحيم بغلق فمهِ مائتًا بين لصين. بماذا نكافي الرب عن كل ما اعطانا وصنعهُ معنا. احشوروش كافى مردخاي واكرمهُ اكرامًا عظيماً اذ ألبسهُ ثيابه وتوَّجه بتاج الملك ونُودي امامهُ في ساحات المدينة هذا اكرام من يريد الملك اكرامهُ. فليس لنا ثياب ملوكية نلبسهُ اياها ويا ليتنا ابقينا لهُ ثيابه. بل نسمعهُ يتشكى قائلاً بفم داود اقتسموا ثيابي بينهم (مزمور ٢١) وليس لنا تاج الملك نتوجه به ولكن حسبهُ ان لا نكلل راسهُ بالشوك بتجديد ذنوبنا. فكل ما يطلبهُ منا مكافاة عن آلامهِ الشديدة وموتهِ المرّ ان نتذكر آلامهُ وما قاساهُ

حبًا بنا ونحبه كما احبنا . فالحب يكافى بالحب هذا هو الثوب الثمين الذي يريد ان نلبسهُ اياهُ. ونتمم محبته بحفظ ناموسهِ واتمام وصاياه ونعمل بما علمنا اياه على ذلك الجبل اذ كان جالسًا على منبر الصليب مخاطبًا كلاً منا بما خاطب به موسى الكليم عند نزولهِ من الجبل قائلاً له اصنع على الشبه الذي اريتك في الجبل (خروج ص ٢٥ ع ٤٠) امنحنا يا فادينا ان نصنع كل ما يرضيك . أريتنا ذاتك حاملاً الصليب الثقيل فاجعلنا ان نحمل صليب التجارب والمصائب بجميل الصبر. أريتنا رأسك مكللاً بالشوك لئلا تنتفخ روسنا بالكبريا والتعظم . اريتنا لسانك جافًا من حدة المرارة لئلا تنطلق السنتنا الى كلام المجون والشتائم واللعنات . اريتنا جنودًا راجعين يقرعون صدورهم نائحين متخشعين هب لنا نعمة التوبة الصادقة ودموع الخشوع نظيرهم والذي لا يستفيد من تعليمك خير لهُ لو لم يولد فانهُ يكون قلبهُ اقسى من الصخور التي تصدعت فاضربهُ ياسيدي بعصا صليبك . اذا كان موسى اخرج المياه من صخرة صلدة بواسطة تلك العصا فانت يا الهي هو رب موسى وانت الذي امرتهُ بان يضرب الصخرة انت اجرِ الدموع من عينيه واذا كان يوجد من لا يريد ان يبكي على خطاياه التي سببت موتك سوف يبكي بكاء بدون انقطاع في تلك اللجة الجهنمية . وانتِ يا مريم الحزينة اجعلينا ان نحزن معكِ على موت وحيدك راجين ان تستمدي لنا منهُ مغفرة خطايانا وان نطبع ذكر الامهِ على صفحات قلوبنا وان لا ننسى احزانكِ الشديدة متذكرين رمح الحزن الذي غاص في قلبكِ

الطاهر آملين الحصول على نعمة الثبات لآخر حياتنا باستحقاقات الام مخلصنا واحزانكِ امين

العظة الثالثة والعشرون

« في لزوم استماع كلام الله »

قال الحكيم انك انت يا الله صنعت كل شيء بكلمتك
(سفر الحكمة ص ٩)

ان الله بكلمتهِ المتجسد خلقنا وبكلمتهِ الالهية يصلحنا ويردنا الى حال البر. بكلمتهِ يرد الخطاة الى التوبة وبها يثبت الابرار في برهم. بكلمتهِ ينير العقل ويزيل عنهُ ظلام الجهل وبها يقوي الارادة على عمل الصلاح ويشدد تراخيها. كلمتهُ الالهية تصلح جميع النقائص الموروثة التي تبقى في الطبيعة الساقطة وتمحو منا صورة آدم الانسان العتيق وتصور فينا صورة المسيح الانسان الجديد ومن هنا ينتج التزامنا الشديد باستماع كلام الله ووجوب الاصغاء اليه والعمل بموجبهِ. كما سنبين ذلك وقبل الشروع ...

ان الله جمع في الانسان جزئين متضادين وهما الروح والمادة وجعل الاتحاد والاتفاق بينهما غير ان الخطية الاصلية بلبلت هذا

النظام وصيرت الجسد يتمرّد على النفس وصار يلزمنا اغتصاب متصل لاتمام ما يجب علينا من عمل البر وحفظ النواميس . فالمعمودية تمحو الخطية الاصلية غير انها لا تزيل ما بنا من الجهل والميل نحو الشر . وما مثلنا الاَّ مثلُ طفل كان يلعب مع اقرانهِ فعثر وسقط في حمأَة قذرة فانصدعت رجلهُ وتلطخ ثوبه في الوحل فتبادر والدته لانهاضهِ وتنظيفهِ وتلبسهُ ثوبًا جديدًا نقيًا الا انها لا تستطيع ان تشفي جراحه وترأَب صدعه فالطفل لا يزال يجمع ويستحيل عليهِ ان يخطو خطوة من دون مسند . كذا نحن قد سقطنا بآدم في حمأَة الخطية فالكنيسة امنا ترفعنا من هذه السقطة بالمعمودية وتغسلنا من ادران الخطية وتلبسنا ثوب البر غير انها لا تصلح كل الضرر بل يبقى فينا الضعف ولاسيما ضعف الفهم والارادة

ذكر ان القديس بطرس الرسول كثيرًا ما كان يشبه هذا العالم ببيت مفعم دخانًا حتى ان ساكنيه لا يبصرون ما يصير فيهِ لتكاثف الدخان ولا ما يكون خارجًا عنهُ لحاجز الجدران . فهذه حالتنا لاننا نجهل حقيقة ما يخص هذه الحيوة وحقيقة ما يختص بالحيوة الآخرة . فالخيرات الزمنية نستعظمها ونرغب فيها . والخيرات الابدية نستصغرها ونرغب عنها . والشرور الزمنية نستكبرهـا ونهرب منها . والشرور الابدية نستخف بها ولا نحيد عما يبلغنا اليها . وما ذلك الاَّ من دخان الشهوات الذي لا يدعنا ان نرى الامر على ما هو وحالنا في ذلك حال من يتفرس بمياه البحر فيرى البعيدة سوداء والقريبة الى الشطء بيضاء .

فيحب القريبة لبياضها ويكره البعيدة لسوادها . وقد اخطأ في الامرين لان مياه البحر القريبة تكون مملوة من الاوساخ والاقذار والبعيدة تكون صافية خالية من الاكدار. كذا الامور الزمنية لقربها منا نستحسن رونق بياضها مع انها مملوة كدرًا وشرورًا . واما الامور الابدية فلبعدها عنا نحتقرها ولا نبالي بها . هذا هو الضرر الملتحق بالفهم الذي اورثتهُ الخطية . واما الضرر الذي الحقتهُ في الارادة فليس باقل من ذلك لانها بعد ان كانت ميالة طبعًا نحو محبة الخالق الذي هو الخير السامي اضحت تميل الى محبة المخلوقات . وبعد ان كانت تستسهل عمل البر وتستصعب صنيع الشر امست بالخلاف وهذا ما كان يئنُ منهُ القديس بولس الرسول قائلاً ان الخير الذي اريده لا اعملهُ والشر الذي لا اريده اياه اعمل (رومية ص ٨) . وكلام الله يتكفل بعلاج الدائين ويصلح كلا الضررين لانهُ يبدد ظلام الجهل عن العقل فيستنير بنور النعمة وحينئذٍ يدرك حقيقة كل شيء على ما هو . ويقوي الارادة على عمل البر وتجنب الشر .

غير انهُ كثيرًا ما يتفق ان كلام الله يذهب بدون فائدة . فالقديس توما يقسم الناس الذين لا يستفيدون من الكلام الالهي اربعة انواع .

النوع الاول الذين لا يحضرون حيث يكون الانذار بكلام الله مخافة ان يسمعوا خطابًا عن شر عواقبهم وسوء منقلبهم فتنزعج افكارهم وتسلب راحتهم من نخس ضمائرهم فهم اشبه بمن يروم ان ينام طويلاً

فانه يغلق نوافذ المنزل لئلا يشرف عليهِ نور فينبههُ من لذة رقاده فمثل هولاء ليسوا من خراف المسيح لان خرافه تسمع صوتهُ . ويماثلون نوعاً من السمك لا يقدر احد ان يصطاده لانه يستمر في اعمق اللجج حيث لا يتمكن الصيادون من طرح الشباك هكذا يبتعد هولاء من صيادي النفوس غائصين في لجة شرورهم وظلام جهلهم . فلو حُرّضوا على الحضور لاستماع الوعظ لاجابوا قائلين نحن في غنى عن استماعه لاننا ممن تفقهوا في العلوم ومطالعة الكتب فلاحاجة لنا بذلك ما لنا ومشقة السفر وحصر الفكر في الكنيسة فيجيبهم القديس برنردوس ان الله يريد ان ندخل الحياة من الباب الذي منهُ دخل الموت فكما ان الموت دخل من اذن مصغية الى واعظ غاش (هو الشيطان بفم الحية) هكذا وجب ان ندخل الحياة من اذن مصغية الى واعظ صادق ولنا في ذلك مثال داود النبي الذي لم يندم على خطيتهِ الى ان سمع ناتان يونبهُ عليها بمثلٍ قال كان رجلان احدهما غني والاخر فقير وكان للغني غنم وبقر كثيرة جدًّا . والفقير لم يكن لهُ غير رخلة واحدة صغيرة قد اشتراها ورباها وكبرت معه ومع بنيهِ تاكل من لقمتهِ وتشرب من كاسهِ . فنزل بالرجل الغني ضيف فشح ان ياخذ من غنمهِ وبقره ليهيء للضيف فاخذ رخلة الفقير وهياها للرجل الوافد عليهِ . فغضب داود على الرجل جدًّا وقال لناتان حيٌّ هو الرب ان الرجل الذي صنع هذا يستوجب الموت ويردُّ عوض الرخلة اربعاً جزاء انهُ فعل هذا الامر ولم يشفق . فقال ناتان لداود انت هو الرجل قد قتلت اوريا الحثي بالسيف واخذت

زوجتهُ زوجة لك والان فلا يفارق السيف بيتك الى الابد. فقال داود لناتان قد خطئت للرب (٢ملوك ٢ ص ١٢) فقد استمر داود في خطيتهِ ولم يتب مع سمو علمه ولين قلبهِ ومعرفته بشر الخطية وسوء عواقبها الى ان اتاه هذا النبي الصغير ونبه افكاره بحكمة. والقديس اغوسطينوس لم يرتد عن ضلالهِ لا من تلاوة الكتب ولا من اجتهاده في البحث عن الحق بل احتاج ان يرافق القديس امبروسيوس ويقف امامهُ كالطفل صاغيًا الى عظاته. فان كنت ذا قلب رقيق وديع نظير داود فتحتاج الى ناتان وان كنت علاَّمة نظير اغوسطينوس فلا بد لك من امبروسيوس. لقد ذكر الطبيعيون عن حوت عظيم في البحر يدعى فقمة كأنهُ سفينة حية ان له سمكة صغيرة تسير امامهُ في الماء بمنزلة قائد بحيده عن المحل القليلة مياههُ لئلا يرسو على اليبس فيموت

النوع الثاني الذين يسمعون كلام الله ولا يقبلونه لانهم يريدون ان يسمعوا اشياء جديدة مسبوكة باحسن اساليب الفصاحة غير مطروقة ولا مسموعة. ولا يريدون ان يسمعوا لواعظ يوبخهم على اثامهم فيقولون ما كان يقوله اليهود لانبيائهم كلمونا كلامًا مَلِقًا على حسب هوانا (اشعيا ص ٣٠) دعوا عنكم الوعيد والتهديد والتوبيخ على الرذائل لان هذا يصدنا عن المجيء الى استماع كلام الله منكم. كلمونا بما يعزي نفوسنا وتطمئن به خواطرنا. خاطبونا عن صلاح الله وغزارة مراحمه. لا تذكروا لنا الدينونة ولا جهنم. لا تبكتونا على حب الغنى

والملاهي . لاتصدونا عن السكر ولعب القمار . لا تهددونا بما يذخر من الغضب للدنسين . فلو كان مثل هولاء المتعنتين ايام داود الملك وسمعوا ناتان يتهدده بانزال العقاب بهِ قائلاً له لا يفارق السيف بيتك الى الابد هكذا قال الرب اني مثير عليك الشر من بيتك وسآخذ ازواجك وادفعهنَّ الى غيرك والابن الذي يولد لك يموت لكانوا هيجوا داود على ناتان ليقتلهُ او يزجره ليسكت . وقد فاتهم ان الامراض العضالة الشديدة لا تشفى بحلو الادوية بل يلزم لها ادوية مرَّة فعالة . والمختم البارد لا يختم في خشب شديد الصلابة ما لم يحسم بالنار

النوع الثالث الذين يقبلون كلام الله برغبة ولكن لا يثمر فيهم لانهم لا يتاملون بما قد سمعوهُ فالطعام لا يفيد وان كان جيداً ما لم يمضغ حسناً . والخردل اذا سحق كان من اشد الادوية تاثيراً فان وضع على القدم الصلبة اثر فيها ونبه من كان في حالة البحران ولكن اذا ابتلع بدون سحق لا يؤثر في المعدة اللطيفة . هكذا كلمة الله لا تفيد السامع ما لم يسحقها بالتامل وتعميق الفكرة

النوع الرابع هم الذين يحضرون الوعظ اما على سبيل التنزه والفرجة فيشابهون من يجلس على المائدة لا لياكل بل ليوزع الطعام على المدعوين فينسبون كل ما يسمعونه الى غيرهم قائلين هذه العبارة تناسب فلاناً الغني وهذا المعنى يصدق على فلان المتكبر ولا يخصون بانفسهم شيئاً كمقسم الميراث على اربابهِ وكان الواجب ان يماثلوا جزة جدعون التي وعت

كل النداء الساقط على البيدر (قضاة ص ٦ ع ٣٨) او كشجرة السرو التي تمتص كل الرطوبة الموجودة في جوارها · واما انهم يتناعسون فيفوتهم ما يفيدهم من كلام الله لان كلمة الله كالسنارة تصطاد من يصطادها · او انهم يتلاهون بالحديث مع من حولهم فيمسون عاطلين ومعطلين كلمة الله القوية الفاعلة نظير سيف ذي حدين

فانواع الناس المار ذكرهم قد شبهم السيد المسيح (متى ص ١٣) بالارض العاطلة المزروع فيها كلام الله بلا فائدة فمنهم كالطريق المتصلبة تربتها من تكرار الدوس عليها فلا تقبل البذار لعدم لينها بل يبقى على سطحها فتاتي الطير وتخطفهُ · ومنهم كالارض الحجرة الخالية من ثرى يسقي الزرع فيجف من حرارة الشمس . ومنهم كالارض الكثير شوكها نعم انها تقبل البذار وينبت فيها لكن يقوى عليه الشوك ويخنقه فيكون ذهب التعب والبذار سدى في هذه الارض التي تستوجب اللعنة كقول الرسول ان الارض التي قبلت المطر مرتين وثلاثًا وانبتت شوكًا وحسكًا تكون منفية وليست بعيدة من اللعنة وعاقبتها الحريق (عبرانيين ص ٦) يريد بذلك ارض القلوب التي قبلت زرع كلمة الله مرارًا وهطلت عليها سحائب النعم مدرارًا واشرقت عليها شمس المواهب السماوية ولم تنبت الا اشواك الخطايا وحسك الذنوب فتعود منفية من السماء واهلاً للعنة المرشوقة من فم الديان القائل لمثل هولاء اغربوا عني ياملاعين لانهم يبطلون كلمة الله فيهم

ان كلمة الله قوية جدًا فهي كسيف ذي حدين . فقد شقت البحر

وجمدت المياه بفم موسى النبي . واوقفت الشمس بفم ابن نون . وفتحت السماوات وحبست الامطار ثلاث سنين وستة اشهر بفم ايليا . واقامت الموتى وفتحت العميان وطهرت البرص وسكنت الرياح بفم المسيح ورسله . هذه الكلمة قدست العالم . وبددت غيوم الحنفية واقمعت الشهوات . وكسرت امخلة الجحيم وحطمت ارز لبنان (مزمور ٢٨) وهذه الكلمة قد اولدت الوفا من اولاد الايمان . فلمَ اضحت عقيماً الان ولمَ ضعفت قوتها . هل تغيرت عما كانت عليه كلاَّ . أما يُنذَرُ بها من واعظين غيورين بلى لانهم لا يزالون يبشرون بالكلمة نفسها التي بشر بها بطرس وبولس وباقي الرسل فلا اظن انه يوجد سبب لابطال تأثيرها في النفوس الاَّ عدم استماع المسيحيين لها كما يجب . فمنهم من يشمأز من استماعها . ومنهم من يقاومها . فالاشمئزاز من استماعها هو قصاص مرعب يجب ان يخافهُ الانسان . لان الله قدس العالم بكلمتهِ وبها يريد ان يقدسهُ دائمًا لكونها اوفق واسطة . وما قاله القديس بولس عن الايمان انهُ من السماع يمكننا ان نقوله عن توبة الاشرار وثبات الابرار انهما من السماع فلا يرتد الخاطي اليه تعالى ولا يثبت البار في محبته الاَّ عندما تحركه الحقائق الابدية وهذه الحقائق هي كلمة الله التي يسمعها من المنذرين . وكما ان اشمئزاز اليهود من اكل المنّ اللذيذ كان اعظم شقاء لهم هكذا اشمئزاز المسيحيين من كلمة الله هو اعظم شقاء يلمُّ بهم ... ان عدم القابلية للاكل فيمن يضطر اليه دليل مرض قتال يفضي به الى الموت . كذا من لا يرغب في استماع الكلام الالهي

قوت النفوس بحكم بان مرض نفسهِ قتال يفضي بها الى الجحيم ... واما المقاومة لكلمة الله فهي اعظم قصاص لانها دليل قساوة القلب وعمى العقل وانذار بقرب الهلاك الابدي . قد قاومها فرعون بقولهِ من هو الرب فاسمع لقوله واطلق اسرائيل . لا اعرف الرب ولا اطلق اسرائيل (خروج ص ٥ ع ٢) لا تقاوم الهك يافرعون ولا تستخف باقواله فتغرقك مياه البحر الاحمر في عمق اللجج

فعلينا ان نسرع الى استماع كلمة الله برغبة وشوق واصغاء لنجتني من ذلك زهور الفضائل واثمار التوبة والخلاص لان كلمة الله كبستان يدخلهُ النحل والزلاقط والزنابير فالنحلة تاكل وتحمل شهداً تضعه في خليتها قوتاً لها ولاولادها والزلقطة تاكل في الحال فقط وانما لا تحمل معها . واما الزنبور فلا ياكل ولا يدع غيره ان ياكل بل يلسع النحلة بحمته و يتبعها الى كوارتها فيقتلها ويتلف قوتها . فلنكن كالنحلة عند دخولنا لاستماع الكلام الالهي فنقيت نفوسنا مما نسمعهُ ونخزن في كوارة عقولنا ما يوافق حياتنا الروحية المستقبلة ولتكن قلوبنا كالارض الجيدة التي نبتت الزرع الالهي واعطت اثماراً كثيرة لنستحق الطوبى المعطاة للذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها (لوقا ص ١١) نسالهُ تعالى ان تعطوا ذلك بشفاعة مريم البتول و بتوسلات القديسين اجمعين امين

العظة الرابعة والعشرون

« في الديانة »

قال الكتاب المقدس للرب الهك تسجد واياه وحده تعبد
(متى ص ٤ ع ١٠)

ان السجود لله والتعبد لهُ هو شيء غريزي في الانسان العاقل لان العقل يدلنا انهُ يوجد الهٌ حاوٍ جميع الكمالات قدير ويحب البشر وهم محتاجون الى مساعدتهِ وعنايتهِ ولهذا قد توجب عليهم ان يحبوه ويعبدوه . والعقل يرشدنا ايضاً انهُ تعالى قد خلق اشياء كثيرة لخدمتنا فتحتم علينا ان نعبده بتأدية الشكر لهُ . ومن كونهِ تعالى صنع المخلوقات لخدمة الانسان فالواجب ان يكون الانسان صُنع لخدمة الله وعبادتهِ لان الشريعة الطبيعية تدلنا ان الادنى يخدم الاعلى فالارض تخدم النبات والنبات يخدم الحيوان الخ . فينتج ان الانسان يلتزم ان يخدم الله . واتفاق جميع الشعوب والامم على وجوب التعبد لله دليل لا يردّ انهُ لابد لكل انسان من ديانة وعبادة وعلى هذا توجب علينا ان نثبت صدق ديانتنا بالادلة الراهنة والحجج القاطعة وقبل الشروع بذلك فلنطلب الاستنارة من الروح القدس

ان الديانة المسيحية هي ديانة الهية حقيقية لان مؤسسها هو يسوع

الاله الذي اوضح لاهوته بقداسة حياتهِ وسمو تعليمهِ وقوة آياتهِ · واثباتًا لالوهيتهِ قد صنع العجائب العديدة في حال مولده وفي مدة حياتهِ وفي موتهِ وقيامتهِ وبعد قيامتهِ . وهذه المعجزات تشهد بها السماوات والارض وما فيها . لان سيدنا يسوع المسيح صنع عجائب اولاً في الخلائق الناطقة الروحية وذلك لما احدر الملائكة من السماء في ميلاده ورتلوا المجد لله في العلا وعلى الارض السلام . وفي قيامتهِ حينما اتى ملاك الرب من السماء ودحرج الحجر عن باب القبر. وحينما اخرج الشياطين من المعترَين . ثانيًا في السماء وذلك بانفتاحها حين اعتماده وحلول الروح القدس عليهِ شبه حمامة . وبصوت الاب هذا هو ابني الحبيب وبانكساف الشمس حين موتهِ . ثالثًا في العناصر وذلك لما امر البحر في الهدوء والرياح بالسكون فهدئ البحر وركدت الرياح . ولما مشى على الماء كمشيهِ على اليابسة . وحينما تزلزلت الارض وتشققت الصخور وانفتحت القبور . رابعًا في احالة الماء خمرًا واشفاء المخلعين والبرص وتفتيح العميان الخ · فاجتراح مثل هذه الآيات لا يكون الاَّ بقوة الهية فالمسيح اذًا اله وكلما يقوله او يصنعهُ فهو حق. فينتج ان الديانة المسيحية هي حق

يستدل ثانيًا ان هذه الديانة حقيقية من نقاوة تعليمها لانها تنهي عن كل الرذائل وتحث على جميع الفضائل . تنهي عن الكبرياء وتأمر بالتواضع . تنهي عن السرقة وتامر بالصدقة . تنهي عن طلب الانتقام وتامر بوجوب الصفح للاعداء. تنهي عن الدعارة وتامر بالعفاف ·

وذلك كلهُ مطابق للصواب ويقبلهُ كل ذي عقل سليم · قد اباح سقراط فيما بين شرائعهِ بعض قبائح ينفر منها الطبع السليم · واريسطو اباح للآباء قتل اولادهم اذا ضاق عليهم المعاش او كانوا ذوي عاهات وسينكا معلم الادب عند الوثنيين كان يبيح الانتحار عند حلول النوائب والخطوب الجسيمة · وقد تنزهت الديانة المسيحية عن مثل هذه الاباحات الذميمة

يستدل ثالثًا من ثباتها الدائم فانها لم تتزعزع اركانها من وابل الاضطهادات ولا من عواصف التهديدات بل ازدادت تمكنًا واشتهارًا عند المضطهدين انفسهم · فاية مدينة حاربت اسم المسيح اكثر من رومية التي صبغت ارضها بدماء شهدائنا واشبعت وحوشها من جثثهم · واخيرًا سلمت قصورها الملكية وهياكلها الى نائب السيد المسيح

ونشر هذه الديانة بواسطة اناس فقراء سذج اكبر دليل على انها الهية فلم تشهر وتقبل بقوة السيف لان المنذرين بها كانوا ضعفاء ليس لهم عاضد سوى الله . ولا بالرشوة كونهم فقراء . ولا بالفلسفة لشهرة سذاجتهم · ولا باعتبار الشرف لانهم كانوا يهودًا من شعبٍ مزدرى في العالم كله · ومع هذا قد حملوا الانجيل وبشروا به مع علمهم بان دون ذلك اهوالاً . نعم ان اوريا قد حمل رسالة موتهِ ولكن لم يكن عالمًا بما كانت تتضمنه من امر الملك باعدامه لانها سُلمت اليه مختومة فلو شعر بفحواها لما بلغها الى يواب قائد جيش داود واما رسل المسيح فقد حملوا الانجيل المتضمن الانذار بموتهم مفتوحًا مطلعين على كل ما يومن

الخطوب والاهوال التي ستلمّ بهم فكان مسطرًا امامهم انا مرسلكم كالخراف بين الذئاب (متى ص ١٠) ويلقون عليكم الايدي ويسلمونكم الى المجامع والسجون (لوقا ص ٢١) ستأتي ساعة يظن فيها كل من يقتلكم انه يقرب قربانًا لله (يوحنا ص ١٢) الخ فلم يهابوا من تسليم هذه الرسالة الى الولاة والملوك ولا ارهبتهم السيوف البواتر ولا النصال الحادة . ولا السجون الهائلة بل كلّت ايدي معذبيهم ونبت صوارمُ محاربيهم وأقنعوا الفلاسفة بسديد حجتهم وابكموا الفصحاء بموجز الفاظهم . فتلك اعجوبة تنذهل منها العقول وتثبت حقيقة هذه الديانة وانها الهية دون كل ريب

ها قد مضى على هذه الديانة نحو تسعة عشر جيلاً ومشاهير العلماء والقديسين مكبّون على فحص عقايدها وتفاسير كتبها ولم يفتروا من الهذيذ بها والتدقيق في تبيان معانيها وتحليل معقدها . والانذار بسننها وشرائعها جهارًا . فتمسكهم بها حال كونهم ذوي عقول رفيعة وزكاء فريد وبارعين في العلوم الطبيعية والفايقة الطبيعة ومجردين عن الاهواء يوجب علينا ان نعتقد انها الهية حقيقية ونلتزم ان نسير بموجب تعاليمها لا ان نصرف اوقاتنا بالتفلسف الباطل عن صحة مباديها فلسنا اذكى من القديس اغوسطينوس والقديس بولس ولا اقدس من ايرونيموس ويوحنا فم الذهب وغريغوروس والقديس توما المعلم الملائكي وغيرهم كثيري العدد الذين تآليفهم النفيسة العالية تشهد بدرجة عقولهم السامية وقداستهم الكاملة وما من معارض لمباديها الاّ افحموه بحجة قاطعة ولا

اعتراض الافندوم ببراهين ساطعة

واكمال النبوات في موسس هذه الديانة هو اوضح دليل على انهُ اله وتعليمه تعليم الهي . واخص تلك النبوات قول اشعيا النبي · ها ان العذراء تحبل وتلد ابنًا وتدعو اسمه عمانوئيل (ص ٧ ع ١٤) وقول ميخا النبي وانتِ يا بيت لحم افراته انك صغيرة في الوف يهوذا ولكن منكِ يخرج لي من يكون متسلطًا على اسرائيل ومخارجهُ منذ ايام الازل (ص ٥ ع ٢) ومما يثبت لنا حقيقة هذه الديانة العجائب الكثيرة والمعجزات العديدة التي اجترحت فيها ليس من موسسها فقط بل من رسلهِ وقديسيه كاقامة هامة الرسل لطابيتا من الموت . واشفائه مخلعًا ملقى منذ ثمان سنوات (اعمال ص ٩) ومعاجلة حنانيا وزوجته بالموت لكذبهما وابرائه المرضى بظل توبه (اعمال ص ٥) الخ · فمثل هذه العجائب لا يستطيع صنيعها الا الله وحده وحاشى لله ان يجترح ايات بديانة كاذبة

ولهذه الديانة الوف من الشهود يشهدون بحقيقتها وقد امضوا شهاداتهم وختموها بسفك دمائهم . تنطق شاهدةً لها الحجارة التي بها رُجم اسطفان · والسيف الذي قطع رأس المعمدان والخشبة التي صلب عليها القديس بطرس · والحراب التي اماتت متى الرسول · والنار التي شوت لورنسيوس يوستنسياني · · · ولكن لم يكتفِ القديسون والشهداء الذين اعتنقوا الديانة المسيحية بالايمان والاعتقاد بانها الهية بل احيوا ايمانهم بصلاح اعمالهم وضحوا حبًا لها اراداتهم وراحتهم وحياتهم

نفسها لان الايمان بدون اعمال كالجسد من دون روح · قال القديس يعقوب الرسول (ص ٢) ما المنفعة يا اخوتي اذا قال احد ان لهُ ايمانًا ولا اعمال له · ألعلَّ الايمان يستطيع ان يخلصهُ فان كان اخ عريانًا او جائعًا وليس لـه قوت يومٍ وقلت لهُ اذهب بسلام استدفى، واشبع ولم تعطهِ ثوبًا يستره ولا قوتًا يشبعه هل يكتفي بذلك كلاً · هكذا لايخلص الانسان بالايمان وحده بل يجب عليهِ ان يعمل بحسب الايمان · فلننظر اذا كانت اعمالنا مطابقة تعليم ديانتنا فالديانة تعلمك ان تحب عدوك وتحسن الى من اساء اليك وتصلي عن مضطهديك وانت تبطن له الحقد في الكبد ولا تصفح عن اصغر كلمة فرطت منهُ بشانك . الديانة تقضي عليك ان تكون نشيطًا وحارًا في خدمة خالقك وانت كما انت فالزمان المختص باتمام فروض الدين تصرفه بالملاهي والمسكرات وشتم الدين . وزمن الصلوات تقضيه بارتكاب المنكرات . وتفضل حشد الاموال على درر الاعمال المبرورة فالديانة تقضي عليك باغاثة المسكين وانت تشتمه وتظلمه . انت كما انت تعتاض عن الفضيلة بالرذيلة . وعن التقدم الى الاعتراف واقتبال بقية الاسرار بالاستخفاف والازدراء . فما ابعد اعمالك عن ايمانك . فاين ايمانك من ايمان ابرهيم واين اعمالك من اعماله فقد قدم ابنه ضحية لله وانت لا تقدم ابنك الى الكنيسة ليتمم واجبات ديانته واين احتمالك من احتمال الشهداء الذين صبروا على اشدّ الضيقات واحتملوا مرّ العذابات ولم يحيدوا عن الديانة · ونراك لادنى ربحٍ او لاخف بلية تتهجم على تركها · اين طهارتكِ من طهارة سوسنة

التي ودّت ان يراق دمها ولا يثلم عفافها وانتِ تعرضين ذاتكِ الى ما يسلب منكِ هذه اللؤلؤة الثمينة المزدان بها تاج الديانة المسيحية

اني اناشدكم بالله وبشرف نفوسكم يا معشر المسيحيين ان تحبوا هذه الديانة بروح افعالكم التقوية حتى يفاخر بها بواسطتكم فليضيء نوركم قدام الناس ليروا اعمالكم الصالحة ويمجدوا اباكم الذي في السماوات (متى ص ٥ ع ١٦) واحذروا من صنيع كل ما يشينها ويكدر نقاوة تعاليمها لئلا يفترى عليها بسببكم وابذلوا جهدكم وايقظوا الهمة الراقدة في حضن الفتور والمستغرقة في زورق الغفلة والتغاضي للمحاماة عن شرف الديانة . فاحبُّ شيء اليَّ واعظم ما اتمناه قبل انحلالي من هذا الجسد ان ارى رونق الدين عائداً الى ما كان عليهِ في عهد اجدادكم وابائكم الاقدمين . من لي بان يريني الكنائس غاصة بالخاشعين وكراسي الاعتراف محاطة بالتائبين الحقيقيين والمنابر يملوها ذوو الغيرة الباحة اصواتهم الذين لا يبالون بتعب ولا عرق الباذلين اعز ما لديهم ليزيدوا الديانة رونقاً وبهجة . فامنحنا اللهم ايماناً حياً بالاعمال التي ترضيك لنحيا ونموت بهِ وننال الثواب المعد لابرارك وقديسيك امين

العظة الخامسة والعشرون

« في وجود الله »

قال داود النبي السماوات تذيع مجد الرب والفلك يخبر باعمال يديه (مزمور ١٨)

ها ان الكون مدرسة عامة وكل موجود فيه استاذٌ ماهر وخطيب فصيح ينذر بوجود الخالق · لان العقل يوضح لنا جليًا اولاً ان وجود العالم محدث لا بد لهُ من موجد لانهُ مستحيل ان يوجد ذاته فعلى افتراض انهُ اوجد ذاته يلزمهُ ان يفعل قبل ان يوجد كقولنا ان فلانًا اولد اولادًا قبل ان يولد وهذا من المستحيلات . والموجد الاول يلزم ان يكون غير متغير لا يقبل زيادة ولا نقصانًا ولا لهُ قبل ولا بعد ولا شيء من هذا في الكون الذي نراه . فاذًا لا بد من خالق لهذا الكون وهذا هو الله · ثانيًا اننا نرى في الكون نظامًا بديعًا يستحيل ان يكون بدون منظم فللكواكب سنة ثابتة تسير بها · وللارض والبحار والفصول شريعة لا تحيد عنها · فمن الضرورة ان يكون لها مشترع حكيم قدير عاقل ليسنّ هذه الشرائع ويحافظ على ثباتها . وجهل من يعتقد ان العالم اوجد ذاته والطبيعة سنت له هذه الشرائع ليس باقل من جهل من يقول عن

دار بديعة الاتقان انها اوجدت ذاتها او ان الصدفة او الاتفاق اتقنها ...

ثم ان اتفاق الشعوب على وجود علة اولى (وان اختلفوا بحقيقتها) هو حكم قاطع بوجود اله . ولا يمكن القول ان الطبيعة هي العلة الاولى لانها غير عاقلة والعلة الاولى يجب ان تكون عاقلة ...

والضمير يعلن انهُ يوجد اله قدير يرى اعمالنا ويعاقب الخطاة لانهُ من اين اتلد الخوف في الانسان عند اقتراف كبائر الذنوب ولو لم يرَهُ احد الاَّ من تأْثير شريعة الهية ازلية قد فطرت فيهِ من هذا الاله القدوس الذي يبغض الشر ويعاقب مرتكبيه ويحب الخير ويثيب فاعليه . فما الذي ارعب آدم في ذلك الفردوس عند مخالفتهِ وجعلهُ ان يختفي بين الاشجار الا صوت ضميره الباطن المغروس فيهِ من الله بدليل قوله للرب اني سمعت صوتك فخفت (تكوين ص ٣) واي الجنود كان يطارد قاين القاتل اخاه لما كان تائهًا شاردًا يرتجف من كل ورقة تحركها الريح الا جنود ضميره وصوت الرب الملازم لهُ لانهُ لم يكن قد ترتب محاكم ولا قضاة ولا عساكر تخيفهُ وترعبهُ . هذا هو الذي كان يرعب داود الملك ويزعجهُ سالبًا راحتهُ حتى ما كان يجد ما يسكن قلقهُ ويريحهُ عندما ارتكب ذلك الاثم بدليل قولهِ ان عظامي قد رجفت ونفسي ارتاعت جدًّا (مزمور ٦) . هذا هو الذي يزعج كل خاطي حين اقدامهِ على اقتراف المنكرات في المرات الاولى واذا تكلم الحق فانهُ يلتزم ان يقرَّ بان الخوف استولى عليه حتى كان يخشى انقضاض الصواعق على

رأسه او ان الارض تفتح فاها تحت قدميه وتبتلعهُ

والقلب يشهد بوجود الهٍ هو غايتهُ ومركز راحته اذ ان الانسان يرغب طبعًا ان يكون سعيدًا ولا سعادة ولا راحة الاَّ بالله. فلا راحة للخاطي البعيد عن الله وشاهده ذاك النبي والملك الذي ما كانت تريحه عساكره الوافرة ولا موائده الفاخرة ولا آلات الطرب والموسيقة الشجية ولا كثرة رعاياه ولا منتزهاته ذات الجنائن البديعة بل كانت دموعه خبزًا له اذ كان يقال له في كل حين اين هو الهك . فاضطر من شدة انزعاجه وتعبه ان يقول يانفسي ارجعي الى راحتك

السماوات تذيع قدرة الرب الذي ابدعها من العدم بكلمة كوني فكانت . اني ارى سماواتك عمل اصابعك والقمر والكواكب التي كونتها (مزمور ٦ ع ٤) فلو خاس من الشمس ذرَّة لما استطاع ملوك الارض طرًّا ان يكملوها وان تغير فصل من فصول السنة فمن من الحكماء يقدر ان يعيده. قد اقتضى اربعون الف معلم في مدة سبع سنين متتالية لبنيان هيكل سليمان ولم يقتضِ لايجاد الكون برمته بما فيه من البدائع من معدن ونبات وحيوان وافلاك وكواكب الا كلمة «كن» فيالقدرة الرب الغير المحدودة...

السماوات تذيع جودة الرب . من جوده تعالى الشمس لتنيرنا وتسخن اراضينا وتبعث تاثيراتها لطبخ المعادن ونمو النبات . ومن جوده القمر وسائر الكواكب. ومن جوده هطل الامطار باوانها والنسيم بهبوبه ومن جوده البحار والينابيع والارض والحيوانات لخدمتنا . جودهُ انعم

علينا بالاطيار ونغماتها والازهار واريجها والاثمار ولذاتها والملائكة لحراستنا · فككل هذه الموجودات اصوات تنذرنا بوجود الله وتحثنا على الاعتبار لقدرتهِ الغير المحدودة وجودته الغير المتناهية وتلزمنا بالشكر لفائض احسانهِ لانهُ لو انعم عليك انسان بشيءٍ طفيف لم تنسَ فضلهُ · ·

فقد ثبت بالبرهان ان الله واجب الوجود وهو الذي اوجد كل شيءٍ من العدم بقدرتهِ ورتب بحكمتهِ الالهية الكائنات ترتيباً لا يخل وما من منكر لهذا الاله الا الجاهل الذي قال عنهُ داود النبي (مزمور ١٣) قال الجاهل في قلبهِ ليس اله . فمن هذا ذاتهِ ينتج انهُ يوجد اله والاَّ فما الفائدة من قولهِ ليس اله . فكأنَّ ضميره يوبخهُ ويتوعده بانتقام الله على فعلهِ الخطية · وقلبهُ الفاسد الخبيث يخاطبهُ سرًّا قائلاً لهُ ليس اله . قال في قلبهِ وليس في عقلهِ ولا في ضميره ولا في فمهِ . لا في عقلهِ لان عقلهُ مقر بوجود اله لوضوحه بالبرهان ولا في ضميره لان ضميره يوبخهُ توبيخًا متواصلاً على ذنبهِ ولا يدعه ان يرتاح . ورحمة الله على من قال

فكانما لدغ الضمير ونخسهُ   عرق يدوم محركًا من نبضهِ

ولم يتجرأ ان يلفظ بفمهِ خوف ان توبخهُ السماوات التي تذيع مجد الله والفلك الذي يخبر باعمال يديه بل قال في قلبهِ تسكينًا لضميره ولا سكينة لهُ الاَّ بالرجوع الى الله الموجود جبرًا عن فساد قلب الجاهل · وبعض الاثمة يقرون بوجود اله لكن على هواهم اي ان يكون رحمة بلا عدل او غير قادر على عقابهم وهذا الذي جعل الوثنيين ان

يؤلهوا الحيوانات الحقيرة كالسلاحف والدبان والنبات الخ

قال داود النبي (مزمور ١٣٨) من امام وجهك اين اهرب واين اذهب من روحك فان صعدت الى السماء فانت هناك وان نزلت الى الجحيم فانت حاضر وان اخذت جناحين كالنسر وسكنت في اقاصي البحر فان يدك هناك تهديني وتمسكني يمينك . فلهذا يلزمنا ان نستحضر الله دائمًا امامنا لثلاثة امور اولاً لنشكره على احساناتهِ الغزيرة المتواصلة التي ينعم علينا بها لان الشكر على النعمة يزيدها وعدم الشكر يزيلها . ثانيًا لنمتنع عما يهينهُ تعالى لان الاستحضار الالهي بايمان حي يمنع عن مخالفة ناموسهِ كقول القديس افرام اضعك يارب امامي وهذا كافٍ لئلا اخطأ . وليكن ضميري ملازمًا التفكر بك فلا يقدر الاثم ان يغلبني ظافرًا بي . ثالثًا لنستمد منهُ تعالى ما نحتاجه لاننا بدونهِ لا نستطيع ان نفعل شيئًا ولنقل مع المرتل عيناي في كل حين الى الرب (مزمور ٢٤) ونهتف مع يعقوب اسرائيل حقًا ان الرب في هذا الموضع وانا لم اعلم (تكوين ص ٢٨ ع ١٦) فامنحنا اللهمَّ ايمانًا حيًا بوجودك . ورجاء وطيدًا بانجاز مواعيدك بشفاعة مريم البتول تلك التي آمنت بكل ما قيل لها من قبل الرب و بتضرعات جميع القديسين المقربين اليك آمين

العظة السادسة والعشرون

« في غاية الانسان »

قال الحكيم ان الله صنع الجميع من اجل ذاتهِ
(امثال ص ١٦ ع ٤)

انهُ من المقرَّر الثابت بالبرهان والوحي ان الله خلق كل شيءٍ من العدم اذ لا معلول بدون علة فالله علة كل شيءٍ وقال الكتاب المقدس في البدء خلق الله السماوات والارض (تكوين ص ١) . ومن البين الواضح ان الفاعل العاقل يقصد غاية بعملهِ وتلك الغاية يكون مرجعها اليه ضرورة . والحال ان الانسان هو عمل الله السامي التعقل والفهم فلزم ان تكون غاية خلقة الانسان لخدمة خالقهِ . فمن يبني دارًا يقصد استخدامها لنفعهِ ومن يغرس كرمًا يتعهد الاستثمار منهُ والذي يرعى غنماً يرجو ان يقتات من لبانها ويستفيد من نتاجها كما قال الرسول من يغرس كرمًا ولا ياكل من ثمره . او من يرعى قطيعًا ولا ياكل من لبن القطيع (قرنتية اولى ص ٩ ع ٧) . والانسان غرسة يد الرب مغروس بارض جيدة قد فلحها الله باتعابهِ الشاقة وسقاها بدمهِ الثمين وسخنها بنار محبتهِ الالهية ولم يزل يتفقدها بدوام عنايتهِ فيقتضي ان تكون ثمار الانسان اي اعمالهُ جميعها متجهة لتمجيد خالقهِ لان الشجرة

واثمارها لصاحبها

ثم ان النظام الذي سنّه الباري تعالى في الطبيعة يبين لنا وجوب خدمتنا لله · فاننا نرى بهذا النظام ان الادنى يخدم الاعلى فالارض تخدم النبات الذي يعلوها رتبة لكونه موجودًا ناميًا وهي غير نامية فتغذوه وتحييه وتنميه وتلازم احتضانه الى ان يبلغ الغاية . والنبات يخدم الحيوان الذي يفوقهُ بكونهِ موجودًا ناميًا حساسًا والنبات غير حساس فتعين على انواعه العديدة ان تكون قوتًا للحيوان والحيوان يخدم الانسان الذي يعلوه بالنطق والسلطة المعطاة له من الله كقول داود النبي بالمجد والكرامة كللتهُ وعلى اعمال يديك سلطتهُ وكل شيءٍ اخضعت تحت قدميه الغنم والبقر كلها وبهائم الصحراء وطير السماء وسمك البحر (مزمور ٨) · فيستخدم بعضهُ لفلاحة اراضيه وبعضهُ لنقل بضائعهِ · بعضهُ يغتذي بلحومهِ ولبانهِ وبعضهُ يكتسي بصوفهِ وجلده بعضهُ يجر مركباته وبعضهُ يخفر منزله وخيراته الى غير ذلك من المنافع العديدة · فلزم من ذلك كلهِ وجوب خدمة الانسان لمن هو اعلى منهُ والحال ليس اعلى ولا ارفع منه الا الله فاذًا لا غاية للانسان الّا قيامه بخدمة ربه · اي يلزمهُ ان يتقي الله ويحفظ وصاياه . ولا يخلو من سرّ كون الانسان خُلق مستقيماً اي راسه نحو السماء التي هي غايتهُ خلافًا للحيوانات الغير العاقلة المتجهة روُّوسها نحو الارض غايتها

قد جهل الغاية كثير من ذوي السيرة الفاسدة وذهبوا في ذلك مذاهب شتى فبلغ عددها مائتين وثمانين مذهبًا . فمنهم من جعل غايتهُ

في ملاذ الجسد وشهواته ومنهم من اعتقد ان الغاية تجمع المال والمقتنى ومنهم من حصرها في المجد العالمي ومنهم في المراتب والوظائف الخ . وكلهم زاغوا ولتطخوا لان ليس فيهم من يطلب الله (مزمور ١٣) الذي هو وحده غاية للانسان . ففي الله وحده توجد الشرائط المستلزمة لغايـــة الانسان الكاملة القائمة بها سعادته . لان لغاية الانسان القصوى خمسة شروط الاول ان يرتاح الانسان فيها الثاني ان تكون مقصودة لذاتها الثالث ان تنفي كل شر الرابع ان تكون دائمة الخامس ان تكون عامة كافية للجميع . قيل اولاً ان يرتاح الانسان فيها لان لكل شيء غاية يرتاح فيها وبدونها لا يجد له راحة فلو دفعت حجرًا الى العلاء لرأيتهُ قلقًا مضطربًا لا يهدأ حتى يرجع الى الارض مركزه وغايتهِ والسمك لا يعيش خارج الماء لان هناك غايتهُ والطير لا يستريح في قفص مالم يكن طليقًا حرًّا وهذه غايتهُ والعضو الزايغ عن مركزه لا راحة له ولا راحة للمسافر حتى يبلغ غاية سفره . وهكذا تقول عن المريض الذي يتحمل مرّ الادوية ولا يرتاح الا بصحتهِ الخ . والحال ان النفس لا ترتاح الا في الله غايتها فمهما حصل الانسان على ملاذ جسدية واملاك وخيرات وكرامات فلا يشبع بها ولا يرتاح بل دائمًا يطلب زيادة . لقد طالما سمعنا ذلك الفقير المديون يلتمس من الله قائلاً يا رب وفق اعمالي لأفي ديوني ولا ابتغي زيادة بل اخصص حياتي لخدمتك فاذا اعطاه الله مطلوبهُ أيكتفي بما كان يشتهي كلاَّ بل تراه يجدد الطلب ليحصل على راس مال فائض ليكون بمثابة اقرانهِ وخلانهِ . واذا زاده

الرب مطلوبهُ يرغب اكثر · ومثلهُ يكون طالب المراتب والراغب في الملذات فكلما بلغوا مطلوبًا يطلبون اخر نظير المستسقي بقدر ما يشرب ماء بقدر ذلك يزداد شوقًا اليه. فاذًا ليس شيء من هذه الاباطيل بغاية الانسان. فالله وحده يكفيه ويشبعهُ. ولهذا كان داود النبي يقول واشبع اذا ظهر لي مجدك · وكان القديس اغوسطينوس يكرر هذا الكلام قائلاً يا رب خلقتنا لاجلك ولايزال قلبنا متقلقلاً حتى يصل اليك

قيل ثانيًا ان الغاية يجب ان تكون مقصودة لذاتها والحال ان كل ما ذكر من الخيرات يُقصد لغيره لا لذاتهِ فالمال لا يُحب لذاته بل لانهُ راجع لقضاء الحاجات · والاكل لحفظ الصحة ويرغب في الدواء لانهُ يفيد لاعادة الصحة ويزيل المرض

قيل ثالثًا ان الغاية تنفي كل شر والحال ان الخيرات الزمنية كلها شرور فاما يسبقها الشر او يرافقها او يتبعها فكم يسبق جمع الاموال من شدة الاهوال فنرى طالب المال يخاطر في الاسفار برًا وبحرًا تاركًا وطنهُ العزيز واهلهُ المحبوبين متحملاً مشقات اسفاره · ونراه في حين جمعهِ المال يتحمل اكثر الاوقات اثقل الاحمال فكم يتصبب بالعرق حتى يكاد يجبل بعرقهِ تراب ارض يدوسها برجليهِ . وكم من المخاطر تطرأ على ما تحصل من المال فاللصوص تسرقهُ والبحار تغرقهُ ويد الضياع تبدده واكبر الشرور يكون عند فقده فكم من التحسرات تعقب الكسرات وكم من الغموم تستولي على من اضاع مالهُ وكم من غني لولا قنيتهُ ما دنت

منيته فيقتلونهُ ليأخذوا امواله ولهذا قد قال الرسول اصل الشرور محبة المال (تيموتاوس ص ٦) والشر الاعظم الذي يستولي على من علق قلبهُ بمالهِ هو تركه عند انتقالهِ من هذه الحياة الى الحياة الآخرة

قيل رابعًا ان الغاية يجب ان تكون دائمة والحال ان الاخبار يبين لنا جليًا انه ليس شيء من خيرات هذه الارض وعظماتها بدائم لان شكل هذا العالم يزول (قرنتية اولى ص ٨ ع ٣١) فلم تدم الاموال لقادون ولا القدرة لشمشون ولا الصولة لذي القرنين ولا العظمة لهامان ولا الفخر لسليمان ولا الفصاحة لسحبان وشيشرون بل زالت بزوالهم

قيل خامسًا ان الغاية يجب ان تكون كافية الجميع ولا شيء من خيرات الارض يكفي الجميع لانك ترى الفقراء اكثر من الاغنياء والخدم اكثر من المخدومين والمرؤُسين اكثر من الروساء والمضنكين بالتعب اكثر من المتنعمين بالراحة · والذين يذيبهم الغم والهم اكثر من الذين يحيون بالسرور · فاذا غاية الانسان المتوفرة فيها جميع الشروط المذكورة هي ان يكون الانسان متحدًا مع الله مستعملاً قواه كلها لتمجيده تعالى لانه أُعطي الفهم ليعرفه تعالى والذكر ليتذكر احساناته والارادة ليحبه · والاعين ليشاهد عجائبه واللسان ليمدحه ويسبحه · فانظر ايها الانسان كيف استعملت عقلك وبمَ استخدمت حواسك أَلمجده تعالى ام لاهانتهِ · وتذكر ان من لا يخدم الخالق لا يستحق ان تخدمه المخلوقات فلا يستحق ان يتمتع بضياء الشمس ولا بنور الكواكب وتاثيراتها ولا ان تعطيه الارض غلاتها بل يستوجب ان تقوم ضده جميع المخلوقات وان تنزع منه المواهب

والنعم والصحة حتى الحياة التي لم يستخدمها لخدمة ربه لان كل شجرة لا تثمر ثمرة صالحة تقطع وتلقى في النار

فلنفرض لو ان ملكًا ارسل وزيره الى مدينة ليتمم مأمورية القيت اليه وكان هو المسؤول بها دون غيره مأمورية يهم الملك اتمامها وهي ان يبني لهُ في تلك المدينة قصرًا جميلاً محصنًا بالابراج والقلع لمدافعة الاعداء مزينًا بالزينات الكافية اللائقة بشخص الملك المستعد ان يسكنهُ عند كمالهِ وفوض اليه ان ياخذ النفقات جميعها من خزينة الملك وياخذ الهندسة الواجب ان يقيم البناء على هيئتها غير انه لم يعين له الزمان لاتمام العمل بل حرصهُ بان لا يضيع ولا يسيرًا من الوقت وانه يلتزم ان يقدم له حسابًا مدققًا متى استدعاه لذلك فاذا اخذ ذلك الوزير بدرق الاوقات ويصرف الاموال بالسكر واللعب ولم يتمم شيئًا من بناء القصر بل طالما بدد السنين بالملاهي · وعلى حين غفلة منهُ اذ كان على احد الينابيع مع زمرة من ارفاقهِ غائصًا في بحبوحة الافراح واذا بامر الملك اليه ان يحضر حالاً فماذا يحل بهِ من الخوف والرجفة ولدى بلوغه امام الملك ماذا يجاوب فلا يقدر ان يعتذر بشيء · لا من قلة الاموال لانها كانت كافية ولا من قصر الزمان لانهُ اصرفهُ سدًى فالملك اذا لم يأمر بقطع راسهِ فانهُ يامر بسجنهِ مؤبدًا . فالملك هو الله والوزير هو الانسان والمدينة هي هذا العالم والبناء المطلوب هو برج الكمال المسيحي والنفقة هي مواهب الله جميعها اي النفس بقواها والجسد وصحته وخيرات هذا العالم والمواهب الفائقة الطبيعة كنعمة الايمان . والهندسة هي

الشرائع والوصايا· فيالشقاوة من يصرف حياته باللهو والاهتمام بالدنيا ولم يعتنِ بان يجعل نفسهُ مزينة بافعالها الصالحة لتصلح ان يسكن فيها الرب ولم يحفر اساسًا واحدًا يوطد ايمانه عليه· · · فمن الضرورة ان يلقيهُ الرب في سجن موبد لانهُ لم يتمم الغاية المختومة عليهِ اوقاكم الله من مثل هذا الاهمال المهلك وجعلكم من النشيطين المستحقين ان يرثوا الملك الابدي آمين

العظة السابعة والعشرون

« في وجود النفس وخلودها »

ماذا ينفع الانسان اذا ربح العالم كله وخسر نفسهُ
(متى ص١٦ ع٢٦)

انهُ من الواضح ان للانسان نفسًا عاقلة غير قابلة الموت· يثبت ذلك اولاً كون الانسان يفتكر ويحب ويبغض وهذه لا يمكن صدورها من الجسد لان الجسد مادة ويستحيل على المادة ان تفتكر الخ· وذلك لان الفكر مثلاً يكون واحدًا واجزاء المادة متعددة فكان من اللازم ان تكون الافكار بعدد الاجزاء المفتكرة وهذا محال فاذًا المفتكر في الانسان هو جوهر بسيط· ولا يمكن القول ان كل جزء من المادة

افتكر جزءًا من الافتكار فحصل من مجموع الاجزاء افتكار واحد لانهُ من اين المعرفة لاحد الاجزاء بما افتكره الجزء الآخر وكيف السبيل الى الاجتماع وفوق ذلك ان الافتكار غير متجزىء .

يثبت ثانيًا ان المادة لا تفعل الا بالحاضر وبالمادي . والحال ان التصورات والافتكارات تمتد الى اشياء بعيدة جدًّا كما يبان عندما نتذكر الاعصار الماضية والامصار الشاسعة ونتصور الامور المجردة عن المادة كتصور الباري تعالى والفضيلة

يثبت ثالثًا من الكتاب المقدس قال الله فلنصنع انسانًا على صورتنا ومثالنا (تكوين ص ١) . والحال لا صورة مادية لله بل ان الله روح عارٍ عن المادة فاذًا للانسان نفس عارية عن المادة .

فينتج ان النفس في الانسان غير مائتة لان الموت هو انحلال ولا ينحل الا المركب . والنفس غير مركبة فاذًا غير مائتة من ذات طبعها ولا يقدر مخلوق ان يميتها لان موت النفس المفترض يكون بارجاعها الى العدم ولا يعيد الى العدم الا الذي أبدع من العدم ولا يفترض ان الله يرجعها الى العدم لئلا تكون اقل حظًّا من جميع المخلوقات لان المخلوقات تتحول من حال الى حال كما نرى تحويل الحطب مثلاً الى رماد وجسم الانسان الى تراب . ولا يليق بحكمة الله ان تلاشيها لانها تكون وجدت لغاية وتلاشت قبل الحصول على غايتها . ولا يليق بالعدل الالهي ان يلاشيها من غير ان يجازي البارة ويعاقب الاثيمة والحال ان هذا لا يتم في هذه الحياة حيث نرى غالبًا

الائمة مشرفين موعبين خيرات والابرار مظلومين مهانين كأن النجاح اجر الخطية والبلوى جزاء البر والفضيلة فاذاً النفس غير مائتة وتجازى بحياة اخرى . فدوام النفس وعدم موتها هو اساس كل فضيلة وعكسه هو اساس كل رذيلة . فالتسليم بخلود النفس هو كلي الصواب قال الحكيم اذكر خالقك في زمن حداثتك قبل ان يعود التراب الى الارض ويرجع الروح الى الله (جامعة ص ١٢) وقال السيد المسيح لا تخافوا ممن يقتل الجسد ولا يستطيع ان يقتل النفس (متى ص ١٠) انا اله ابائك ابرهيم واسحق ويعقوب والله ليس اله اموات بل اله احياء (متى ص ٢٢ ع ٣٢) فلو لم يكونوا احياء بالنفوس بعد موت الاجساد لما استطاع ان يدعو نفسهُ اله الاحياء وهذا راي جميع العلماء الذين تشرفوا بالحكمة وصلاح السيرة ولم ينكره الا الاغبياء الذين اعمتهم رذيلتهم

واتفاق الشعوب والامم على حياة اخرى هو حكم قاطع بخلود النفس وعدم موتها . والميل المغروس في النفس للديمومة دليل قطعي على خلودها لان الله لا يخلق شيئًا عبثًا وباطلاً . وعليهِ فقد وجب الاهتمام بخلاص النفس والاعتناء بخيرها اكثر من الاهتمام بكل ما سواها لان هذا هو الامر الوحيد المطلوب كما قال الرب في انجيله المقدس مرتا مرتا انكِ مهتمة مجتهدة بامور كثيرة والمطلوب هو واحد (لوقا ص ١٠ ع ٤١) . فنرى الاهتمامات في الدنيا كثيرة فالتجار يهتمون بتوسيع نطاق تجارتهم ويخاطرون بحياتهم اذ يسافرون براً وبحراً

ويتحملون مشاق الاسفار ليزيدوا ربحًا وليس هذا هو المطلوب لان حياة الانسان ليست بكثرة مالهِ . فذاك الغني الذي اخصبت كورته وجمع غلات كثيرة كان يقول لنفسهِ يانفسي لكِ خيرات كثيرة موضوعة لسنين عديدة استريحي كلي واشربي وتنعمي فسمع صوتًا يقول لهُ ياجاهل في هذه الليلة توخذ نفسك منك والذي اعددته لمن يكون . . . ونرى الملوك يثيرون الحروب ويسفكون الدماء لتوسيع ممالكهم وليس هذا هو المطلوب ومثلهُ اهتمام ارباب الصنائع واصحاب الحقول وغير ذلك من الامور الزائلة وليس شيء من ذلك هو المطلوب بل المطلوب هو واحد اي الاهتمام بخلاص النفس . لانها شريفة . وثمينة . ووحيدة . فهي شريفة لانها حاوية في جوهرها صورة كمالات الخالق فكما ان الله روح موجود في كل مكان وبوجوده يمنح الحياة والحركة لكل ذي نسمة وحركة هكذا النفس موجودة في كل الجسد وتمنحهُ الحياة والحركة . وكما ان الله واحد مثلث الاقانيم هكذا النفس واحدة مثلثة القوى اي العقل والذكر والارادة . وكما ان الله دائم الوجود هكذا النفس دائمة لا تموت فكما ان النفس قد شابهت الله في جوهرها فوجب ان تشابهه في القداسة والكمال كما قال تعالى كونوا كاملين كما ان اباكم السماوي هو كامل . فاذًا من لا يهتم بكمالها فهو يحتقر صورة الله ومن يحتقر صورة الملك ويدوسها في الوحول يعاقبهُ الملك ومن يدنس نفسهُ في حمأة الخطية فيعاقبهُ الرب . فلو كان للملكِ ابنة وحيدة معدة لتتقلد زمام الملك وقد زينها ابوها بزينات فاخرة وجواهر ثمينة وفوَّض امر ملاحظتها وتدبيرها

الى معلمين من اشراف المملكة واسكنها قصرًا باذخًا واعدَّ لها كل ما يلزمها واما هي فكانت لخفتها تمضي سرًّا وتلاعب خنزيرًا متمرغة معهُ في الوحول والاقذار فابوها يحرمها من الملك . هذه حال النفس الملطخة في اقذار الذنوب وقد كان الرب زيَّنها بنعمتهِ الالهية واسكنها في قصر هذا العالم واقام الملائكة لحراستها والكهنة لخدمتها واعدَّها لتملك في السماء . واما هي فاخذت تلاعب هذا الجسد متنازلة معهُ الى ارتكاب الخطايا والشهوات فلا ريب ان اباها السماوي يحرمها ذلك الملك الابدي

النفس ثمينة ومن مألوف العادة ان يعرف ثمن الشيء من ثلاثة اولاً من معرفة المثمنين ذوي الخبرة ثانيًا من فوائده ومنافعهِ ثالثًا من حسد الغير لصاحبهِ مثلاً لو اردنا ان نعرف ثمن بستان فنستحضر احد المقومين الخبيرين ليراه ويوضح قيمتهُ او ننظر الى ايراده لنعرف ثمنهُ من ريعهِ . او من اعتبار عموم من يعرفهُ وتطويبهم لصاحبهِ وحسدهم اياه عليه . هكذا يمكننا ان نعرف قيمة النفس اولاً ممن يعرف ثمنها حقيقة وهو الله الاب الذي قدم ابنهُ الوحيد لافتدائها والابن الذي اشتراها بدمهِ الثمين . قال الرسول أنكم قد اشتريتم بثمن كريم (قرنتية ص ٨) . ثانيًا من فوائدها لانها هي التي بها يمتاز الانسان عن البهيم وبها يخترع الاختراعات الغريبة كالعلوم والصنائع والاكتشافات الخ . وحسبنا دليلاً على قيمة النفس اجتهاد الشيطان على اكتسابها ولو بدفع ملك العالم باسره كما صنع مع السيد المسيح لما

رفعهُ الى جبل عالٍ واراه ممالك الارض وقال لهُ اني اعطيك هذه كلها ان سجدت لي سجدة واحدة . . . فالخاطي وحده لا يعرف قيمتها بل يبيعها بثمن بخس اي بطمع يسير او احتداد خلق او لذة دنية تمرُّ مرَّ السحاب هو وحده يضع هذه الجوهرة الكريمة في بيت مفتَّح الابواب اي بجسد مطلق الحواس العين مفتوحة للمناظر الخطرة والآذان لاستماع الاباطيل والفم للشتم واللعن الخ

النفس وحيدة لان وجود نفسين مستحيل في الانسان اذ الواحدة تكفي لقيام المركب الانساني فتكون الثانية خلقت عبثاً والله لا يخلق شيئاً عبثاً . ونرى الطبيعة ضاعفت اكثر اعضاء الانسان كالعين والاذن الخ . فاذا فقئت عين تبقى اخرى او قطعت رجل تستمرُّ الثانية خلافاً للنفس فانها وحيدة فاذا خسرها الانسان خسر كل شيء فيجب لها الاحتراس كما يحترس على الولد الوحيد . كثيراً ما نرى الاب يخاطر بذاتهِ وقاية لابنهِ ولاسيما اذا كان وحيداً فيجوع ليطعمهُ ويتعب ليريحهُ ويشقى ليسعده ويا للمصيبة الكبرى اذا مرض ذلك الولد الوحيد فان والده لا يشفق على مال ولا يبالي بسهر ولا يتعب بحيث يشفى وحيده . فلم يكن لام طوبيا راحة ولا سكينة بغياب ابنها فلم تكن تذوق لذة الطعام ولا طيب المنام بل كانت في كل يوم تصعد على الروابي والسطوح املاً بان تراه قادماً فطالما اذرفت الدموع الغزيرة من عينيها وطالما قرعت صدرها ندماً على ارسالهِ بتلك السفرة وكانت تقول لماذا ارسلناك يا وحيدنا انت رجاؤُنا وعصا شيخوختنا وكان زوجها يسليها

ويأمنها بقوله لا تبكي يا امرأة فان ابننا يعود سالمًا والذي يرافقهُ امين فمع كل ذلك ما كان يروق بالها ولا يهدأُ روعها لان ابنها كان وحيدًا والذي كان مرافقًا لابنها كان الملك رافائيل . واما الخاطي الذي تغرب عن نعمة الله بسبب الخطية فنفسهُ الوحيدة اضحت بيد عدوها الشيطان ولا يحزن باكيًا على حالها التعيسة

ان احد الملوك قد طلب بواسطة وزيره من البابا بناديكتوس الثاني عشر نعمة لم يكن البابا قادرًا على منحهِ اياها فاجاب قائلاً اكتب ايها الوزير الى الملك انهُ لوكان لي نفسان لكنت اخسر الواحدة حبًا بالملك وابقي الثانية لذاتي ولكن نفسي وحيدة فلا احب ان اعطيها لغيري واكون بدون نفس وقال ترتوليانوس لا اشتري اكليلاً بفقد راسي كأنهُ يقول اذا قدم لي العالم كثرة الخيرات والكرامات ورأيت اني اهلك نفسي باكتسابها فغير ممكن ان اسلم بهذا . والقديسة ترازيا كانت تقول ان اكثر ما يشغل بالي اعتباري ان لنا الهًا واحدًا وموتًا واحدًا ونفسًا واحدة . فاذا اغضبنا هذا الاله استحال علينا ان نستعيذ من باسهِ بآخر واذا ساء موتنا تعذر علينا اصلاحه واذافقدت نفسنا فلا يعود سبيل الى ارجاعها . قال القديس فرنسيس سافاريوس انهُ يوجد فى العالم خير واحد وشرٌ واحد فالخير الوحيد هو خلاص النفس والشرّ الفريد هوهلاكها ولذلك كان المرتل يتضرع الى الله قائلاً واحدة سألت من الرب واياها التمس وهي ان اسكن في بيت الرب الى طول الايام (مزمور ٢٦ ع ٤) انهُ لامر يستحق الاسف والبكاء وهو ان

الانسان لكي يقيت جسدًا باليًا يعاني اتعابًا ومشقات باهظة والنفس الشريفة والغير المائتة يتهاون بها يقيت جسده كل يوم ويترك نفسهُ اسابيع تتضوَّر جوعًا يكسو جسده بالملابس ويدع نفسهُ عريانة من الفضائل . يداوي جسده المريض ونفسهُ اشبه بايوب المبتلي بالجراح والقروح لا يداويها . ينظف جسده لا بل ثوبهُ من الاوساخ ونفسه قاذورة المآثم والشرور كانها نفس عدو او كانه بلا نفس يعدُّ لجسده منزلاً مزينًا ومنزل نفسه جهنم . آهًا من يعطيني عبرات الدموع السخينة لابكي على هذه الغباوة الكثيفة او من يعيرني كلامًا لارثيها ونوحًا لاندبها فياليتني استطيع ان اطبع على صفحات القلوب الآية الالهية ماذا ينفع الانسان . واسأل الله ان يمنح الجميع معرفة قيمة نفوسهم والاجتهاد بخلاصها وربحها السعادة الخالدة فلنعطَ ذلك بشفاعة مريم البتول ونعمة الثالوث الاقدس . . . .

العظة الثامنة والعشرون

« في وجود الملائكة وسقطتهم »

قال السيد المسيح رأيت الشيطان ساقطًا من السماء مثل البرق

(لوقاس ١٠)

انهُ لمن الثابت بالبرهان والوحي انهُ يوجد ملائكة فاولاً كما يوجد

في المخلوقات جواهر جسمية تامة كالحجر والتراب والشجر ويوجد جواهر مركبة من روح وجسم كالانسان فلكي يكون صنع الله كاملاً وجب ان يوجد جوهر روحي صرف وهذا هو الملاك

ثانيًا قال الكتاب المقدس وصنع الله ملائكتهُ ارواحًا وخدامهُ نارًا تتقد · وخلق كل ما في السماء والارض ما يرى ومالا يرى (كولوسايس ص ١) · وقال السيد المسيح لتلاميذه ان الارواح تخضع لكم (لوقاص ١٠) نعم ان الكتاب الالهي لم يصرح بالزمان الذي فيه خلقت الملائكة لكن يظهر انهم خلقوا في اليوم الاول بدليل قولهِ في اليوم الاول خلق الله النور وفصل فيما بين النور والظلمة فيراد بالنور الملائكة وبقوله فصل بين النور والظلمة تمييز الملائكة الصالحين ذوي النور عن الملائكة الطالحين اصحاب الظلمة .

وهولاء الملائكة زينهم الله بالمعرفة والحرية وكمال البهاء وغاية خلقتهم ان يمجدوا الله بخضوعهم له فبعضهم نسبوا كمالهم لذاتهم وجعلوا غايتهم بعظمتهم . وتكبرهم هذا جعل الله ان يواضعهم وينتقم من تمردهم في عذاب ابدي ليمجدوا عدله الالهي وعليه وجب ان نوضح كم سقط من الملائكة وكيف كان سقوطهم وكم يجب ان نتحذر من الكبرياء التي كانت سبب هلاكهم الدائم

قال يوحنا في سفر الجليان (ص ١٢) وصارت حرب عظيمة في السماء ميخائيل وملائكتهُ قبالة التنين والتنين وحزبه قبالة ميخائيل وجنوده فسقط ذلك التنين الحية القديمة . وجذب بذنبه ثلث نجوم

السماء فيراد بالتنين لوسيفورس الذي جذب برأيه الوخيم ثلث الملائكة فهبطوا الى جهنم · واما سبب سقوطهم فهو الكبرياء الناجمة عن حسدهم للطبيعة البشرية اذ اوحي اليهم ان كلمة الله يتخذ جسدًا من الجنس البشري وتجثو له كل ركبة من في السماء والارض فلوسيفوروس قد تعظم بكمالهِ وبهائهِ وقال ارفع كرسيَّ واكون شبيهًا بالعلي · فقاومهُ ميخائيل قائلاً من مثل الله . وحينئذٍ خلق الله جهنم وافرغ فيها جامات غضبه وانقضت صواعق عدلهِ الالهي على هامة ذلك التنين المتكبر وجنوده واسقطهم عن كرامي مجدهم الى دركات الجحيم مقر عذابهم الدائم . أرأيتم كيف ان الكبرياء اسقطت ملوكًا عن عرشهم السامي · وقلبت تاجاتهم وصيرتهم مولولين مذعورين . وحولت جمالهم الى قبح جسيم وعزهم الى ذل وشرفهم الى عار واحتقار . فيا ما ارعب صاعقة عدل الله التي انقضت وتنقض يوميًا على الخطاة ومع ذلك قلما يرهبونها

قال ابن سيراخ (ص ١٠) ينبوع كل الخطايا الكبرياء ومن رسخت فيه فاض ارجاسًا لانها تهين الله وتسلب المجد الذي ما اراد تعالى ان يعطيه لغيره كقوله بفم اشعيا النبي كرامتي لا اعطيها لغيري (ص٤٨ ع ١١) الكبرياء منبع الرغبة في اعتبار العالم واول خطية حركت الله للغضب وسببت وجود جهنم واخرجت آدم من الفردوس · هي علة لاحداث الانشقاقات والهرطقات وهي كالبرج تختفي فيها سائر الخطايا . فالمتكبر يبتغي استحسان كل ما يصنعهُ . يغض النظر عن نقائصهِ ويتظاهر بما ليس فيه من الفضائل · فمعظم رغبته وقصارى

منيتهِ ان يجتذب نظر الناس اليهِ وان يظهر افضل مما هو عليه . فيزدري بقريبه ويعاملهُ بالصلف والنخفخة لظنهِ بنفسهِ انه اعلى منهُ واعلم واقوى منهُ واقوم ويخاطب الناس بعتو وتشامخ ويبدي لهم الاحتقار ومن ذلك ينتج عدم الطاعة فلا يمتثل لاوامر روسائهِ ولا يقبل نصيحة من ينصح له فكل سلطة تجرحه وتقوده الى التمرد ويظن بنفسهِ انه لم يخلق ليطيع بل ليطاع . فما اقبح هذه الرذيلة التي تجعل صاحبها ممقوتاً من الله والناس فان الله جل شأنه يسرُّ بان يهدم المتكبرين ويذلهم وشاهده ما صنع بالملائكة المتكبرين . وباولئك القوم الذين بنوا برج بابل اذ قالوا تعالوا نبنِ لنا مدينة وبرجاً راسهُ الى السماء ونقم لنا اسماً كيلا نتبدد على وجه الارض كلها (تكوين ص ١١) . فنزل الرب وهدم ذلك البرج البابلي وبلبل السنتهم وشتت شملهم من هناك على وجه الارض هكذا يصنع الله بمن يفتخر في البنايات الشامخة . وفرعون الملك المتكبر القائل من هو الرب فاسمع لقوله واطلق اسرائيل (خروج ص ٥ ع ٢) عاقبهُ الله بضربات هائلة وغرقهُ مع فرسانهِ ومركباتهِ في البحر الاحمر . وهامان المتكبر كان عقابهُ ان يصلب على خشبة (استير ص ٧) واليفانا قُطع راسه بيد امرأة (يهوديت ص ١٣)

الكبرياء جرثومة جميع الخطايا لانها هي التي تصد ذاك المثقل الذمة بالمال الحرام عن الرد لخوفهِ ان يقل ماله فيسقط عن مقامهِ وهي التي تجعل الحاقد ان يابى المغفرة لئلا يحط شانه وما من سبب للراشي والمسرف بالنفقات والمبتغي المراتب السامية الا الكبرياء واذا تخصنم

عن سبب العداوات المتعنقة التي تخرب البيوت وتبدد الاموال وتشتت شمل العيال فتجدوه في الكبرياء . فما اصعب الانتصار على هذا العدو الوقح الذي لا يستحي فكل الرذائل تطلب الاستتار واما الكبرياء فتحب ان تظهر في كل مكان في الشوارع والبيوت وفي المعابد والكنائس وفاعلها يكاد الا يعرف شرها ولا يدرك جسامتها فلذا لا يتركها فيسمح الله بسقوطهِ في افظع الخطايا ليذل تكبره كما جرى بداود و بطرس لان جزاء المتكبرين سقوطهم . فجميع الخطايا تقبل مشاركة غيرها فالسارق يشترك مع السارق والسكير مع السكير والدنس مع نظيره واما متكبر ومتكبر فلا يشتركان ولا يسكنان في بيت واحد بل يكونان اقبح من الوحوش التي يساكن بعضها بعضاً واحط منزلة من الطيور التي تستانس بنظائرها . فلم يتحول بختنصر الملك الى ثور يرعى عشباً الا من كبريائهِ (دانيال ص ٤ ع ٣٠)

ان الله يذل المتكبرين باحقر الوسائط فاذلَّ كبرياء فرعون بضفادع حقيرة وليس باسود ونمورة واذلَّ بطرس بجارية بوابة لا بسيوف بواتر ولا بقواد وعساكر . وجندل جليات الجبار المتكبر بمقلاع راعٍ صغير وقطع راس اليفانا المتجرف بيد ارملة يهودية

والمتكبر يعلن من ذات تكبره وتشامخ انفهِ انه احقر واذلُّ من الجميع لانه لا يرتفع من الاشياء الا الدني فترى التبن يرتفع فوق القمح على البيدر لا لانه ارفع منه بل لانه اخف منه واي الاغصان يرتفع الى العلاء الا الخالي من الثمر فلهذا يصيبه الشر لان البرد يضر ما علا

من الاغصان التي لا ثمر بها بخلاف المنحنية المثمرة . والصواعق تبيد المرتفعات

وفي الناس من يفتخر بجودة عقلهِ ولا يحق له الافتخار بهِ لانه اذا سمح الله فيعرض عليهِ الجنون فيفقده ومع ذلك فاي الناس اعقل من الملاك الذى صار شيطانًا . ومنهم من يتكبر بجمال جسده ولا هذا يحق الافتخار بهِ لانه يُفقد بادنى مرض ولا يبعد ان يكون جمالهُ سببًا لهلاكهِ لان جمال شعر ابيشالوم كان سبب موتهِ . ومنهم من يفتخر بملبوسهِ وهذا من غاية الجنون ترى اي فخر بخرقة هي ضماد للقروح المنتنة . أالبس هذا الثوب الذي تتعظمين بهِ يا ابنة حواء مكان ذاك الجلد الذي تسترت به امكِ . واكثر المتعظمين يفتخرون بما عندهم من المال ولكن كيف يتعظم الانسان بشيء مودوع عنده . . ما الذي لك ولم تاخذه (قرنتية اولى ص ٤ ع ٧) . وهكذا قل عن المتعظمين بشرف الاصل لماذا يتكبر التراب والرماد (ابن سيراخ ص ١٠ ع ٩) . قال ايوب دعوت الفساد ابي وامي وقلت للدود انت اخي واختي (ص ١٧ ع ١٤)

حكي عن رجل كان من اصل شريف غير انهُ بقبح سيرتهِ قبح شرف حسبه وسوّد محاسن اصلهِ ففي ذات يوم اخذ يفاخر متباهيًا باصلهِ ويحتقر بانسان كان ذا عقل وذكاء وشهيرًا بالفضل وحسن المزايا بيدَ انهُ لم يكن من اصل شريف فهذا الرجل الرزين العاقل لم يسخط من ذاك الذي عيره واستهزأ بهِ بل اجابهُ متبسماً ان كان عدم اصلي يشينني فانت تشين اصلك فاصلي انا ابتدأ فيّ واصلك انت

انتهى فيك . فالشرف الحقيقي يقوم بالفضيلة والفضل لا بالمراتب وشرف الاصل وبالاتضاع لا بالارتفاع . فموسى النبي لما درى الرماد في الجو حدث ضربة على المصريين (خروج ص ٩ ع ٨) . وانت الرماد متى ترفعت بالكبرياء تصاب بضربة شديدة

فكما ان الكبرياء هي جرثومة جميع الرذائل فالاتضاع اساس كل الفضائل لان المتواضع يعرف ضعفهُ فيحتقر ذاتهُ ويرغب في ان الغير يحتقرونهُ ايضاً . وكيف ما اتجهنا نرى سبباً يواضعنا فاذا نظرنا الى الجسد نراه موضوع المعائب والمصائب خرج من التراب ويعود الى التراب . واذا امعنا النظر في حالة نفسنا نرى فيها جهل العقل وفساد القلب وميل الارادة الى الشر وعدم الثبات في عمل الخير وما عندنا في ذواتنا الا الخطية والعدم وان وجد فينا شيء حسن فذلك منة من الرب . فمواهب الطبيعة مثل جودة العقل واصالة الراي وصحة الجسد هي من الله ومواهب النعمة كالايمان والرجا والمحبة هي من الله . فمن تأمل بهذه الحقائق تأملاً شافياً فبلا ريب يبتعد عن الكبرياء وطلب المجد الفارغ . الطوبى لمتواضعي القلب فانهم يغنمون من بركة الرب والويل للانفس المتكبرة المتشامخة فانها تفيض ارجاساً . اوقاكم الله من وباء العجرفة

العظة التاسعة والعشرون

« في سقطة آدم »

رجل كان نازلاً من اورشليم الى اريحا فوقعت عليهِ اللصوص فاستلبوهُ وجرحوهُ وتركوهُ بين حيٍّ وميت
(لوقا ص ١٠ ع ٣٠)

الرجل الذي وقعت عليه اللصوص هو ابونا آدم واللصوص هم ابليس والحية وحواء واورشليم هي حالة السلام والبرّ واريحا عبارة عن هذه الدنيا المتقلبة واما ما سلبتهُ منهُ اللصوص فهي المواهب التي زينهُ بها الرب وجرحوهُ بقوى نفسهِ وجسده وتركوهُ وفيهِ قليل من الروح اي رجاء الخلاص . فمرَّ عليهِ كاهن تعداه ومضى اي مرت عليه الشريعة الطبيعية مدة الفين سنة ولم تقدر ان تشفي جراحه . ثم مرَّ عليه لاوي فتجاوزه ومضى اي الشريعة الموسوية ولم تستطع ان تضمد جراحه الى ان مرَّ عليه سامري اعني يسوع المسيح الذي دعوهُ سامرياً فرأف به وضمد جراحه وصبَّ عليها خمر المحبة وزيت الشفقة وحملهُ الى الفندق المراد به الكنيسة وبات عنده تلك الليلة معتنياً به اي انهُ استمرَّ مع الجنس البشري مدة ثلث وثلاثين سنة يشفي المرضى ويطهر البرص ويقيم الموتى . . . ولدى ذهابه الى السماء سلم دينارين اي اسراره

المقدسة الى صاحب الفندق وهو رئيس الكنيسة قائلاً لهُ اعتنِ بهذا الجريح بالخطية داوِ الخطية الاصلية بسر العماد والخطية الفعلية بسر التوبة .وان انفقت عليه اكثر فاعطيك عند عودتي في مجيءِ الثاني للدينونة وعليه وجب ان نبين حالات آدم الثلاث اي قبل سقطته وفي حال السقطة وبعدها

ان الله صنع قبل ان يخلق آدم ما يصنعهُ ملك غني وله ولد في الغربة فقبل ان يحضر ولده يهيء له قصراً جميلاً مزيناً بافخر الزينات لاستقباله لانهُ تعالى خلق هذا العالم بمنزلة قصر وزينهُ بالشمس والقمر والكواكب والابحار والانهار والزهور والاثمار ... ثم خلق آدم ووضعهُ في مكان يدعى الفردوس ويالهُ من فردوس فيه الانهار تجري والنسيم يسري والاثمار شهية والروائح ذكية .وقال لا يحسن ان يكون الانسان وحده فاصنع لهُ عوناً بازائه فاوقع الله سباتاً على آدم فنام فاستلَّ احدى اضلاعه وسد مكانها بلحم وبنى الرب الاله الضلع التي اتخذها من آدم امرأة فاتى بها آدم (تكوين ص ٢) . وتوَّجه الرب بسبع مواهب كقول داود بالمجد والكرامة كللتهُ (مزمور ٨) وهي هذه

الموهبة الاولى النعمة التي كان بها باراً وصديقاً لله وابنه بالذخيرة النعمة التي كانت تغنيه عن ثوب يلبسهُ وتحجب اعين الناظرين عن عريه

الموهبة الثانية موهبة الحكمة التي بها كان يدرك الاشياء بعللها

الطبيعية من دون كتاب قرأه ولا معلم اخذ عنهُ. الحكمة التي كان يعرف بها الخير ويميل اليه والشر ويحيد عنهُ

الموهبة الثالثة خضوع الجسد للروح كخضوع العبد لمولاهُ والآمة لسيدتها

الموهبة الرابعة السهولة في عمل الخير والصعوبة في صنيع الشر

الموهبة الخامسة عدم التعب وعدم الخوف وعدم الحزن فكانت الارض تعطي ثماراً كافية من ذاتها لقوتهِ فلم يكن ملتزماً ان يحرثها ليحصل معاشهُ بعرق جبينهِ وكدّ يمينهِ وكانت المخلوقات تخافهُ وتخضع لهُ لانهُ المسلط عليها كقول المرتل وعلى اعمال يديك سلطتهُ واخضعت كلاً تحت قدميهِ. ولم يكن سبب ليحزنهُ لان الورد كان خاليًا من الشوك. والحية كانت بدون سم وما كان الذئب ليسطو على الخروف ولا الباشق على العصفور

الموهبة السادسة عدم الموت وعدم الامراض الطبيعية لمعادلة العناصر بعضها لبعض فلم يكن الدم يتغلب على البلغم ولا الصفراء على غيرها وكان ناجيًا من الموت لانهُ كان يوجد في ذلك الفردوس شجرة تدعى شجرة الحياة من اكل منها يحيا الى الدهر. فالموت الذي يفرغ الدود ويملأ القبور. الموت الذي يساوي بين الملك والمملوك وبين الغني والفقير السعلوك. الموت الذي ما ترك عينًا بلا دمعة ولا قلبًا بلا صدعة ولا ابًا بلا كسرة ولا امًا بلا حسرة فهذا كان آدم ناجيًا منهُ

الموهبة السابعة الوعد بالوراثة الابدية اذ كان الله عتيدًا ان يرفعهُ

هو وذريتهُ الى السماء من غير موت . فياما اسعد تلك الحالة التي كان آدم حاصلاً عليها فكان نظير ملك يجلس على عرش عظمتهِ السامي وجميع المخلوقات جنود امناء ورعايا خاضعة لامره يحكم عليها بما يجب ويشاء من دون معارض ولا مخاصم يتخطر ببرفير نعمته الثمين مسروراً باكليل مجده وكرامته . فهذه حالة آدم قبل السقطة

ولاجل هذه المواهب حسده الشيطان الذي هو منذ البدء قتال الناس واحتال على سلبها منه بهذه الحيلة الخبيثة وهي انه اذ رأى حواء منفردة في البستان ورأى ميلها الى الحية لانها كانت تحبها وتلاعبها فدخل الحية وسأل حواء بلسانها لماذا نهاكما الله عن ان تاكلا من اثمار الفردوس فاجابته حواء من ثمر شجر الفردوس ناكل واما ثمر الشجرة التي في وسط الفردوس فقال الله لا تاكلا منه ولا تمساه كيلا تموتا فقالت الحية للمرأة لن تموتا انما الله عالم انكما يوم تاكلان منهُ تنفتح اعينكما وتصيران كالهة عارفي الخير والشر (تكوين ص ٣) . وما زال الشيطان يحسن لها تلك الثمرة حتى نظرت اليها وتقدمت نحوها ولمستها واستنشقت رائحتها ثم قطفت منها ثم اكلت واخذت منها ثمرة لآدم ولحّت عليه حتى اكل . هكذا يجرب الشيطان فاتاهُ الله سائر الناس

ولما كان اول واجبات الخليقة الطاعة للخالق قد نهى الله ادم عن اكل هذه الثمرة اشعاراً بوجوب الامتثال لامره . ومن كون السعادة لاتعطى الاَّ بمنزلة اكليل ولا يكلل الاَّ المنتصر ولا ينتصر الى المحارب ولا يحارب الا من لهُ عدوٌ فسمح الرب للشيطان العدوّ الالد

ان يدخل الفردوس ويحارب آدم حتى اذا انتصر ادم ينال اكليل السعادة الابدية

فدخل الشيطان الى الفردوس (ولا عجب اذا دخل الى المدن والقرى والبيوت ليجرب الناس لان هذه الامكنة ليست محصنة أكثر من الفردوس ولا رجالها اقدس من ادم ولا نساؤها اتقى من حواء) ليسقط ادم كما سقط هو ويركبهُ متن الطريق التي ركبها واتخذ الحية وحواء وسيلة لبلوغ اربهِ وذلك ان حواء ارادت التنزه في البستان فتركت ادم وانفردت عنهُ فاتاها وحيٌ من الله ان لا تبتعدي عن نظر بعلكِ لان الشيطان يكمن لكِ فتقعين في اشراكهِ فلم تعبأ بهذا الالهام الداخلي بل اقتحمت الاخطار وليس المخاطر محمودًا . وهكذا كثيرًا ما يجرب اولاد حواء ليبتعدوا عمن لهم عليهم حق الملاحظة فتبتعد تلك الامرأة عن نظر زوجها طالبة التنزه في البساتين وعلى الينابيع . تنفرد تلك الابنة للمخاطبة ذات الخطر يبتعد ذلك الشاب عن نظر والديه وينساب في اماكن هي عاصمة الطاغوت الجهنمي وهناك يفاجئهم بغتة ويصطادهم باحبولتهِ واشراكهِ . حواء لم تصغَ لصوت الالهام الالهي بل فتحت اذنيها لاستماع تراتيل الشيطان بفم الحية فلا ريب انها ارتجت عند سماع هذا الصوت الغريب الذي لم تسمعهُ بعد من سائر المخلوقات فكان الواجب ان تسيج اذنيها بالشوك ولا تسمعهُ . فما اكثر الذين يصغون لصوت غريب لم يسمعوه من كتاب الله ولا من مرشديهم الاتقيا . يسمعون للقائل اليوم خمرٌ وغدا امرٌ فلنخطأ وغدا نتوب لمَ كثرة العبادة والتقوى التي تضعف

الجسم ولا يسمعون لصوت الرب القائل اليوم ان سمعتم صوته فلا تقسوا قلوبكم لاتخاطؤ (عبرانيين ص ٣ ع ٧) . وملعون من يخطأ متكلاً على رجاء المغفرة . واهرب من الخطية كما تهرب من الحية (ابن سيراح ص ٢١ ع ١)

فالشيطان اسقط آدم بواسطة حواء لانهُ رآهُ ميالاً اليها واسقط حواء بواسطة الحية لانها كانت تحبها وتلاعبها لان الحية كانت احكم من سائر الحيوانات هكذا يجرب كلاً بحسب ميلهِ فقلما جرب البخيل بالتبذير والاسراف والنخفخة بتنميق الموائد وزخرفة الملابس ولكن يجربهُ بالطمع في البيع والشراء والسلب الخ . ولا يجرب السكير او الدنس السيرة باحراز المال بل يجربهُ بالانصباب على ملذات الجسد . وانما يجرب كلاً من الخطاة ليشرك غيره بذنبهِ كما جرب حواء التي ما كفاها انها خالفت بل جرَّت ادم للمخالفة وذلك انها قطعت ثمرة واخذتها لادم فاصاب ادم ما اصاب احد الملوك الذي كان من عبدة الاصنام غير انهُ كان عادلاً محبوباً من جميع المملكة ولم يكن لهُ عدو سوى خالته امرأة ابيهِ فكانت تريد اعدامه ولم يكن من يجاريها على هذا المنكر فالتجأت الى صانع الاصنام واوعزت اليه ان يصنع لها صنماً يكون بهِ حيلة قتالة فصنع صنماً من النحاس الصافي اللامع ووضع في احدى يديه سهماً مسماً وفي اليد الثانية ثمرة شهية للنظر ووضع شريطاً داخلاً متصلاً من الثمرة الى السهم ووضع الصنم في بستان الملك فيما بين الاصنام التي كان الملك في كل يوم يأتي ويسجد لها ولما اتى بحسب

عادتهِ نظر ذاك الصنم الكبير الجديد فظنهُ الاله الاكبر فدنا منهُ وسجد امامهُ وقام ليتبرك منهُ واذا بالصنم كانهُ يقدم لهُ تلك الثمرة التي في احدى يديه جزاء سجوده فلما امسكها اهتز الشريط الداخلي فرشقهُ السهم المذكور في صدره فمات لساعتهِ. فادم ملك وليس لهُ عدو من المخلوقات كلها سوى الشيطان الذي اتخذ حواء بمنزلة صنم وحملها تلك الثمرة مملوة سماً وتقدمت الى ادم تقول لهُ خذ فكل هذه لتنفتح عيناك وتصير مثل الله فانخدع ادم واكل فكانت لنفسهِ سماً قاتلاً وخسر جميع المواهب

فحالة ادم قبل السقطة كانت سعيدة. وحالتهُ في حين السقطة كانت تجربة شديدة. واما حالتهُ بعد السقطة فتلك مصيبة كبرى وخسارة عظمى. خسارة كنوز ثمينة جرت من جرائها دموع سخينة. لانهُ تعرَّى من وشاح النعمة واضطرَّ ان يصنع لهُ مئزراً من ورق التين وكذلك حواء قرينتهُ ولكن اذ لم يكن ذلك كافياً لسترهما البسهما الله ثوباً من جلود الوحوش. انظري يا بنت حواء ثياب امكِ

وبعد ان كان ابناً لله وصديقاً له صار عبداً رقيقاً للشيطان. وبخسارة المعرفة انجرح عقلهُ بالجهل حتى ما عاد يدرك الامور الضرورية فصرت ترى الحيوان الغير العاقل اكثر ادراكاً من الطفل اذ ان الحيوان لا يلقي ذاتهُ من مكان عالٍ فيموت ولا في ماء ليختنق او في نار ليحترق خلافاً لابن ادم الذي اذا لم تحرسهُ كحدقة العين يلقي ذاته في اعظم المخاطر. واضحى جاهلاً الغاية المخلوق لاجلها. وان عرفها فيجهل الوسائط المبلغة اليها. واستولت عليه صعوبة التعلم ومُني بشائبة التفوضل

بما لا يعنيه وترك الاهتمام بما هو لازم ومهم · وخسر خضوع الجسد للروح فصارت حياة الانسان محاربة متصلة. الجسد يشتهي ما يضاد الروح والروح تشتهي ما يضاد الجسد وبعد ان كان يميل الى عمل الخير بكل سهولة صار ميالاً الى الشر · واستولى عليهِ الكسل والفشل في الامور الروحية والحب الذاتي · والصعوبة في الانتصار على الرذائل واقتفاء الفضائل · والاهتمام المفرط في اكتساب الارباح الزمنية وعدم ثبات الارادة في الفضيلة. وامسى خاضعاً للتعب والشقاء والامراض والخوف والحزن والشرور الطبيعية كالذين يولدون عميًا او بكماً . واعظم هذه الجراحات جرح الموت الذي لا علاج لهُ. والخسارة التي لا يعادلها خسارة هي خسارة الملكوت السماوي الذي انغلق بابهُ دون ادم عند ما فتح فمهُ لتلك الثمرة

فيالعظم رحمة الله ويالوفور حبه لادم لانهُ شاء ان ينبههُ على ذلتهِ ليتوب مستغفراً عن عصاوتهِ فجعلهُ اولاً ان يسمع صوت الرب وهو متمشٍ في الفردوس عند نسيم النهار ثانيًا ناداه آدم اين انت ثالثًا سألهُ لماذا خالفت رابعًا سأل حواء ماذا فعلتِ خامسًا لعن الحية بقوله فلتكوني ملعونة من جميع البهائم . على صدركِ تسلكين وترابًا تاكلين . واجعل عداوة بينكِ وبين المرأة وبين نسلكِ ونسلها سادسًا قال للمرأة بالوجع تلدين البنين والى بعلكِ تنقاد اشواقكِ وهو يسود عليكِ سابعًا قال لآدم اذ سمعت لصوت امرأتك فاكلت من الشجرة التي نهيتك قائلاً لا تاكل منها فملعونة الارض

بسببك بمشقة تاكل منها طول ايام حياتك وشوكًا وحسكًا تنبت لك وتاكل عشب الصحراء بعرق وجهك تاكل خبزًا حتى تعود الى الارض التي اخذت منها لانك تراب والى التراب تعود .

فمن هنا ينتج اولاً كيف ان الخطية تعمي العقل لان ادم مع كل هذه التنبيهات لم ينتبه الى طلب المغفرة وهكذا ينبه الخطاة مرارًا عديدة تارةً بتوبيخ ضمير باطن . وتارةً بموت احد الاصدقاء بغتةً . احيانًا بالوباء . واحيانًا بالغلاء . وتارةً بواسطة الواعظين والمرشدين والخطية تعمي عقولهم وتقسي قلوبهم . ينتج ثانيًا ان الخطية تجرّ فاعلها الى ان يعتذر عن نفسهِ محولاً ثقلها الى غيره كما اعتذر ادم بقوله ان المرأة التي جعلتها معي هي اعطتني من الشجرة فاكلت وكما اعتذرت حواء بقولها ان الحية اغوتني فاكلت فهذه مزية كل خاطي فكانها موروثة عن ادم وحواء

فقد لعن الله الحية لانها جلبت اللعنة على الارض وقال لها تاكلين التراب اي تاكلين ادم الذي سيرجع الى التراب وهذا قصاص لآدم . وقال لها ايضًا اجعل عداوة بينكِ وبين الامرأة وهذا قصاص كل صداقة يدخلها الشيطان . وعاقب حواء بالخضوع لبعلها لانها اكلت قبلهُ لتكون الهًا اسبق منهُ ويكون خاضعًا لها . والله لم يلعن ادم لانهُ كان قد باركهُ وهو صورته بل لعن الارض بعملهِ فلذا تجب محاذرة لعن الانسان . الخلاصة ان ما فعلتهُ الخطية الاصلية تفعلهُ الخطية الفعلية فانها تجعل مرتكبها عدوًا لخالقهِ وتجلب على راسهِ البلايا والشرور ويفقد مواهب الله ونعمه بسبب الخطية فاذا كانت مخالفة مرة واحدة

صنعت ما صنعت فكم تصنع مخالفتنا الكثيرة العدد. واذا كان ادم قدم توبة تسعمائة وثلاثين سنة مقابل ذلك الفردوس الذي طُرد منهُ فكم يلزمنا من التوبة مقابل الفردوس السماوي الذي نفينا منهُ بسبب شرورنا. فعلينا ان نشكر مراحم الرب الذي ارسل ابنهُ ادم الثاني ليصلح ما هدمهُ ادم الاول واعطانا مريم لترد لنا ما خسرناه بحواء لان حواء قدمت الى ادم ثمرة الموت واما مريم فقد اعطتنا ثمرة الحيوة. حواء جلبت اللعنة على الارض ومريم افاضت ينبوع البركات. حواء فتحت باب القبر ومريم فتحت باب السماء. فلنلتجي اليها طالبين نعمة التوبة الصادقة كما تاب ادم وحواء وحازا السعادة الابدية التي نرجوها لجميع التائبين الحقيقيين آمين

العظة الثلثون

« في شرّ الخطية المميتة وعقابها »

اسمعي ايتها السماوات وانصتي يا ايتها الارض يقول الرب انني ربيت بنين وشرّفتهم وهم اهانوني (اشعيا ص ١ ع ٢)

ان الله يستدعي السماوات وما فيها والارض وما عليها للحكم بينهُ وبين شعبهِ الخاص الشعب العبراني الذين رباهم تربية يقصر عن مثلها جميع الوالدين في تربية بنيهم وشرّفهم شرفًا تعجز عن مثلهِ ملوك الارض

واحتضنهم كما تحتضن الام بنيها . فالسماء تعلم وتشهد بما صنعهُ معهم من المعجزات في مصر لانقاذهم من عبودية فرعون الظالم والمصريين القساة الذين كانوا يستكدونهم الليل والنهار بجمع التبن وعمل اللبن بدون اجرة ولا مؤُنة ويوسعونهم شتماً وضرباً وهواناً ويخنقون اطفالهم الذكور. فالشمس حجبت انوارها عن اولئك القساة فكانت ظلمة حالكة اوقفتهم عن الحركة . تشهد السماء بانها امطرت عليهم بَرَداً وناراً حطمت اغصان اشجارهم وابادت اصولها واستأصلت مزدرعاتهم . السماء تشهد بانحدار ذلك الملاك الذي استلَّ سيف الانتقام وقتل جميع ابكارهم من بكر الملك الى بكر البهيم · الرياح تشهد بما نالهم من شديد الوباء لما ذرى موسى الرماد في الجوّ (خروج ص ٩) . الارض تشهد بما ذاقهُ اولئك القساة من الضنك لما اخرجت من جوفها جيوشاً جرارة من ضفادع منتنة وسلحها الرب باسلحة من نقيق واصوات مزعجة . تشهد المياه باستحالتها الى دم تجاه اعداء شعب الله . البحار تشهد بافتتاح احضانها ونهج السبيل الى ابناء الرب وتغريق اعدائهم في تيارات امواجها الهائلة

اشهدي ايتها السماء والارض يقول الرب اني لم اجعل الظلمة في ارض مصر واحوّل نهارهم الى ليل حالك الاَّ لانهم كانوا قد حوّلوا ليل شعبي المعطى لهم للراحة الى نهار بمشقات الاعمال وعدم الرقاد واني لم اتلف اشجارهم ومزدرعاتهم بالبرَد والجراد واجعل ارضهم مجدبة الاَّ ليمضهم الجوع كما صنعوا بشعبي . وما بعثت بملاكي يقتل ابكارهم الاَّ لانهم

احبوا قتل ابكار شعبي اسرائيل . ولم اضيق عليهم بالضفادع الّا لانهم اضطروا شعبي ان يكون غائصًا في الطين كالضفادع . وما حولت مياههم الى دم الا انتقامًا لدم اطفال العبرانيين الغرقى في المياه . ولم اغرق فرعون وفرسانه ومركباته في البحر الاحمر الا لانهم غرقوا شعبي المظلوم في بحر دموعه . ماذا وجب ان اصنع لشعبي ولم اصنعهُ أَما جعلت لهم ملاكي قائدًا كعمود نور يظللهم نهارًا من حرّ الشمس ويضيء لهم ليلاً . اما انزلت لهم المنّ في البرية لقوتهم . اما اخرجت لهم ماء من صخرة يتبعهم في مسيرهم مدة اربعين سنة . اما وعدتهم بارض تجري لبنًا وعسلاً ارض الميعاد ذلك كلهُ صنعته لهم . وقد تركوني انا ينبوع الماء الحي واحتفروا لذواتهم آبارًا مشققة لا تضبط ماء (ارميا ص ٢ ع ١٣) تركوني انا الخالق وعبدوا المخلوقات . احكمي ايتها السماء عليهم بما يستحقون واقضي ايتها الارض بالعدل على شعبي فالسماء تحكم بانها تكون فوقهم حديدًا لا تمطر عليهم مطرًا في حينهِ بل تحول صيفهم شتاء وشتاءهم صيفًا . والارض تقضي بانها تكون تحتهم نحاسًا يزرعون ارضهم فتاكل بذارهم وتحول قمحهم الى زوان واثمارهم الى رماد . يزرعون كثيرًا ويحصدون قليلاً ويغرسون كرمًا ولا يستثمرونهُ يبنون دورًا ولا يسكنونها لانهم اهانوا الرب الههم

وكما تشكى الرب من بني اسرائيل هكذا يتشكى من المسيحيين بقوله ربيت بنين الخ . لاننا اذا امعنا النظر فنرى انهُ تعالى انعم علينا وصنع معنا معجزات تفوق تلك المعجزات التي اجترحها لبني اسرائيل لانهُ انقذنا

من اسر فرعون الجهنمي · وغرق جيوش آثامنا في بحر آلامه ودمهِ
الثمين . وانزل لنا منَّ جسده قوتًا لانفسنا في برية هذا العالم . واخرج
لنا ماء من صخرة جنبهِ المطعون بالحربة . واهدانا بعمود انوار نعمهِ
الغزيرة . و وعدنا بارض الميعاد السماوية · وشرَّفنا بلقب مسيحيين
نسبة لاسمهِ الشريف · صنع كل ذلك معنا ونحن نهينهُ اهانات تفوق
اهانات ذلك الشعب العبراني

انه لامر واضح بالعقل والوحي ان لله سلطانًا مطلقًا على جميع
الكائنات لانهُ مبدعها كما هو مكتوب انت مسلط على الجميع وليس
احد يقاوم عزتك (استير ص ١٣) . ونرى الخلائق باسرها تطيع
سلطان الله . ان البحر والريح يطيعانهِ (متى ص ٨) واما الخاطي فلا
يطيع امر الرب · لقد اخبرنا الانجيل المقدس ان البحر اضطرب شديدًا
ذات مرة واشتدت الرياح وتعاظمت امواجه حتى كادت ان تغرق
تلك السفينة بمن فيها من الرسل ولما صرخوا الى الرب قائلين يارب
نجنا فقال الرب للبحر اسكت ايها البحر فسكت للحال (مرقس ص ٤)
وطالما رأينا قلوبًا تهيج بالبغض ورغبة الانتقام وصوت الرب اليها
اغفروا ليغفر لكم الرب . لا تنتقموا لذواتكم لي الانتقام وانا اجازي
(تثنية ص ٣٥) . لا تغرب الشمس على غضبكم (افسس ص ٤)وتلك
القلوب على علاتها . وكذا علمنا ان السباع سمعت لصوت الله الذي
امرها بان لا تؤذي دانيال في الجب فاستأنست بهِ (دانيال ص ٦)
ونرى السنة مرهفة اشد من انياب السباع تمزق شان القريب هاترة

عرضهُ ضد امر الرب القائل لا تدينوا لئلا تدانوا (متى ص ٧) والنار في اتون بابل خضعت لامر الخالق ولم توءذِ فتية أُلقوا فيها (دانيال ص ٣ ع ٥٠) ونرى نار الشهوات الجهنمية لا تطفئها شدة اصوات مياه العدل الالهي الهاتف بفم الرسول ان الزناة لا يرثون ملكوت الله (قرنتية اولى ص ٦ ع ٩) . الشمس وقفت والقمر ثبت من صوت يشوع اذ قال ياشمس قفي على جبعون ويا قمر اثبت على وادي ايالون (يشوع ص ١٠ ع ١٢) واما الخاطي السالك في طريق الهلاك فلا يقف من صوت الرب ولا يرجع عن طريق الاثم

والذي يزيد الاثيم اثمًا هو انهُ يسيءُ اليه تعالى امام عزتهِ الالهية التي ترهبها السماءُ والارض · فالعبد لا يجسر ان يهين مولاه بحضرتهِ والخاطي يهين ربهُ مواجهة . يخاف الشرير من ان تراه الناس عند ارتكاب الشرّ ولا يخاف من ان يراه الله . يخجل من البشر ولا يخجل من رب البشر · لقد ذكر في التواريخ عن قوم كانوا يعبدون الشمس لاعتقادهم انها الاله وبذا كانوا يبدون لها معظم الاحترام في زمن النهار وما كان ليصدر منهم لا كبير اثم ولا صغيره امامها لا من الرجال ولا من النساءِ ولكن في زمن الليل حينما تغرب عنهم الشمس كانوا يرتكبون جميع المنكرات ولا يمتنعون عن شيءٍ من المحذورات واذ سئلوا لمَ تفعلون الشرور كلها في الليل وتمتنعون عن جميعها في النهار اجابوا قائلين حاشا ان نهين الاله قدامهُ في النهار وانما في الليل يغيب الاله فلا يعود ينظر شرورنا ولا يسمع ولا يعاقب · ولكن الذي يرتكب الفحشاء من المسيحيين

هل يعتقد ان الله لا يراه او اذا تكلم بالقبيح لا يسمعهُ او اذا اجترم كبائر الذنوب لا يعاقبهُ كلاً ليس هذا اعتقاد المسيحي بل يعتقد ان لله عيناً اضوى من الشمس واذناً تسمع كل ما يقال ولو بصوت منخفض وان لهُ باعاً طويلاً لقصاص المخالفين . فهذا ايمانك ايها المسيحي وهذه اعمالك تعتقد ان الله يراك ولو كنت في اخفى المخادع وتجسر ان تخطأ . تومن انهُ يسمعك وتتجاسر ان تشتم الدين وتتلفظ بالفاظ يمجها السماع وتتخدش منها الاذان · ويا ايتها المسيحية ما ابعد ايمانكِ عن ايمان سوسنة تلك الشهيرة بالشجاعة والعفاف التي هتفت حينما حرَّضت من ذينك الوقحَين على ارتكاب الفحشاء قائلة لقد ضاق بي الامر من كل جهة فاني ان فعلت هذا فهو لي موت وان لم افعل فلا انجو من ايديكما ولكن خير لي ان اموت بريئة من الاثم من ان اخطأ امام الرب (دانيال ص ١٣ ع ٢٢) واين شجاعتكِ من شجاعتها فانك تسقطين من ادنى سبب

ان احد الملوك قد تهدد اثنين من وزرائهِ قائلاً لا عدتما تريان وجهي فهذا التهديد كان سبباً لموت الاول وجعل الثاني ان يعيش مجنوناً كل ايام حياتهِ · فكيف لا يكون تهديد الله بقولهِ للخطاة اغربوا عني الخ· سبباً كافياً لان ينزع قلب الخاطي منهُ ويصيره مرتعشاً من عدلهِ الالهي المفترى عليهِ · · ·

قال داود النبي (مزمور ٣٠) لماذا استهان المنافق بالله · لاجل حفنة من التراب . لاشفاء غليل الم · لاجل لذة حيوانية زائلة كقولهِ

تعالى باعوني بحفنة من الشعير وبكسرة من الخبز (حزقيال ص ١٣) .
نلوم يوضاس لاجل بيعه سيده بثلاثين من الفضة ونصنع شرًا منه
ولا نبالي بالعقاب الشديد المذخر للخطاة . العقاب الذي لما تأمله
ارميا النبي اخذ ينوح باكيًا ويندب قائلاً الويل لنا لاننا خطئنا
(مراثي ص ٥ ع ١٦) فلم يقل ويل لنا لاننا ابتعدنا عن اوطاننا وعدمنا
مشاهدة مدينتنا ولا قال ويل لنا لموت اهلنا المطروحين قتلى في الشوارع
ولا لسبب تيتم بنينا وترمل نسائنا بل قال الويل لنا لاننا خطئنا
لان الخطية هي سبب كل هذه البلايا ولا يجب الخوف الا منها . بسببها
غرقت المسكونة بذاك الطوفان وامطر الله نارًا وكبريتًا على الخمس
المدن المستغرقة في القبائح وضرب فرعون بعشر ضربات مهولة وارسل
حيات نارية على اليهود حال تذمرهم عليه وعاقب شاول الملك
وايزبال الشقية وغيرهما عقابًا شديدًا

فما اكثر نكبات الخاطي وما اشدها وارهبها . أيقظوا الخاطي ليسمع
ما يتوعده به داود في (مزمور ١٠٨) بقوله اللهمَّ اقم عليه منافقًا وليقف
شيطان عن يمينه واذا حوكم فليخرج موءثمًا ولتكن صلاته خطية لتكن
ايامهُ قليلة وليأخذ رئاستهُ آخر الخ . اننا كثيرًا ما نرى مثل هذه البلايا
تداهم الخطاة ولكنهم ينسبونها لعلل غريبة ولا يصدقون انها من الله
قصاصًا عن خطاياهم كما قال ارميا النبي (ص ٥ ع ٣ و ١٢) ضربتهم
ولم يريدوا ان يصدقوا جحدوا الرب وقالوا ليس هو اياه . ينسبون تأخرهم
في متاجرهم الى خيانة عملائهم ولا يريدون ان يصدقوا انها ضربة من

الله لاجل غشهم في البيع والشراء والاخذ والعطاء ولاجل ازدرائهم حقائق الدين . واذا سقط احد عن شرف مقامهِ او خسر وظيفتهُ فلا يريد ان يصدق انها ضربة من الله قصاصاً له عن تهاونهِ بها وعن عدم اجرائهِ العدالة او قبوله الرشوة . بل يتمحَّل لها اسباباً اخرى كحسد نظرائهِ ووشاياتهم الكاذبة . ومن الناس من ينسب بليتهُ الى جيرانهِ . ومنهم من ينسبها الى اقربائهِ وآخر لجهل اصحابه وعدم فطنتهم . تضرب اثمارهم بالفساد فيعزونها الى فساد الهواء ولم يصدقوا انها من فساد القلوب لان الارض المثمرة صيرها الله مالحة لاجل شرور سكانها (مزمور ١٠٦) تشتد امراضهم وتبلغ بهم الى الموت فينسبون ذلك لقلة خبرة الاطباء . ولا يريدون ان يصدقوا ما قاله الحكيم الخطية تشقي القبائل (امثال ص ١٤) . فلو اخرجوا الخطية من منازلهم لا بتعدت عنها بلاياهم

اخبر نيكوفوروس المؤرخ عن الملك فوكاس انه لما رأَى نفسهُ مُبغَضاً من الشعب وخاف من تعصبهم عليه شرع يحصن بلاطهُ واذ ذاك سمع في الليل صوتاً مرعباً يناديه يافوكاس لو ارتفعت اسوار بلاطك الى السماء لا تقدر على ان تقيك البليسة مالم تخرج منه شرَّ الخطية التي هي اعظم اعدائك فلم ينتبه فوكاس لهذا الصوت ففي النهار المقبل وثب عليهِ اعداؤُه وغللوه وسلبوا كل كنوزه وحياته . قال الله ان خالفتم وصيتي فاني افتقدكم بجوع وان بقيتم على عصاوتكم فاضاعف بلاياكم سبعة اضعاف فتكون السماء فوقكم حديداً والارض

نحاساً (احبار ص ٢٦)

ولا تقل اني خطئت ولم يصبني قصاص لان الله يجرر خطايانا في سفر عدله واحياناً يتمهل بانزال العقاب كما قال ايوب ختمت آثامي كانها في كيس فمتى امتلأ يبرز الحكم (ايوب ص ١٤) كما جرى بالاموريين الذين كان قد وعد الله ابرهيم ان يعطيه ارضهم ولم يحصل على ذلك الاَّ بعد اربعمائة سنة حتى كملت خطاياهم (تكوين ص ١٥ ع ١٦) وحكم الرب بخراب اورشليم ولكن قال لسكانها كملوا مكيال آبائكم (متى ص ٢٣ ع ٣٢) . ولا تكن مثل ذلك العبد الذي قال في قلبه ان سيدي يبطئ في قدومهِ فجعل يضرب العبيد والإماء ويأكل ويشرب ويسكر فيأتي سيدك في يوم لا تنتظره وساعة لا تعلمها ويفصلك ويجعل نصيبك مع الكافرين (لوقا ص ١٢ ع ٤٥) . كان الناس ايام نوح يقولون قد خطئنا ولم يصبنا قصاص وطالما استخفوا بانذار نوح ضاحكين فكان يتهددهم بالعقاب الشديد في مدة مائة سنة ولم يصدقوا انهُ يأتيهم العقاب حتى ادركهم ذلك الطوفان العرمرم وغرق جميعهم . وما كان سكان سادوم يخافون ان تحل بهم نقمة من الله حتى امطر عليهم الرب طوفان النار والكبريت

انهُ لما طرد الافرنسيون الانكليز من فرنسا سأَل رجل افرنسي احد رجال الانكليز اي متى ترجعون ايها الانكليز الى فرنسا فاجابهُ الانكليزي حينما تصير خطاياكم اكثر من خطايانا فما اوقع هذا الجواب لان الخطايا مجلبة البلايا . قال الحكيم ان الملك ينتقل من امة الى امة

من اجل الجور والظلم والحيل الخبيثة (ابن سيراخ ص ١٠) وبسبب الخطايا تتكاثر الامراض الوبائية التي تملأ المقابر من الموتى وتقصف غصن الشبيبة النضير وتسكن حركة دولاب الاعمال وتلقي الرعبة في قلب اشد الناس شجاعة وتشتت شمل الاجتماع الانساني طبقًا لقول الحكيم في سفر الامثال (ص ١٠ ع ٢٧) كما ان مخافة الرب تزيد الايام هكذا الاثم ينقصها . وقال طوبيا لاننا لم نطع اوامرك أُسلمنا الى النهب والجلاء والموت (ص ٣ ع ٤)

والسيد المسيح كان يبتدىء بحل خطايا المصابين بالامراض قبل ان يشرع بشفائهم لانهُ بزوال السبب يزول المسبب عنه ليدلنا بهذا ان البلايا غالبًا تكون من الخطايا ولذا قال لذاك المخلع لا تعد الى الخطية لئلا يصيبك اشرٌ من الاول . فالهرب اذًا من الخطية وان كانت من الصغائر . فانه من اصل الحية يخرج الارقم ملك الحيات (اشعيا ص ١٤ ع ٢٩) قال الذهبي فمهُ يجب ان نحسن الحذر من الخطايا الخفيفة اكثر مما نحذر الآثام الثقيلة لان الخطايا الفظيعة يوجد بهاشناعة تصيرنا ان نبغضها طبعًا . واما الخطايا الخفيفة فنستخف بها ونتهاون في الفرار عنها فيتزايد عددها بزمن يسير وتتقوى حتى تصير سببًا يزجنا في الهاوية . وقد شبهها القديس اغوسطينوس بجرب يشوه وجه الانسان ويصيره مستكره المنظر تنفر الناس من مشاهدتهِ . وهي اشبه بشبكة تعرقل النفس وتصدُّها عن الارتقاء الى الفضيلة او بسوسٍ مخفي في الخشب ينخره تدريجًا ويسبب هدم اعظم المنازل . فاذا كانت لاتهمك

الخطية الخفيفة ولا تخافها فيجب ان يخيفك قصاصها الشديد . تذكر امرأة
لوط التي لاجل عدم طاعتها بامر خفيف استحالت الى تمثال ملح
(تكوين ص ١٩) ولاجل مثل هذه الهفوة عذّب الله نبيًا بالموت
فارسل اليه اسدًا فافترسهُ (ملوك ثالث ص ١٣) . فاقتل العدو صغيرًا
لئلا تموت بين يديه فلو قتل قاين الحسد لما جرّه الى قتل اخيه ثم الى
قطع الرجاء ثم الى الهلاك الابدي

فيا ايها الاله الرؤوف والاب الشفوق اننا نقرُّ معترفين بانك
صنعت معنا ما تصنعهُ امٌّ مع بنيها من الشفقة والحنوّ انت احييتنا من
الموت الابدي ونحن اسلمناك الى الموت بشرورنا . انت رفعتنا من وهدة
الشقاء ونحن رفعناك على الصليب . انت اعددت لنا اكليل المجد ونحن
اعددنا لك اكليل الشوك بكبريائنا . انت اطعمتنا جسدك وسقيتنا دمك
ونحن وضعنا في طعامك مرارة وسقيناك خلاً بمرّ السنتنا فبكل صواب
يحق ان تشكي منا قائلاً ربيت بنين وشرّفتهم وهم اهانوني . نعم اهناك
بافترائنا على سلطتك وخالفنا نواميسك ولم نحترم عزتك الالهية ولم
نعبأ بوعدك ووعيدك ولهذا قد استوجبنا اشد العقاب . ولكن نحن
الان ننطرح على قدميك المقدستين نادمين على ما اهناك به يامخلصنا
وفادينا راجين ان تمطر سحب نعمتك على ارض قلوبنا لنعطي ثمار التوبة
الصادقة ونعيش ما بقيت حياتنا برضاك هذا نرجوه بشفاعة امك
البتول والقديسين المقربين اليك آمين

العظة الحادية والثلثون

« في غربة هذه الدنيا ونهايتها بالموت »

قال داود النبي انا غريب عندك ومجتاز مثل جميع آبائي

(مزمور ٣٨ ع ١٣)

انهُ لامر موَّكد ان الانسان مخلوق من الله فيلزمهُ الرجوع اليه لانهُ مركزه كما ان الانهار تخرج من البحر متغربة عنه ثم تسرع بالعود اليه لا نه مركزها . قال الرسول ما دمنا في الجسد فنحن غرباء (قرنتية ثانية ص ٥) وقال ايضاً ان كان بيتنا الارضي ينحل فان لنا بيتاً من الله لم تصنعهُ الايدي ابدياً في السماء (قرنتية اولى ص ٥) . فيفهم بالبيت الارضي اولاً هذا العالم الذي لا بد من انحلالهِ يوم تزول السماوات باندفاع شديد . والعناصر تنحل (بطرس ٢ ص ٣) . ثانياً منازلنا الخصوصية التي لا بد من تركها بالموت . قال القديس اغوسطينوس لا تقل ان بيتك هو ملكك لانك ورثته من ابيك وسوف تورثهُ لابنك وهذا يورثه لابنهِ فاذًا ما هو الاَّ منزل الغرباء . ثالثاً جسدنا الذي هو مسكن لانفسنا فهذا فاسد وليس بمسكن روحنا على حصر الكلام بل هو بمنزلة المظلة . قال هامة الرسل ان زوالي من مظلتي قد حضر (بطرس ثانية ص ١)

فحيث تقرر ان الانسان غريب في الدنيا فيلزمه اولاً ان يتصرف كالمسافر المتغرب عن وطنهِ ولا يماثل من يفضل الخان على محل سكناه الحقيقي مصرفاً جل اهتمامه ببناء دور وقصور وغرس جناين وخمايل ويعلق بها كل عواطف قلبهِ كانه محقق ثبوته فيها مع انه نزيل وعابر سبيل

ثانياً ان يعرف الطريق الامين المبلغ الى وطنهِ وان يسير فيهِ ولا يحيد عنهُ. هكذا يلزم الانسان المسافر في غربة هذه الحياة ان يعرف الطريق المبلغ الى السماء والحال ان الطريق المستقيم هو يسوع القائل انا هو الطريق والحق والحياة. فانه يقودنا بمثال حياته وتعاليمه المتصلة فلا ريب ان من حاد عن الطريق يلقي ذاتهُ في مخاطر جمة. وكذا من حاد عن تعاليم الحق سبحانهُ وتعالى.

ثالثاً يلزم المسافر ان لا يتوقف في الطريق ولا سيما اذا لم يكن لهُ من الزمن لنهاية سفره سوى يوم واحد ولا يملك من الزاد الاَّ زاد يومه. فلو بدرق نهار سفره بما لا طايل تحته لادركه الليل وفرغ منهُ الزاد وما من مغيث يشفق عليهِ. كذا حال من يبدد اوقاته بالملاهي ويفني زمانهُ بالملذات غير متذكر قصر الحياة كما قال ايوب قليلة هي ايام الانسان (ص ١٤) وقال الكتاب المقدس انهُ لابد ان نموت ونكون كالماء المراق على الارض الذي لا يجمع ايضاً (ملوك ٢ ص١٤ ع ١٤) كما ان مياه الانهار في جريانها لا ترجع الى الوراء هكذا ايامنا التي عبرت لا تعود. وبهذا الزمن القصير نلتزم ان نصلح الماضي ونرتب الحاضر

ونستغني للمستقبل فاذا تاخر الانسان عن اكتساب الزاد الروحي
فيدركه ليل الموت سريعًا وهناك الاسف الشديد . ويحل بهِ من البلاء
والشرّ ما حلّ بذاك اللاوي الذي اعاقه حموه عن الرجوع الى وطنهِ
بالحاحه عليهِ للاقامة عنده اياماً صارفين الوقت الملائم للسفر بالاكل
والشرب. فاضطر اللاوي ان يسافر آخر النهار فادركه المساء في الطريق
وحاق به شديد البلاء حيث وثب عليهِ اشقياء جبع ليلاً واذلوا امرأته
حتى ماتت (قضاة ص ١٩) كذا عاقبة من تعوقهُ شهواته عن سفرهِ
الى وطنهِ السماوي فيثب عليهِ اشقياء جبع اي سكان الجحيم ويخطفون
نفسهُ ويذلونها في تلك الليلة المدلهمة حيث البكاء وصريف الاسنان

رابعًا ان المسافر لا يزال تائقًا الى الوصول الى بلدتهِ حيث ينتظره
اهله . تصوروا حالة ذلك الرجل الشيخ يعقوب اسرائيل لما أُخبر ان
ابنهُ يوسف حيٌّ وهو مسلط في جميع ارض مصر كيف اهتزت جوارحه
من الفرح وانتعشت روحه من السرور وهتف من عمق احشائهِ قائلاً
حسبي ان يوسف ابني لا يزال باقيًا أمضي واراه قبل ان اموت (تكوين
ص ٤٥ ع ٢٨) مهلاً يا ايها الوالد مهلاً . فكيف تقول أمضي واراهُ
ودون سفرك ورؤية ولدك اهوال . أَما تشعر بعجزك وانت ابن مائة
وثلاثين سنة وقد وهنت قواك وارتخت ركبتاك . أَما تعلم بمشاق السفر
وبعد المسافة واخطار الطريق . لا يهمني تعب ولا يشق عليَّ مشقة ولا
يقعدني خطر حسبي ان يوسف ابني لا يزال حيًا وهو ينتظر قدومي .
فقد ارسل يقول لي هلمّ اليّ ولا تقف وتكون قريبًا مني . فاذا

أمضي واراه وان لم تحملني العجلات فتحملني اجنحة شوقي اليه وان لم تخفرني عيالي فتخفرني جيوش المسرات ها انني ماضٍ لاراه قبل موتي.
هكذا يلزم الانسان ان لا يزال راغباً في الوصول الى بلدته السماوية حيث ينتظره هناك افواج من اقربائهِ وانسبائه المطمأنين في سعادتهم ويلزمه ان يحتمل مشاق الطريق بالصبر الطويل على الاحزان والمصائب الموجودة في هذا العالم متذكراً ان ضيق هذا الزمان اليسير لا يوازي المجد المعدّ له . فيا من فقدت ابنك العزيز بالموت فها ان ابنك حيٌّ في السماء ينتظرك فقل مع يعقوب اسرائيل أَمضي واراهُ متمتعاً بالسعادة واكون قريباً منه ولا يهمني تعب هذه الدنيا ولا تشق عليَّ مشقة ترك ارض كنعان . ويا ايتها الباكية فقد وحيدها ان ابنكِ قد انتقل من الموت الى الحياة وهو يترقب بلوغك لتكوني بالقرب منهُ. فقولي مع يعقوب حسبي ان ابني لا يزال حياً امضي واراه

خامساً ان المسافر الفطن اذا جاز في بلدة اخذ معهُ منها اوارسل امامه الى وطنهِ كل ما استطاع اخذه مما يجده ثميناً . كذا يجب على كل انسان باجتيازه في هذا العالم ان ياخذ منهُ ما استطاع من ثمين الاعمال الصالحة كتوزيع الصدقات والتصرف الحسن في جميع اموره

وبهذا المعنى ذكر لنا الانبا برلام مثلاً حسناً قائلاً كانت مدينة يقيم اهلها عليها كل سنة ملكاً غريباً وعند نهاية السنة يفاجئهُ اهل المدينة من حيث لا يدري فيخلعونه من ملكه ويطوفون به المدينة عرياناً ثم ينفونه الى جزيرة يموت فيها جوعاً وحزناً . فتملك عليهم اثناء

ذلك رجل حكيم رصين العقل حزوم فاسترق عقل نبلاء دولته وعرف
منهم ما سيصيبهُ عند تمام السنة فاستدرك حينئذٍ الفائت وشرع يرسل
الى تلك الجزيرة خزائن الملك وجميع ما يحتاجه وبنى فيها ابنية شامخة
وقصورًا باذخة لان يده وقتئذٍ كانت محكمة بكل ما يريده وعند تمام
السنة اصابهُ من اهل المدينة ما اصاب سلفاءه فلما نفي الى تلك الجزيرة
التي كان قد اعدَّ فيها كل خير ونعمة عاش فيها عيشًا رغدًا مطمئنًا
واعتاض عن درهمِهِ بدينار ونفعهُ عقله وحسن تدبيرهِ لانهُ اصاب بما
عمل واحكم بما اصاب . تفسير المثل المدينة هي هذه الدنيا واهلها هم
البشر والملك هو كلٌّ منا الذي ينفى بعد سنة من هذه الحياة الى جزيرة ظلام
الموت فمن كان حكيمًا يتقدم بارسال ما يحتاج اليهِ من الاعمال الصالحة
ليحيا بها هناك الى الابد لان غربة هذه الدنيا لا بد ان تنتهي بالموت
المحتوم بهِ من الله على جميع الناس كما قال القديس بولس الرسول قد
حتم على الجميع ان يموتوا مرة واحدة (عبرانيين ص٩ ع ٢٧)

انهُ بعد استدعاء ادم الى محكمة العدل واثبات ذنبه باقراره
الصريح قد صدر الحكم عليهِ وعلى ذريتهِ بما نصهُ انت تراب والى التراب
تعود . وهذا الحكم غير قابل الاعتراض ولا الاستئناف ولا التمييز لانهُ
برز من محكمة العدل الالهي . وها قد مضى نحو ست الاف سنة
والمعترضون يبحثون عن دفع شرعي لينقضوه ويعارضوا اجراءهُ ولم
يتمكنوا من ايجاد سبيل للهرب منهُ ولن يتمكنوا منه الى الابد . تحاول
الملوك التخلص منه بتكثير الجنود وانتخاب اشهر القواد واختراع الآلات

حربية مهولة وتحصين القلع والاسوار فتحبط مساعيهم لان الموت اسد
هصور لا يهاب الملوك ولا تصده صولة صائل . وطالما رأينا الاغنياء
والمقتدرين يحاولون الفرار من حكم الموت برغد المعيشة وتغيير الامكنة
وتبديل الهواء . ويخصون كل زمان بما يوافقهُ من الامكنة والاغذية
والملابس . ففي الصيف يختارون المحالّ الباردة في الجبال وفي الشتاء
يشخصون الى الاماكن الحارة في السواحل . في الصيف يغتذون
بالمآكل اللطيفة المبردة وفي الشتاء يختارون الاغذية والمشروبات
الحارة . في الصيف يتردون بالملابس البيضاء الرفيعة . وفي الشتاء
يلبسون الجوخ والصوف لعلهم يفلتون من هذا الحكم ولكن لا مناص .
لان كل مركب منحل والانسان مركب من نفس وجسد فلا بدّ ان
ينحل . فالجسد يعود الى التراب والنفس تحضر لدى باريها . ونرى
اكثر الشرائع الطبيعية قد تغيرت ولو مرة واحدة الشمس وقفت ايام
ابن نون . والنار ما احرقت في اتون بابل . والسباع لم تفترس دانيال
في الجب . عذراء ولدت وهي بكر . وصخرة اجرت مياهًا واما شريعة
الانحلال بالموت فما تغيرت قط ولن تتغير ابدًا . وهذا الامر لا يحتاج الى
بيان لان شهادة العيان اصدق من شهادة اللسان فاننا نشاهد كل
يوم اقرباءنا يموتون وما من بيت الا خرج منهُ ميت . لانهُ من هو
الانسان الذي يحيا ولا يعاين الموت (مزمور ٨٨ ع ٤٩) فكل مولود
مفقود . عاش ادم تسعماية وثلاثين سنة ومات . وعاش شيت تسعماية
واثنتي عشرة سنة ومات . وعاش انوش تسعماية وخمس سنين ومات .

(تكوين ص ٥) وهذا ختام سجلات الاجيال العابرة جميعها . فاذا تصفحت تواريخ الملوك والمتسلطين وغيرهم فتراها مختتمة بكلمة « مات » فاذًا لا بد من الموت آجلاً او عاجلاً . تمكن مقاومة النيران الملتهبة بالماء وتقاوم الرجال بالرجال واما الموت فلا تمكن مقاومتهُ · بماذا نقاوم الموت ولم يترك لنا سلاحًا للمقاومة . فالنار والماء والحيات والسباع والرياح والبرد والحر وجميع المخلوقات اسلحة له وبكل منها يستطيع ان يسلب منا الحياة · وفوق ذلك فان له جنودًا وانصارًا تتولد فينا ضدنا كما يتولد السوس في الخشب فينخره والعث في الجوخ فيفنيه والصداء في الحديد فيتلفهُ · فالامراض والشيخوخة من جنوده . وتغلُّب بعض العناصر على بعضها من انصاره . والهمّ والغم والعناء · وخطوب هذه الحياة من فرسانهِ · واما شوكتهُ فهي الخطية كما قال الرسول ان شوكة الموت هي الخطية (قرنثية اولى ص ١٥) فالقديس يوحنا قد رأى الموت راكبًا فرسًا اصفر مهزولاً وبيده شوكة حادَّة ينخسهُ بها فيجري اسرع من الخيل السلاهب فهذه الشوكة هي الخطية التي تجعل الموت ان يدرك مرتكبها سريعًا · لان الله منح الحياة للانسان ليخدمهُ بها فاذا استخدمها لاهانة الله بالخطية فمن العدل ان يسلبها منهُ قبل اوانهِ . فالى من يلتجي لينجو من هجمات الموت السريع . أَيمكن لمخترعي الفنون ان يجدوا لهُ حيلة لدفعه كلاَّ · هل يمكن ان يرشى بالاموال · او يرثي لبكاء البنين ولمذلة العيال كلاَّ فاذًا لا يدفع المنون لا مالٌ ولا بنون · فلم يبقَ للانسان غير الهرب والفرار الى حيث لا تمتد سلطة الموت ولكن ضاع منهُ المهرب فاينما

توجه يلتقيه . يوشك من فرَّ من منيتهِ . في بعض فرَّاتهِ يصادفها . وحيثما يؤمل بعد الخطر من الموت فهناك يقف لهُ بالمرصاد ويكون مثلهُ مثل الغزال الاعور

قيل ان غزالاً اعور لا يبصر الا بعين واحدة كان يطارده الصيادون ويتبعون اثرهُ في كل مكانٍ توجه اليه فما كان يامن على حياتهِ من نبالهم ولا من اشراكهم فكانوا يرصدون لهُ على الينابيع وفي المروج في الصيف والشتاء وطالما تحذر من الوقوع بين ايديهم حتى لم يكن يتجرأ ان يلبث في مكان يامن فيهِ على حياته فاخذ ينتقل من جهةٍ الى جهة حتى بلغ الى بقعة قريبة من البحر وهناك سكن روعه وأَمن على ذاته وابتدأ يرعى في تلك البقعة محولاً عينهُ الصحيحة لجهة البر حيث يخشى وفود الصيادين وعينهُ التي لا يبصر بها الى جهة البحر الامين من الخطر حيث لم يكن عادة للسفن ان تمر من هناك وبينما كان مطمئناً من نحو البحر راتعاً بالامن في ذلك المكان المخصب واذا بسفينة مقبلة من حيث لا يدري واذ رأى من فيها من الصيادين ذلك الغزال راتعاً رماه بسهم نفذ قلبه فمات . فيا لسوء حظه لانهُ نجا من البر حيث كان يخشى الموت ومات من البحر حيث كان يرجو الحياة

فقد توجب علينا ان نكون متأهبين منتظرين وفود الموت في كل زمان ومكان سواءٌ كنا في الصبوة او الشبيبة في الشيخوخة او الهرم في الليل او في النهار في البر او في البحر لانه لا يوجد زمان ولا مكان نأمن فيها من وثبتهِ . ومع ذلك نري الكثيرين يعيشون كأنهم لا يموتون

فيموتون كانهم ما عاشوا . فالجميع يقرّون بحقيقة الموت ويعتقدون ان الوفاة تكون مثل الحياة لان الانسان يحصد ما زرع ولكن اعمالهم مخالفة لاعتقادهم فلهم عين تبصر كل التدابير المفيدة لتحصيل الامور الارضية وينتهزون الفرص الملائمة لزيادة الارباح في متاجرتهم والتقدم في الوظائف واتخاذ العلاجات الموافقة لصحة الجسد وليس لهم عين تنظر تدبير ما يلزم لخلاصهم بل يؤخرون ذلك الى ساعة الموت فيماثلون ذاك القائد الذي لا يعدّ ما هو ضروري للحرب الاّ عندما تحيط به عساكر العدو من كل جانب . وهم اشبه شيء بمدبر سفينة لا يهتم بما يوقي سفينتهُ من الغرق الا عندما تهيج عليه العواصف الشديدة وتحصل في خطر قريب للانكسار . يعترفون بان القديسين تصرفوا بحكمة لانهم استعدوا للموت قبل مجيئهِ اليهم وهم لا يفتكرون بشيء من الاستعداد بل يظنون انهم يجنون من الشوك عنباً ويحصدون من الزوان قمحاً . ولكن هيهات ان يجدوا فرساً رأسهُ راس فرس وله طرف خروف فانهم يعيشون كالفرس الجموح بدون لجام ويرغبون ان يموتوا كالحمل الوديع اي يعيشون اشراراً ويحبون ان يموتوا ابراراً كما قال بلعام لتمت نفسي موت الصديقين ولتكن آخرتي كآخرتهم (عدد ص ٢٣ ع ١٠) وقد فاته ان الشاب بحسب طرقه وان شاخ فلا يحيد عنها (امثال ص ٢٢) اي مثل ما كانت افكاره واهتماماته في حياته تكون في ساعة مماته . وقلما يستفيد مذنب شرير من نصح المرشدين له وتحريضهم اياه على التوبة كما جرى باحد المذنبين الذي كان متوغلاً بحب المال فحضر عنده

ثلاثة من الكهنة الغيورين فخاطبة احدهم قائلاً قل معي انا اومن
بك يا الهي . فكان جوابه انا اومن واحقق ان الارض تخصب هذه السنة
وتاتي بغلات وافرة فاخزنها الى زمن الغلاء وعلو الاسعار وحينئذٍ ابيعها
واملأُ صناديقي مالاً (وكان على اخر نسمة) ثم قال له الكاهن الثاني
انظر الى هذا الصليب المقدس واستعن بيسوع المعلق عليهِ حبًا بك
فاجابهُ المدنف ما اثمن هذا الصليب اظنهُ من ذهب خالص ياليته لي .
ثم قال لهُ الكاهن الثالث (وكان ابنهُ) يا أبي ماللك وهذه الافكار
الباطلة لا يتعلق قلبك بالمال لان المال يبقى في دنياه قل من صميم قلبك
انا نادم فاجاب المريض نعم اني نادم من كل قلبي لاني اعطيت مالي
لفلان ولم يرده لي . واخذ يلتفت هنا وهناك قائلاً اين المفاتيح اخذوها
من تحت راسي سلبوا مالي ويل لي . وبهذه العلامات اسلم روحه بيد .
. . فلو كان الانسان يموت مرتين لكان يبقى رجاء لمثل هذا التعيس
ان يصلح حالة نفسه في الميتة الثانية ولكن هذا الامر مستحيل لانه قد
حتم على الجميع ان يموتوا مرة واحدة فقط وهي نهاية سفرهم الى الابدية .
فاسأله تعالى ان يفسح اجلكم زمنًا طويلاً عائشين برضاه واخيرًا
تحصلون على ميتة صالحة بشفاعة امكم مريم البتول ونعمة الاب والابن
والروح القدس

العظة الثانية والثلثون

« في الفرق ما بين موت الخاطي وموت البار »

قال داود النبي موت الخطاة بالسيئات (مزمور ٣٣) وكريم
لدى الرب موت ابراره (مزمور ١١٥)

انه لامر واضح ان الانسان يحصد ما زرع ان شوكاً فشوكاً وان حنطة فمثلها . فالخاطي الذي يحيا في الشر وعمل السيئات يكون موته شريراً . والذي يحيا في البر وعمل الصالحات تكون ميتته صالحة لانه من المحال ان الغرسة تثمر ثمراً من غير نوعها فالخروب لا يثمر عنباً ولا الترمس يثمر لوزاً . وهكذا لا ينتج من الحياة الشريرة ميتة صالحة . فمن يجني من الشوك عنباً او من العوسج تيناً (متى ص ٧ ع ١٦) . ومن المحال ان يبلغ الى اورشليم من يسالك في طريق بابل بل يبلغ الى المكان الذي توصل اليه تلك الطريق السالك فيها اي من يسلك طريق بابل الجهنمية لا يبلغ الى اورشليم السماوية . والعدل يقتضي ان الانسان يجني مما صنعت يداه والمرء يجزى بما فعل . فان فعل الخير يجزَ بخير وان صنع الشر يلقَ مثلهُ وعليه اقتضى ان نبين كيفية موت الخطاة وموت الابرار

موت الخطاة بالسيئات . لان من الخطاة من يكون موته خطيئة

كموت شاول الذي قال لحامل سلاحه استل سيفك واوجأني به ولما أبى حامل سلاحه اخذ شاول سيفهُ وسقط عليه فمات (ملوك اول ص ٣١) ومثلهُ موت يهودا الذي شنق ذاته . ومنهم من يموت في حال الخطية كموت فرعون اذ كان مضطهداً بني اسرائيل وموت سكان سادوم وعاموره وموت كل خاطي بدون توبة صحيحة . فهذا الموت شرير لاجل ثلاثة اسباب اولاً لان جميع الخطاة يرغبون في ان يموتوا موتاً صالحاً ولكن يكون ما لا يرغبون ثانياً لان في هذا الموت خسارة النفس وخسارة النفس هي خسارة الكل لانهُ ماذا ينفع الانسان اذا ربح العالم كلهُ وخسر نفسهُ (متى ص ١٦) ثالثاً لاجل العقوبات القاسية التي تلحق هذا الموت الشرير اي الانهر النارية والدود الذي لا يموت والسجن الابدي

والذين يموتون في حال الخطية على ثلاثة انواع اولاً الذين يموتون بغير توبة باختيارهم وهم المصرون على خطيتهم بعناد ولا يريدون الرجوع عنها ولا في حال اشرافهم على الموت . هكذا مات يوليانوس الكافر مجدفاً على الله فانه رُشق بحربة سماوية وقد اخذ حفنة من دمه النجس ورشقهُ الى الجوّ قائلاً لقد غلبت ياجليلي ومثلهُ كل الذين يأبون التوبة في ساعة الموت وفي خطره القريب . وكل الذين يموتون في حال البغضة والحقد والذين يابون ردّ مال الظلم والذين يضطرمون بنار الشهوات الى منتهى الحياة ثانياً الذين يموتون بحال الخطية ليس بارادتهم بل من قبل الانتقام الالهي عقاباً لخطاياهم السالفة التي اصرّوا

عليها وذلك اما الان موتهم يكون فجأة واما لتغاضي اقربائهم عن استدعاء الكاهن واما لتغاضي الكاهن عن الحضور عندهم او لثقل الداء وشدة الالم الذي لا يدعهم ان ينتبهوا لامر نفسهم . ثالثًا جميع الذين يموتون بتوبة كاذبة لانهم لا يحصلون على التوبة الحقيقية لاجل صعوباتها على من لم يمارسها حال صحتهِ لانه يلزم التائب الحقيقي ان يغير قلبهُ ويبغض ما كان يحبهُ قبلاً اشد محبة ويحب ما كان يكرههُ اعظم كرهًا . . ففي ساعة الموت لا يُظَن ان الخاطي ترك الخطية بل الخطية تركتهُ . والدليل انه لو شفي من مرضهِ لرجع اليها وكان لهُ سوء في الآخرة

اما الابرار فموتهم كريم لدى الرب لانه نهاية الاتعاب والشقاء وخاتمة الانتصار على الاعداء فاحرى به ان يدعى حياةً لا موتًا لانهم يخرجون من مكان الشقاء الى محل الراحة والسعادة كقوله تعالى طوبى للموتى الذين يموتون بالرب لكي يستريحوا من اتعابهم (رؤيا ص ١٤ ع ١٣) . فالشدائد التي تحيق بالاشرار عند ساعة موتهم لا تلتحق بالابرار لان نفوس الصديقين في يد الرب فلن يمسها العذاب (حكمة ص ٣ ع ١) فالشدائد التي تجعل الموت مرًّا ثلاث الاولى تعلق القلب بخيرات هذه الارض الثانية توبيخ الضمير على الخطايا المفعولة الثالثة تصوُّر تلك الحكومة الاخيرة المهولة

اولاً ان تعلق القلب يجعل الموت صعبًا جدًّا لان الموت هو وداع عام لكل ما عزَّ لدى الانسان . هو وداع للاولاد ولو كانوا وحيدين

وللاهل ولو اعزاء ومحبين وللاصدقاء ولو كانوا مخلصين . الموت هو وداع للاموال والكرامات . الموت هو وداع الافراح العالمية وسائر الملذات فالخطاة المتعلقة قلوبهم بمثل هذه الاباطيل يضطرون عند انفصالهم عنها الى ان يتأوهوا مع اغاغ الملك صارخين أهكذا يفصلنا الموت المرّ . يقينًا قد دنت مرارة الموت (ملوك اول ص ١٥ ع ٣٢) فكيف يكون موت ذلك البخيل الذي افنى زمانه بجمع المال وكان يفضلهُ على حياتهِ نفسها ووضع كل سعادته فيه وجعلهُ الهًا له وموضوع عبادتهِ متى رأى الورثة يتقاسمون خيراته ويفصلونها عنه قبل انفصال نفسه من جسده فلا ريب انه يصرخ باكيًا . وان سألوهُ ما لك تصرخ فيقول مع ميخا الهتي التي صنعتها اخذتموها وتقولون لي ما لك (قضاة ص ١٨ ع ٢٤) فيبكي على خسارة ذلك الصنم الذهبي المنقوش الذي كان موضوعًا في هيكل قلبهِ . ويقول ويلٌ فماذا بقي لي . بذلت حياتي حبًا لهُ وافنيت عمري بجمعهِ فماذا بقي لي . السماء خسرتها ونفسي اهلكتها وايامي انقضت واموالي أُخذت ولم يبقَ لي غير القبر (ايوب ص ١٧) قد ذكر ان القنفذ بعد ان يكون آكل من ثمار الشجرة المتناثرة على الارض يبتدي ان يتمرَّغ فوق تلك الثمار الفاضلة عنهُ فيشيكها بريشهِ ويحملها الى وكره محاولاً الدخول اليه من بابهِ الذي يصنعهُ ضيقًا مخافة ان يلجهُ غيره من الحيوانات فلا يستطيع الدخول فيضطر ان يلقي ما كان حاملهُ فيدخل فارغًا كما خرج فلا يكون انتفع بما جمع . هكذا يمتنع على الانسان ان يدخل القبر ومعهُ شيء من خيرات هذه الدنيا

بل كما دخلها عريانًا يعود الى القبر عريانًا · فلا ريب ان موت من تعلق قلبهُ بالخيرات الارضية يكون موتًا مضاعفًا لانفصال النفس من الجسد وانفصال القلب مما تعلق به . اما الابرار فلا يحزنون لتركهم هذه الخيرات الزائلة لانهم يكونون قد فصلوا قلوبهم عنها لعلمهم بخستها وزوالها بل يفرحون قائلين مع ايوب الصديق عريانًا خرجت من بطن امي وعريانًا اعود . ولا يحزنون لمفارقة الاهل والبنين لانهم يكونون قد احبوهم بالله فقط فيتركونهم بيد الله ولا يحزنون لشيء من كرامات هذه الارض ومجدها الفارغ لانهم اتخذوا الله مجدًا لهم

ثانيًا ان توبيخ الضمير يجعل موت الاشرار مرًا جدًا لانهُ في ذلك الحين تستحضر امامهم جميع الاثام التي فعلوها ولا يعود يسليهم تذكرهم ما مضى من الكرامات واللذات ويكفي نموذجًا لذلك جميعهِ ما جاء في سفر المكابين (ص ٦) عن انطيوخوس الملك فهذا لما داهمهُ الموت استدعى اليهِ اشراف مملكتهِ وطفق يحزن ويكتئب متنهدًا قائلاً الان اذكر · فقالوا لهُ اي شيء تذكر ايها الملك السعيد أتذكر عظايمك وغلباتك الشهيرة فاجاب كلاً بل اذكر الاثام التي ارتكبتها الان اذكر الشرور التي عملتها في اورشليم · الان اذكر نهبي بيت المقدس والمقتلة العظيمة التي صنعتها في الشعب وسلب اموالهم وابطال اعيادهم وطقوس ديانتهم واحراق توراتهم . فقالوا لهُ ليس وقت لمثل هذه التذكرات المكدرة لانك عليل افتكر بالجيوش التي اكسرتها والغنائم التي ربحتها والبلدان التي افتتحتها · فاجاب الملك قائلاً ويل لي لست اذكر من هذا

شيئاً . فاذا كان رجل كافر محتقر جميع الشرائع وقواعد الضمير ما استطاع ان يلقي عنهُ لدغ الضمير عند اخرتهِ الشريرة فليت شعري ماذا يحل بالمسيحي المؤمن المقر بالسنن والنواميس المستنير بانوار التعاليم الصادقة . فلو تفرستم في البحر حال سكونهِ ورايتموه رائقاً صافياً لحكمتم على عمقهِ انهُ خال من الاوساخ . ولكن انظروه في حين هيجانه تشاهدوا ما كان مكنوناً فيه من الاقذار والدِمَن طافياً على وجه الماء هكذا يبان في حال صحة الخطاة انهم على صفو عيش وراحة بال ولكن مهلاً لتاتي عواصف الموت فترى ضمائرهم قاذفة ما حوته من ادناس الخطايا واقذار الذنوب وتكون لهم شوكاً حاداً ينفذ قلوبهم ولا تدعها ان ترتاح اصلاً ودوداً لا يموت متولداً من وحول الخطايا . وخصماً قاسياً لا يبرح يزعجهم وقاضياً صارماً يحكم عليهم بالهلاك بازاء وجوههم . ويل للخطاة في ذلك الوقت فان بيوتهم تمتلئ شياطين وترقص حولهم الجان فيقول احدهم للخاطي التعيس لا تخف انك ستشفى من مرضك لا تعترف بخطاياك الان . ويقول لهُ الشيطان الاخر كيف تؤمل ان الله يسمع تضرعاتك وانت من سنين عديدة اصم عن استماع صوته تعالى . ويقول له اخر كيف تستطيع الان ان تداوي امراض نفسك وتصلح ما عكستهُ وترد ما سلبتهُ من الصيت والمال . وذاك يوسوس لهُ قائلاً اما تعلم ان جميع اعترافاتك باطلة لانها كانت خالية من الندامة وهذا كله ليزيد اضطرابه ويقطع رجاءه . يطلب السلام فلا يكون بل تاتيهِ داهية على داهية (حزقيال ص ٧ ع ١٥) واما الابرار فلا يزعجهم شيء من ذلك لان ضمائرهم تكون.

مطمئنة اما لانهم ما خطئوا قط او كفّروا عن خطيئتهم بتوبة صادقة وحينئذ تكون لهم التعزية بما فعلوه من الخير واحتملوه من بلايا هذه الدنيا كما يعزيهم ايضًا النظر الى صورة المصلوب وايقونة مريم العذراء والاسرار التي يتسلحون بها ورجاؤهم بان الله يرسل ملائكتهُ الحراس لمعونتهم على طرد قوات الجحيم وتاتي الام الالهية لتضعهم تحت برفير حمايتها وهكذا يرقدون بالسلام التام

ثالثًا ان تصور ذلك الحكم الاخير المهول القريب ان ينصب على الخطاة من الديان القائل اغربوا عني يكفي ان يجعل موتهم باعظم تعاسة وشقاء. غير ان رجاء الابرار بالله الصادق في مواعيده يجعل موتهم حلوًا لذيذًا ولذا يتوقون الى انحلالهم من هذا الجسد ليكونوا مع المسيح فاي مسجون لا يفرح عند ما يدنو زمن خروجه من السجن. وكيف لا يسرُّ المسافر بحرًا ما بين اضطراب الامواج ومخاوف الغرق اذا دنا وقت بلوغه الى المينا. وكم يبتهج ذاك الفلاح متى حضر زمن الحصاد وكانت ارضهُ الكثيرة وافرة الخصب. ويا لفرح الاجير عند اخذ الاجرة الوافرة فيلزم اذًا ان نعيش ابرارًا لنموت موت الابرار فلنعطَ ذلك بشفاعة مريم العذراء وخطيبها القديس يوسف شفيع الميتة الصالحة ونعمة الاب والابن والروح القدس امين

العظة الثالثة والثلثون

« في الدينونة العامة »

قال داود النبي الله ياتي جهاراً والهنا لا يصمت . النار قدامهُ
تتقد وحوله عاصف جداً . ينادي السماء من فوق
والارض ليدين شعبهُ (مزمور ٤٩)

ان سيدنا يسوع المسيح قد حتم منذ الازل ان ياتي الى الارض مرتين المرة الاولى ليخلص العالم والمرة الثانية ليدين العالم والفارق بينهما هوان مجيئهُ الاول كان مستتراً اي لابساً شبه العبد متضعاً وديعاً غير معروف من اكثر الناس لانهُ اتى كراعٍ يطلب النعجة الضالة وكصياد مترصد يستظل بظل الغابات ليقتنص وحوشاً واما مجيئه الثاني فيكون جهاراً وجميع ملائكتهِ معهُ فلا ترونه في مغارة حقيرة ما بين حيوانين ولا مصلوباً بين لصين بل على سحب السماء جالساً على منبر حكمهِ العادل . ولا يصمت في مجيئه الثاني كما كان في الاول صامتاً ولم يفتح فاهُ . ولا يصمت ايضاً كما هو صامت الان عن فاعلي الشرور . لانه يسمع ذاك المجدف على عزتهِ الالهية وهو صامت يرى ذاك السارق والفاسق وهو صامت ولكن يومئذ ياتي بصوت البوق والرعود وانقضاض الصواعق واضطراب الابحار وتساقط الكواكب والنجوم وضجة العناصر واتقاد

النار لانهُ يدعو السمآء من فوق والارض لمحاكمة شعبه

في مجيئه الاول اتى نظير ملك يدخل مدينة ليخطب له عروسة ومعهُ اكابر دولته وفي وجوههم سمات الفرح والابتهاج يحيون من يلتقون بهِ بالسلام ناشرين الوية الامان ولدى دخولهِ هذه المدينة يقابل سكانها بالبشاشة واللطف موزعًا النعم على الجميع هكذا صنع السيد المسيح في مجيئه الاول الى العالم ليخطب النفوس عروسات له. واذ دخل مدينة بيت لحم يوم مولده قد نشرت الملائكة علائم الفرح هاتفة المجد لله في العلاء وعلى الارض السلام وفي الناس المسرة وابتدأ بتوزيع النعم ينقذ الاسرى بالخطية يشفي المرضى يفتح العميان ويخرج الشياطين ويشبع الجياع الخ. واما في مجيئهِ الثاني فانهُ يشبه ملكًا اتي ليفتتح مدينة عاصية متمردة ياتي وجنوده مندججة بالاسلحة الحربية وعلامات الغضب والسخط في جباههم فيضربون تلك المدينة بالمدافع ويرشقونها السهام النارية ويصيرونها خرابًا. كذا يكون مجيء السيد المسيح للدينونة

ان من عادة رحمة الباري تعالى ان يسبق بالتهديد قبل انزال العقاب كما يتقدم البرق على الرعد والرعد على الصاعقة. وبهذا قال داود النبي جعلت لمتقيك راية ليهربوا من وجه القوس (مزمور ٥٩ ع ٦) وشواهد ذلك كثيرة لانه لم يسمح بالطوفان الاَّ بعد التهديد به ولم ياتِ بنار على سكان سادوم الاَّ بعد انذارهم بذلك. وقد سبق خراب اورشليم علامات مرعبة تهددهم بالخراب وهي ظهور نجم ذي ذنب فكان كأنهُ سيف يرعبهم. وبقرة ولدت حملاً. وافتتاح باب

المدينة من ذاته الذي كان يقتضي لفتحه نحو عشرين رجلاً فتغير مثل
هذه الطبائع كان دليلاً على ما سيحل بهم من الخراب . هكذا قبل خراب
العالم تظهر علامات تنذر بذلك · واليها اشار يسوع المسيح بقولهِ تقوم امة
على امة ومملكة على مملكة وتصير زلازل شديدة في اماكن عديدة
ومجاعات واوبية وتكون مخاوف ورعبات وآيات عظام تتراءى من
السماء وتحدث اشتية متراكمة (لوقاص ٢١) وتظلم الشمس والقمر لا يعطي
ضوءه والكواكب تتساقط وقوات السماء ترتج . فتاتي نارٌ من السماء
وتحرق الارض وما عليها كقول داود النار قدامهُ تسلك وتلتهب حول
اعدائهِ (مزمور ٩٦) لتطهر الارض التي تدنست بطاعون الخطايا ·
اهًا ما ارهب يوم الرب العظيم وما اخوف ذاك المنظر المرعب اذ ترى
السماوات تهطل من حضنها النار المشتعلة والارض تقذف من جوفها
نارًا تحرق الخطاة الاثمة . ترى اين يهرب الخاطي من لهيب تلك النار .
يحاول الالتجاء الى القصور الشامخة والدخول الى الابراج المحصنة فيراها
قد اندكت من قوة تلك النار الشديد سعيرها . يستغيث بالكهوف
الخفية فيراها قد حنقت عليه غضبًا وجيشت ضده جيوش نيران زاد
اشتعالها عدل الله . ويل أمّ الخاطي اين يفر والنار عن يمينه وشماله كأن
العالم قد استحال الى جهنم . كيف يكون حال الملوك عندما ينظرون
النار مشتعلة في قصورهم الشامخة التي كلّت الايدي في ابتنائها وحارت
العقول في هندستها ونظامها . كيف يكون حال التجار يوم يرون
النار قد دخلت مخازنهم والتهمت ما فيها · يوم يسمع من كل جهة هتاف

الاولاد الى امهاتهم منضيقين من الدخان محترقين من الاجيج . يوم يسمع بكاء النساء الناظرات اولادهنّ وليس لهنّ يدٌ لانقاذ ثمرة احشائهنّ من ذاك السعير . يوم ترى تلك الوالدة مضطرة الى ان تدوس ولدها الرضيع والاب ابنهُ والاخ اخاه . ذاك اليوم هو يوم ضرر وضيق . يوم ابادة واتلاف . يوم ظلمة وديجور . يوم غمام وضباب . يوم بوق وهتاف على المدن الحصينة وعلى البروج الشامخة (حفنيا ص ١ ع ١٥) واما الابرار فلا تمسهم التاربل يرتفعون الى العلاء كقول الرسول اما نحن الذين نبقى احياء في مجيء ربنا فلا نلحق بالذين رقدوا لكن نختطف بالغمام لنلقى ربنا في السحب (تسالونيكي ص ٤ ع ١٦) نعم انهم يموتون وانما يكون موتهم رقاداً

وبعد ان يموت كل حيٍّ يهتف البوق الاخير يا ايها الاموات قوموا من قبوركم وحينئذ يقوم كل انسان بصورتهِ الاولى بقوة القادر على كل شيء وتنصلح اغلاط الطبيعة فالاعمى يقوم مفتوح العينين والاعرج يقفز كالايل والمحدوب يقوم مستقيم القامة . وتنحدر انفس الابرار من السماء وتلبس اجسادها المباركة التي خدمت الله فيها وتصعد انفس الهالكين من جهنم لتتحد باجسادها الملعونة التي اهانت الله فيها ثم يامر الله بحضورهم حالاً الى وادي يوشافاط كقولهِ تعالى بلسان يوئيل النبي لتنهض الامم وتصعد الى وادي يوشافاط فاني هناك اجلس لادين جميع الامم من كل ناحية (ص ٣ ع ١٢) فالابرار ينتقلون بالخفة التي يعطونها واما الاشرار فتحملهم الابالسة الى الوادي كما كانت

نحملهم الى الخطاء وحينئذٍ تخرج الملائكة وتميز الاشرار من بين الصديقين (متى ص ١٣) لان الاشرار يختلطون في هذا العالم مع الابرار الاَّ انهم في يوم الدين يتميزون منهم . وقد عبرت الكتب المقدسة عن هذا التمييز بعبارات مختلفة اولاً بتمييز المعادن المختلطة والى ذلك اشار الرسول بقولهِ ان بنى احد على هذا الاساس ذهبًا او فضة او حجارة كريمة فسيعلن عمل كل انسان لان ذلك اليوم يعلنهُ (قرنتية اولى ص ٣) ثانيًا بتمييز التبن من الحنطة كقول الصابغ وبيده الرفش وينقي بها الندرهُ ويجمع قمحه في اهرائهِ واما التبن فيحرقهُ بنار لا تطفأ (متى ص ٣) ثالثًا بتمييز الراعي خرافهُ من جدائه بقولهِ تعالى ويميز بعضهم من بعض كما يميز الراعي الخراف من الجداء ويقيم الخراف من عن يمينه والجداء عن شماله (متى ص ١٥) رابعًا بتمييز الزوان من الحنطة وذلك بمثل الحقل حيث يقول دعوهما ينبتان معًا الى زمن الحصاد وحينئذ اقول للحصادين اجمعوا الزوان اولاً وشدوه حزمًا ليحرق . واما القمح فاجمعوه الى اهرائي (متى ص ١٣ ع ٣٠) خامسًا بتمييز السمك الجيد من الردي بعد اجتماعها بشبكة واحدة (متى ص ١٣ ع ٤٧) وهذا التمييز يكون اولاً من جهة المصاحبة . ان الاشرار يتمنون دائمًا الاختلاط مع الابرار ويبذلون جهدهم في ان يظهروا فيهم صورة الفضيلة لارتياحهم الى الاشتراك مع اصحابها فما امرَّ هذا الافتراق من الابرار ومن بعضهم ايضًا اذ يفترقون ويجمعون مع المساوين لهم في الشر المنافقين مع المنافقين الخ فيربطون حزمًا وتنتهرهم الملائكة قائلين لكل منهم أَانت ايها الشقي

تستحق ان تكون مع البار . يا ايها السارق انت تستحق ان تكون مع هذا
الذي كان يوزع من تعب يمينه وعرق جبينه على المحتاجين. اتكون
انت ايها الدنس مع العفيف كلاَّ اخرج من هنا . يوخذ الواحد ويترك
الاخر يوخذ الابن ويترك الاب . ثانيًا من جهة الرتبة اي اليمين
والشمال . ثالثًا من جهة المكان فوق واسفل . رابعًا من جهة القضية
الاخيرة اي تعالوا . واذهبوا . خامسًا من جهة الدوام الابدي وهذا
الامر الاصعب على الخطاة

ثم تنفتح السمآء وتظهر علامة ابن الانسان وهي الصليب صنجق المسيح
وهو سبب انتصار المومنين فتظهر صورتهُ على جباهم . لا تضروا
الارض حتى نَسِم عبيد الله على جباهم يقول يوحنا (رويا ص ٧)
واذ كان قديمًا شكًا للكفار والاثمة فسيكون يوم الدينونة هلاكهم
وعذابهم الدائم . ويظهر ايضًا العمود والمجالد واكليل الشوك الخ . وتنوح
جميع قبائل الارض لانهم لم يستفيدوا من آلام المسيح . وينوحون ايضًا
لانهُ لا مال ينفع الاغنياء في ذلك الوقت ولا الابرار تشفع بالاشرار ولا
الملائكة تعين البشر لان زمن الحكم لا يقبل رحمة كما ان زمن الرحمة لا
يقبل حكمًا . رحمةً وحكمًا اسبح لك يارب . فرحمة في مجيئه الاول وحكم
في مجيئهِ الثاني . فيجلس المسيح على سحابة بيضاء فوق وادي يوشافاط
وتجلس مريم العذرآء عن يمينهِ . كما قال داود قامت الملكة عن يمينك .
(مزمور ٤٤ ع ١٠) ويتم وعده للرسل فيجلسون على اثني عشر كرسيًا الخ
وحينئذ يقول الخطاة للجبال قعي علينا وللصخور غطينا من وجه الجالس

على الكرسي (رويا ص٦) . قال القديس غريغوريس ان طبقات القائمين يوم الدين اربع اولاً الذين يدينون ولا يدانون وهم افاضل القديسين كالرسل ومن ضاهاهم شرفًا واليهم اشار اشعيا النبي قائلاً سياتي الرب الى القضاء مع شيوخ شعبه ورؤسائهِ (ص١٣) ثانيًا الذين يدانون ويخلصون وهم الذين غسلوا اثوابهم التي تدنست بالخطايا وبيضوها بدم الخروف ودموع التوبة ثالثًا الذين يدانون ويهلكون وهم المؤمنون الخطاة الذين دنسوا قداسة ايمانهم برجاسة افعالهم الذين يقرون انهم يعرفون الله وهم كافرون به باعمالهم حسب شهادة الرسول (طيطوس ص ١ ع ١٦) رابعًا الذين لا يدانون ويهلكون وهم الغير المؤمنين كالوثنيين واليهم اشار الرسول بقولهِ الذين خطئوا بلا ناموس فبلا ناموس يهلكون (رومية ص ٢ ع ١٢) فهولاء يحضرون لا للفحص عن اعمالهم لان صورة هلاكهم مكتوبة على جباههم بل يحضرون لسماع الحكم المرعب ضدهم

وحينئذ يصير الفحص كقول دانيال النبي (ص٧) جلس القضاء وانفتحت المصاحف . ان المصاحف هي ضمائر الناس والانجيل وينصب ميزان العدل الالهي الذي توزن فيهِ الاعمال فقط لا المراتب والشرف ولا الاموال الخ . هناك تفحص موازين الباعة ويعرف نقص كل موزون ومكيول . هناك تفحص البيوت وما دخل اليها من الحرام وما جرى فيها من الاثام والتجديف واللعنات على الاولاد وعدم ادبهم وعلمهم . ويقال لذاك الاب اعطِ حساب وكالتك على بنيك : هل

ثقفتهم بحقائق الديانة وادبتهم على ذلاتهم وذنوبهم وكنت لهم نموذجًا صالحًا . او تركتهم على هواهم فتعلموا الشر من معاشرتهم الاشرار . ويا ايتها الامرأة ادّي حساب وكالتك على بنيكِ وبناتكِ هل ارضعتهم التقى مع الحليب او كنتِ لهم مثالاً سيئًا بسوء تصرفكِ قدامهم الخ

ثم ياتي المشتكون واولهم الشيطان فيورد جميع خطايانا معينًا اوقاتها ويقول ايها السيد دن هذا الخاطي وسلمهُ اليّ لانه خاصتي . الثاني الملك الحارس فيوضح ما ارشدنا بهِ ونهانا عنه . الثالث حيطان الامكنة التي صُنع فيها الاثم كقول حبقوق الحجر يصرخ من الحائط (حبقوق ص ٢ ع ١١) الرابع ضمير الخاطي كقول الرسول بصيرتهم تشهد عليهم (رومية ص ٢) الخامس الخطايا نفسها فانها تشهد عليه قائلة نحن اعمال يديك فلا نفارقك . السادس جراحات المسيح تشتكي على المذنب كقول الذهبي . اخيرًا الديان نفسهُ هو القاضي والشاهد كما جاء في ارميا اني اعلم واشهد يقول الرب (ص ٢٩ ع ٢٣) وحينئذٍ يكشف خطايا الهالكين امام الجميع كقول ناحوم يقول رب الجنود هاءنذا ارفع ذيولكِ على وجهك واري الامم سوءتكِ والممالك فضيحتكِ (ص ٣ ع ٥) سوف تكشف تلك الخطايا المخفية في الاعتراف وتلك الدسائس التي كانت تصير خفية الخ . اما خطايا التائبين فلا تكشف حسب راي القديس توما سندًا الى قول المرتل طوبى للذين غفرت ذنوبهم والذين سترت خطاياهم (مزمور ٣١)

قد يمكن للمذنب ان يتخلص من ذنبهِ في المحكمة العالمية باحدى

ثلث وسائط اما بالتخويف اذا كان ذا سلطة وصولة واما بالرشوة للقاضي وللشهود اذا كان ذا مال كثير واما بالحيلة اذا كان ذا دهاء ومكر . ولكن في محكمة الله لا دخل لشيءٍ من ذلك لانه من يقدر ان يخيف الديان واعمدة السماء ترتعد امامهُ · ولا يقبل رشوة راشٍ بل يقول لهُ فلتذهب فضتك معك للهلاك · ولا حيلة لمحتال بعد ايضاح الذنب واثباته باعدل شهود بل ان كل ذي اثم يسدُّ فاه كما قال المرتل (مزمور ١٠٦ ع ٤٢)

هلموا واسمعوا الحكم الاخير الذي ليس بعده حكم . فيلتفت الديان نحو المختارين قائلاً لهم تعالوا يا مباركي ابي رثوا الملك المعدَّ لكم منذ انشاء العالم تعالوا من الظلمة الى النور من العبودية الى حرية ابناء الله من التعب الى الراحة الدائمة من القتال الى السلام من الموت الى الحياة من رفقة الاشرار الى صحبة الملائكة . فلتكن مباركة دموعكم التي اذرفتموها على خطاياكم مباركة صدقاتكم التي تصدقتم بها على اخوتي مباركة عبادتكم الى مريم امي مباركة اتعابكم ايها الكهنة في تخليص النفوس · ثم يلتفت نحو الهالكين بوجه غضوب ويبتدئُ بتعنيفهم قائلاً قد صورتكم وابدعتكم وانتم التصقتم بغيري خلقت لكم السماوات والارض وما فيها وانتم صيرتموها لاحتقاري . خلقت لكم سمعاً لتسمعوا قراءة الكتب المقدسة وانتم نصتم الى الاغاني السمجة والخرافات الباطلة والى تسبيح الشيطان . ابدعت لكم نظراً لتبصروا نور اوامري وتقتدوا بها وانتم فتحتم اعينكم الى كل سماجة وانتهاك · رتبت لكم فماً لتمجدوني وترتلوا

المزمورات الروحية وانتم تصرفتم به للولائم والشراهة والحنث والتجديف والثلب قد اصلحت لكم الايدي لتبسطوها الى التضرع وعمل الخير وانتم مددتموها الى الخطف والضرب · كنت ايها الخاطي اذا رأيت سارقاً تجري معهُ ومع الفاسق جعلت نصيبك · فمك اكثر من الشر ولسانك ضفر غشوشاً اذا جلست تقع باخيك وعلى ابن امك وضعت شكاً صنعت هذا وسكتُّ عنك فظننتَ اني مثلك لاوبخنَّك واقيم خطاياك امام وجهك (مزمور ٤٩). فيا لتعاسة الخطاة في ذلك الوقت المرعب اذ يتأكدون هلاكهم من تعنيف الديان لهم ومن نظره مغضباً عليهم · فحينئذٍ يبتدئون بوداع الخالصين لانه قد يتفق من اخوين ان يكون احدهما خالصاً والآخر هالكاً فيقول الهالك لاخيه خاطرك يا اخي اني ما عدت اراك ابداً . والام تقول لابنتها هذه المرة الاخيرة التي فيها اراكِ يا ابنتي آهاً ما امرَّ هذا الوداع اذ لم يعد امل في ان اراكِ فيما بعد · والابنة تقول لامها وداعاً لكِ يا امي هنيئاً لكِ قد حصلتِ على الراحة الدائمة وابنتكِ في عذاب دائم ما لي اراكِ لا تذرفين دمعة واحدة على ابنتكِ · متى قسا قلبكِ هكذا وقد كنتِ فيما مضى تتألمين لمصائبي · ويلٌ لنا ما من يرثي لحالنا ولا من يرحم شقاءنا . فلما فرغ موسى النبي من تعنيف بني قوروح على تعديهم ناموس الرب انشقت الارض التي تحتهم وابتلعتهم احياء واطبقت عليهم الارض (سفر العدد ص ١٦) · هكذا يصيب الخطاة الذين يرشقهم يسوع المسيح باللعنة الاخيرة قائلاً لهم اغربوا عني يا ملاعين الى النار المؤبدة المعدة لابليس وجنوده (متى ص ٢٥)

اذهبوا عني بعيداً الاني ما عدت اريد ان اراكم او اسمع صوتكم فحالاً تهيج العناصر ضدهم . الارياح لتمزقهم . والنار لتحرقهم باجيجها . والمياه لتغرقهم بتيارها فتنشق الارض تحتهم ويفتح فم الهاوية الجهنمية وتخطفهم الشياطين وتكردسهم في بحيرة النار ليحترقوا بانفسهم واجسادهم الى الابد ..

العظة الرابعة والثلثون

« في جهنم »

يقطعون ايامهم في الرغد وفي لحظة يهبطون الى الجحيم
(ايوب ص ٢١ ع ١٣)

طالما تخيَّل الخطاة اعذارًا تسكن لدغ ضمائرهم وتبدد جيوش افكارهم المقلقة لراحتهم وذلك بزعمهم الباطل ان لا ثواب ولا عقاب في الآخرة وعلى هذا الوهم الفاسد يفنون حياتهم بملاذ الجسد متطلبين الرغد بحسب سعة العيش غير مفتكرين بما وراء ذلك من شديد العقاب . هكذا كان ذلك الغنيُّ الغبيّ يلبس البرفير والارجوان ويلتذ بشهواتهِ كل يوم متنعماً بالسكر والشراهة وعندها كان ينطلق لسانه للتجاديف والشتائم ويداه للسلب والضرب ورجلاه في السعي لارتكاب كبائر الذنوب

غارقًا في لجة الفحشاء ولم يكن ليرحم فقيرًا او يرثي لذاك العازر المضروب بالجراح والقروح الملقى على باب داره باخلاً عليه بكسرة من فضلات كلابه وكثيرًا ما كان يؤمّل ذاته بالحياة الطويلة والعمر المديد كأنَّ غناه وملذاته تصدُّ الموت عنه وتسدُّ دونه باب الهلاك . وبينما كان يقطع ثمين الايام باقطع الآثام واذا بسيف العدل الالهي قد قطع خيط حياتهِ كما صرَّح الانجيل بقوله مات الغني وقبر في الجحيم (لوقا ص١٧) وقد خاب ظن مثل هولاء واخطأَ سهمهم وتشبثوا بالمستحيل وسعوا وراء الباطل بزعمهم لا ثواب ولا عقاب

لانه لا ريب بوجود مكان معدّ لتعذيب الخطاة المصرّين على آثامهم . لان الله قدوس فيكره الرذيلة وملك عادل يعاقب عليها . فاذا كانت ملوك الارض تعاقب مرتكبي الشرور فبالاولى ان ملك السماوات والارض يقتصُّ من الاشرار . وكما ان عقاب المذنبين في هذه الدنيا يكون مختلفًا باختلاف الذنوب فبعضهُ قصير المدة وبعضهُ طويلها بعضهُ خفيف وبعضهُ شديد بعضهُ ينتهي بزمان وبعضهُ لا ينتهي حتى الموت . هكذا يكون عقاب الخطاة في الآخرة فمنه ما ينتهي بزمن وهو عذاب من بعثت بهم رحمة الله الى المطهر . ومنه ما لا ينتهي وهو عذاب من بعث بهم عدل الله الى جهنم ليعذبوا عذابًا غير متناهٍ لانهم اهانوا الهًا غير متناهٍ . فان وجد من لا يؤمن بهذه الحقيقة فما ذاك الاَّ من فسدت سيرته وساءت سريرته . فارفع الكبرياء من عقل المتكبر والرجاسة من قلب الدنس السيرة فتراهما يقران بوجود جهنم لان نخس

ضيرها يكذبهما. والكتاب المقدس يحقق ذلك بآيات كثيرة منها
قول اشعيا النبي من منكم يقدر ان يسكن في النار الآكلة . من منكم
يسكن في المواقد الابدية (ص ٣٣ ع ١٤) ومنها قوله تعالى النار مشتعلة
بغضبي وتحرق حتى الى اسفل الجحيم (تثنية الاشتراع ص ٣٢) ومنها
قول داود النبي يمطر على المنافقين فخاخاً وتكون النار والكبريت وريح
السموم حظ كاسهم (مزمور ١٠ ع ٧) ويسوع المسيح في اصحاح واحد
من انجيلهِ الشريف قد كرَّر هذه الحقيقة مرارًا بقوله من قال لاخيهِ
احمق يكون مستوجب نار جهنم . وان شككتك عينك اقلعها والقها
عنك فخير لك ان تدخل الحياة بعين واحدة من ان يكون لك عينان
وتلقى في جهنم النار حيث دودهم لا يموت ونارهم لا تطفأُ الخ (متى ص ٥)
وخاطئ يتفلسف قائلاً اريد ان اتمم مرغوباتي في هذه الحياة ولا
يهمني ما سيحدث بعدها (يوم الله يعين الله) فيا لهُ من ازدراء مملوءٍ حماقة
العلّ عذابات جهنم لا توجب التحذر منها فلو افترضناها تحت الريب
اما كان يجب ان نخافها وتوعب قلوبنا رعبةً . ناشدتك الله ان تقول
الحق لو ظننت ان في الطعام سمًّا اكنت تتناول منهُ او لو توهمت ان
في الطريق خطرًا هل كنت تسير فيهِ كلاَّ بل كنت تمنع نفسك عن
مثل هذا الطعام ولو كنت متضورًا جوعًا ولا تسلك مثل هذه الطريق
ولو كان سفرك مهمًّا جدًّا . فلمَ تتحاشى ما يضر بالجسد ولا تتقي ما يضر
النفس والجسد معًا . وطالما استخف الخاطئ بقوله لا بأْس ان ذهبت الى
جهنم فاني اتعزى بوجود كثيرين هناك . فيا لهُ من كلام تهتزُّ منه

الفرائص اذ يتخذون الحقائق الدينية الراهنة للمزاح والسخرية كأن جهنم ملعبة صبيان او كأن كثرة الهالكين فيها تقلل عذابها مع ان مجرد التفكر بها يجمد الدم في العروق . ولا يزدري بها الاَّ الكافر الذي لا يقرّ بوجود الله العادل الصادق فيما يقول ولا يستخف بتلك النار الشديد سعيرها الاَّ المجنون الفاقد التعقل . فلتبكِ العيون ولتتقرح الجفون على نفوسٍ شراها الرب بدمه الثمين وهي لسوء افعالها تتلظى بنار لا يستطيع احد ان يطفئها . تلك نفوس بائسة لان النار طعامها والدموع الغزيرة شرابها . تتعذب بما لم تكن تخشاه . وتحترق بنار لم تكن ترهبها . نفوس مسجونة بسجن دائم تعترف بما كانت تنكره وتقرّ بما كانت تخفيهِ وتستره

ان ديونسيوس الملك قد اخترع سجناً لعذاب المذنبين وفيهِ نافذة بشبه لولب على صورة اذن توصل الصوت الى بلاط الملك حيث يكون جالساً على عرش ملكه ومنها كان يسمع ما يتفوهُ به كلٌّ من الاشقياء المسجونين . منها كان يسمع اقرارهم بذنوبهم بعضهم لبعض وتجاديفهم ولعناتهم على السجان وعلى الملك نفسهِ وعلى من كان يحرضهم على الشر فكان الملك يضحك منهم ولا يعبأ بصراخهم . فلو كان لجهنم سجن الهالكين مثل هذه النافذة لكنتم ترون منها حالة المعذبين العائمين في بحيرة النار نظير قطعة حطب في اتون مشتعل . النار فراشهم والنار غطاؤهم النار عن يمينهم وشمالهم . النار تخرقهم وتحرقهم داخلاً وخارجاً . وكنتم تسمعون من تلك النافذة بكاءهم وعويلهم وتجاديفهم . تسمعونهم

يلعنون البطن الذي حملهم واليوم الذي ولدوا فيه والحليب الذي رضعوه والشمس التي اشرقت عليهم والنسيم الذي استنشقوه والوالدين الذين تغاضوا عن حسن تربيتهم . من هناك تسمعونهم يجدفون على الله وعلى اسراره الالهية التي ازدروها . ويعترفون بذنوبهم التي اوصلتهم الى مثل هذا العذاب . تسمعون قاين يقرُّ للهالكين باثمه الفظيع حينما قتل اخاه هابيل الوديع وقد كان انكره عن الله . تسمعون سكان سادوم ومن ضاهاهم يقرون بما ارتكبوه من افظع القبائح متأسفين على عدم ارتداعهم بتهديدات ابرهيم . من تلك النافذة تنظرون الهالكين مكردسين بعضهم فوق بعض عديمي الحركة كقوله تعالى ليصيروا بغير حركة مثل الحجارة (خروج ص ١٥) لا بل نظير جمر النار يحرق بعضهم بعضاً فهم يبكون في جهنم والساكن في السماء يضحك منهم والرب يستهزئ بهم (مزمور ٢) وهذا الاستهزاء هو اشد عذاب للهالكين كما ان الاستهزاء بمن خسر امواله الوافرة باللعب هو امرٌ لديه من خسارته الاموال نفسها والضحك عليه يمزق احشاءه غيظاً اكثر من انغلابه في اللعب

وبلٌ على ويل بل الوف من الويل للهالكين الذين يتجرعون كاس غضب الرب الممزوج بصرف العذابات حيث يتعذبون بالنار والكبريت ودخان عذابهم متصاعد الى ابد الابدين لا يفوزون براحة لا ليلاً ولا نهاراً لا من النار التي تحرقهم ولا من الدود الذي يقرضهم . هناك المناحة والشهيق وليس من يرحم . هناك البكاء والوجع وليس من يسمع هناك الحريق قادح ولا مرهم يخففه . والعطش شديد ولا ماء

يرويه . الجوع كلبي ولا قوت يسده . والحزن عميق ولا رقاد يسكنهُ . والعار فاضح ولا نقاب يستره . ويا ليتهُ يوجد موت تنتهي بهِ هذه العذابات لكنهم يطلبون الموت ولا يجدونهُ ويهتفون من جوارح قلوبهم في تلك الهاوية المظلمة اين انت يا ايها الموت اين انت لماذا لا تاتي الينا . فيصرخ كهنة باعال اهًا لشقائنا اين سيفك يا ايليا الذي اماتنا اولاً فليمتنا ثانيًا . ويهتف زمري اين النار التي حرقت بها نفسي ومت (ملوك ٣ ص ١٦ ع ١٨) ويقول يوضاس اين الحبل الذي به خنقت نفسي ومت كيف لا نجد بهذه العذابات ما يكفي لموتنا . ماذا تصنع ايها الدود . اين قوتكِ ايتها النار احرقينا وافنينا . ولكن الدود يرعاهم ولا يفنيهم والنار تحرقهم ولا تلاشيهم

فمن منا يقدر ان يسكن في النار الآكلة . ومن يستطيع ان يلبث في المواقد الابدية . ايتها الامرأة التي تنعمين جسدكِ بالملابس الناعمة أتقدرين ان تلبثي في المواقد الابدية وتحتملي الطعن بتلك الحراب النارية والحال انكِ لا تحتملين الان نخس ابرة ولا لدغ برغشة . ويا من تطلب لذة جسدك وراحتهُ اتقدر ان تلبث في النار الآكلة وتستنشق نتن تلك الجيف المنبعث من الهالكين الذين قال عنهم اشعيا النبي هناك قتلاهم مطروحون ويفوح نتن جيفهم (ص ٣٤) والحالة انك لا تطيق ان تستنشق رائحة الفقير اذا دنا منك . وماذا تقول ايها الكاهن المتواني اتقدر ان تلبث في المواقد الابدية مع انك تضجر من المكث في الكنيسة ساعة واحدة وماذا تقول ايها الشاب هل تقدر ان تسكن في النار

والحال انك لا تسير ايام الصيف الا والمظلة فوق راسك وثناً ومن الحرارة اذا اشتدت يسيراً . ان اشتداد الحر في زمن الصيف يزعج الكثيرين مع انه يمكن تخفيفه بثلاثة اما بالانتقال من الامكنة الحارة الى الامكنة الباردة . واما بالماء المبرَّد بالثلج واما بالامل في انتهاء فصل الصيف ومجيء الشتاء . واما الهالك فلا شيء من ذلك يخفف شدة احتراقه فليس له الحرية لينتقل من مكانهِ بل حيثما يسقط يثبت الى الابد . ان الكلب المربوط يتحرك على قدر طول رباطهِ والمسجون يتحرك على مدى اتساع سجنهِ . يتقلب المريض بالحمى و يتحرك بمقدار اتساع فراشهِ . وكلٌ بهذه الحركة يجد نوعاً من الراحة . هل تحرك قايين بكر الناس الهالكين منذ سقوطهِ في جهنم الى الان لا لعمري . هل تحرك يوضاس منذ سقط هناك كلاّ . وليس للهالك ماء ليبرد غليله فلنصغَ الى تلك الاصوات الصاعدة من عمق جهنم . يا ابتاه ابرهيم ارحمني . فمن هو الصارخ هو رجل غني كان يلذ ويتنعم كل يوم بالمآكل المتمقة والمشروبات المبردة . ماذا تريد يا من تصرخ ماذا تطلب من ابرهيم . اريد ان يأمر العاذر المسكين ليغمس طرف اصبعه بالماء و يرطب طرف لساني بنقطة واحدة . الا تشمأز من هذا الماء القليل القاطر على لسانك من اصبع فقير وسخة . لا يا ابتاه لاني معذب بهذا اللهيب . فليرتعد من يرغب في شرب كاس بابل وليتعظ من لا يلجم لسانه عن الشر . لقد مضى الف وثمانمائة وتسعين سنة على هذا الملتهف المشتاق الى قطرة ماء ولم تعطَ له ولن تعطى له الى الابد . ولا امل للهالك في منتهى عذابهِ

لان الابدية لا نهاية لها بل لا يزال يسمع بوق العدل الالهي هاتفاً بهذه الالفاظ وهي دائماً . ابداً . سرمداً . ليت شعري ما معنى هذه الالفاظ هل معناها انهُ يتعذب الى ان يجفف عصفور مياه البحار اذا شرب منها كل سنة قطرة واحدة . او الى ان تقرض دودة حقيرة اشجار الارض اذا قرضت كل سنة قرضة واحدة . او الى ان تطوف نملة كل الارض اذا مشت كل سنة خطوة واحدة . كلا ثم كلا . بل اكثر من ذلك بما لا يحصى . فلنتصور ان الهالك يقطر من عينيهِ في كل ربوة من الاجيال دمعة واحدة ويجتمع منها طوفان اشبه بالطوفان العرمرم الذي غرق العالم فبعد مضي هذه الاجيال كلها تكون جهنم على بدايتها

والذي يخشى عليهم ان يهبطوا الى جهنم هم اولاً الذين يرتكبون الخطأ المميت بسهولة ثانياً الذين يستمرون في حال الخطية المميتة زمناً مديداً ثالثاً الذين لا يتوبون عن سيرتهم الردية ولا يجتهدون بذلك رابعاً اصحاب الملكات السيئة والذين يجتنبون اسباب الخطية خامساً الذين يمسكون مال الظلم والذين اشار اليهم الرسول بقولهِ انه لا الزناة ولا السكيرون ولا الحاقدون ولا الدنسون يرثون ملكوت الله بل يكون نصيبهم في بحيرة النار والكبريت اوقاكم الله من ذلك وجعل حظكم مع العاذر في حضن ابرهيم حيث الراحة الدائمة والفرح الذي لا يزول الى الابد امين

العظة الخامسة والثلثون

« في التوبة »

قال الرب في انجيلهِ المقدس ان لم تتوبوا فتهلكون

(لوقاص ١٣ع٥)

لا مناص للخاطىء من احد امرين اما التوبة الصادقة . واما جهنم الخالدة . لانهُ لابدَّ للخطية من عقاب اما من فاعلها واما من الله . فان اقرَّ المذنب بذنبهِ وكفر عن اثمه باعمال مبرورة غفر لهُ الرب بحسب وعده الصادق بلسان حزقيال النبي القائل ان تاب الاثيم عن اثمهِ وصنع العدل حياةً يحيا ولا يموت وجميع خطاياه لا اذكرها له (ص ٨١ ع ٢١) وان اصرَّ على شرّه فله من الله عقاب عظيم وعذاب اليم . ولا يظن بانسان مؤمن انه يختار لنفسه عذابات جهنم وابديتها مستسهلاً سعير نارها الابدية على مشقة التوبة الزمنية بل على العاقل اذا وقع بين خطبين ان يختار اصغرهما اي يجب عليه ان يتحمل مشاق التوبة مهما طالت بحيث ينجو من الهلاك الدائم . هذا الذي حمل التائبين على ان يتركوا ملذات العالم ويعتنقوا سيرة النسك والعفاف وان يغادروا افراح الدنيا ومسراتها ويلازموا البكاء وذراف الدموع . هذا الذي جعل ادم ان يبكي خطيته تسعمائة وثلاثين سنة هذا الذي ابكى حواء

حياتها كلها لتنجو من البكاء الدائم . هذا كان سبب توبة اهل نينوى الشاقة اذ بكى الملك والرعية . بكت الاباء والاولاد والامهات والبنات ناثرين الرماد على رؤوسهم لابسين المسوح عوض تلك الملابس الناعمة صائمين هم واطفالهم عوض تلك الشراهة بالماكل والمسكرات . ترى ما الذي جعل داود النبي ان يبكي ليلاً ونهارًا حتى كان يبل فراشه بدموعه ويمزج شرابه بعبرات عينيه الا خوفهُ من ان يكون ممن فراشهم النار وشرابهم خمر رجز الله في بئر العمق بدليل قولهِ نجني يارب لئلا يغرقني العاصف وتطبق عليَّ البئر فاها (مزمور ٦٨ ع ١٦)

ارمقوا بعين الايمان ذاك الشعب الاسرائيلي في السبي فتروهم جالسين على انهر بابل مازجين مياهها بمجاري دموعهم معتاضين عن الات الطرب باصوات البكاء والنواح قائلين ويل لنا لاننا خطئنا . ادخلوا بيت سمعان الفريسي تشاهدوا امرأة تائبة تغسل قدمي المسيح بدموعها وتنشفها بشعر راسها وتسمعوا صوتًا يوعب القلوب فرحًا ورجاء صوت ابٍ غفور قائلاً مغفورة لها خطاياها الكثيرة . ادنوا من دار بيلاطوس تشاهدوا شيخًا جليلاً هو بطرس يبكي والدموع تهطل من عينيه كالمطر وكان صياح الديك يهيج لهُ البكاء حتى ملأ نواحي اورشليم نواحًا على ما فرط منه من الجحود وهذا البكاء هو الذي عطف قلب يسوع لينظر اليه بعين الرضى صافحًا عن ذلته . تقدموا قليلاً فتشاهدوا على جبل الجلجلة لصًا معلقًا على خشبة عن يمين المخلص يبكي مآثمه بعبرات سخينة معترفًا بذنوبه قائلاً بعدلٍ جوزينا مقدمًا عذابه كفارة

عن اثمه يطلب وقلبهُ مملوءٌ من الرجاء قائلاً اذكرني يا رب . الجوا مغارة
بيت لحم فتجدوا هناك حبيساً تقادم عهده فيها يجبل ترابها بدموعه
ويلين صخرها بخشوعه صارفاً معظم اوقاته بالصلوات الخاشعة متحملاً
شديد الجوع ومزيد العطش ونوافح البرد القارس بجميل الصبر وكأنَّ
ما تحملهُ من تاثيرات الجو وكبح امال الطبع البشري برقاده على الحضيض
وترك المال والآل لم يكفِ كفارةً عن هفواته الماضية فكان ياخذ بيده
حجرًا يقرع به صدره قائلاً اني اسمع باذني صوت البوق الاخير هاتفاً
يا ايرونيموس احضر الى الدينونة . وهذا كان يزيد بكاءه ويفيض
دموعه . ومثلهُ كثير من الحبساء والنساك والرهبان والسياح من رجال
ونساء من كل قطر ومصر كانوا يبكون الليل والنهار راجين النجاة من
الهلاك . جوبوا برية الاردن تبصروا هناك تائبةً هي مريم المصرية تبكي
ذنوبها الكثيرة لتنفي عن ذلك الفرح بالبكاء الدائم وتعذب عينيها
بالدموع السخينة كفارةً عن نظرها ما كان محظورًا وتقمع جسدها
بالصوم سبعًا واربعين سنة تاكل ما قل من عشب الارض وفاء عما تنعمت
به من الملذات . فراشها الحضيض وغطاؤُها السماء . سميرها وحش
البرية ثيابها شعر راسها . هذه صورة التائبين الذين كانوا يصرفون
نهارهم بالاصوام والجلد ويحيون ليلهم بالصلوات المتواصلة والعبرات
الهاطلة . هذه توبة الخطاة الذين رحضوا ادران نفوسهم بدموعهم واطفأوا
نار الجحيم من امامهم

والذي يتأخر عن التوبة حينما يدعوه الله اليها ياتيه زمان فيه

يطلب الله فلا يجده غفوراً كقوله تعالى طلبتكم ما وجدتكم . تطلبوني فلا تجدوني (يوحنا ص ٧) . ياديوجانيس لا تؤجل مواجهة طيباريوس الى سبعة ايام متعللاً بان لك اشغالاً مهمة تعوقك لان هذه المواجهة هي اهم فطيباريوس يصير ملكاً عن قريب ونضطر ان نتوسل ليسمح لك بمواجهته فيؤجلها لا الى سبعة ايام كما صنعت انت بل الى سبع سنين وحينئذٍ تقرع سنك ندماً على جفاوتك وتلطم وجهك غيظاً من تغفلك فتموت كمداً او تحيا منغّص العيش قلقاً . وانت يا ايها الخاطي لا تؤجل توبتك الى الله الذي يطلب رجوعك . لا تقل ان لي شاغلاً يشغلني و بعد سبعة ايام اتوب اما اليوم فلا اقدر لاني اشتريت حقلاً والضرورة تدعوني الى ان اراه . لا تقل الان لا استطيع لاني اتخذت خمسة ازواج بقر (اي خمس حواس) فيلزم ان اشغلها . لا تقل اني اتخذت امرأة وصرت رب بيت فيقتضي ان اهتم بعيالي فمتى صاروا في غنى عن مساعدتي حينئذٍ اتوب متفرغاً لخدمة خالقي والاهتمام بامر نفسي لانه يأتيك يوم وهو قريب تطلب فيه مواجهة ربك فيؤجلها لا الى سبع سنين بل الى الابد ويقول لك اغرب عني لاني طالما دعوتك بصوت الهاماتي فقاومتها . دعوتك بصوت المرشدين فلم تصغَ ودعوتك بلسان ابن سيراخ القائل لك لا تتأخر عن التوبة الى الرب (ص ٥) وانت كنت تسد اذنيك مشتغلاً يوماً بتجارتك . ويوماً بتوسيع ادارتك . يوماً باراضيك . ويوماً بمواشيك . يوماً بعيالك . ويوماً بتكثير اموالك وهذا التباطي . قد اهلك كثيرين مثلك . . اي مديون

حكم عليهِ بالسجن ليفي ما عليه وتيسر لهُ كنز مفتوح وهو يتأخر عن ان ياخذ منهُ ما يفي ديونهُ . فانت مدبون لله وها كنز النعم موجود وباب التوبة مفتوح فلمَ تتأخر ولا تسرع لانقاذ نفسك من السجن الابدي وايُّ عليل يكابد مرَّ الاوجاع ويتقلب على سرير الضنى يتباطأُ عن اخذه دواء يقدمهُ لهُ احذق الاطباء مجانًا ويضمن لهُ الشفاء . وكم من المرضى بالروح الذين امست امراضهم عضالة يتقاعدون عن تناول الدواء الشافي المقدم لهم من الطبيب السماوي . فالجرح ينجع علاجه طريًا وكلما تأخر تعسر . وابطاء تنظيف الآنية من اوساخها لا يرجى منه الّا ان تستمرَّ على ما كانت . والاسعاف ينفع المدينة قبل ان يدخلها العدوّ

ان الذين يؤخرون توبتهم يشبهون المسافرين في البحر بغير زاد ولا يفطنون بذلك الا عند ابتعادهم من البر حيث لا يعود يمكنهم الرجوع الى المينا فيموتون جوعًا كذا حال الخاطي المسافر في بحر ذنوبه الذي لا يفتكر بزاد الآخرة الّا في ساعة الموت وحينئذٍ يريد ان يتوب نادمًا ولكن لات ساعة مندمٍ . ان ابني زبدى قالا للسيد المسيح انهما يشربان الكاس التي يشربها لكن وقت آلامهِ تركاه . كذا يصنع الاثيم الذي يغد بالتوبة وعند الضيقة يهملها . قد أُعطي لاهل نينوى مهلة اربعين يومًا ومع ذلك لم يؤخروا توبتهم ساعة وانت لم يعطَ لك ساعة مؤكدة وتؤخر توبتك اربعين سنة فاهل نينوى يقومون في الدين ويشجبونك . ان من اراد الدخول في النهار الى مدينة محاصرة

وبيده تذكرة مرور يفتح لهُ واذا تأخر الى زمن الليل فيمنع عن الدخول ولو كرَّر قرع الباب . وهكذا من قرع باب مدينة اورشليم السماوية في مساء عمره فلا يفتح لهُ . قد قرعت الباب العذارى الجاهلات انتصاف الليل وكرَّرنَ التوسل بقولهنَّ ربنا ربنا افتح لنا فلم ينلن ذلك بل استمرَّ باب المراحم الالهية مغلقًا دونهنَّ ومكثنَ خارجًا . فلنرجع الى الله ما دام لنا زمان للرجوع ولا نوَّخر التوبة الى مساء حياتنا لئلا يدركنا ظلام الموت . لا نقدم للدنيا ثمين عمرنا ونبقي خسيسهُ لله فيرذلهُ الرب كما رذل تقدمة قاين . قيل ان احد المصورين كان ماهرًا جدًّا في رسم الهيئة غير انهُ كان يبتدئ من القدم في تصويره ولهذا كان يتفق احيانًا ان القماش لا يكفي فتبقى الصورة بدون رأس او براس غير كامل . كذا نرى كثيرين اصحاب ذكاء وعقول سامية ماهرين في جميع اعمالهم غير انهم يبتدئون من القدم اي يصرفون جل ما عندهم باموزهم الزمنية تاركين الراس اي اعمال التوبة المهمة لآخر حياتهم وهيهات ان يبقى لهم زمن لاتمامها كما يجب · توبة المريض مريضة يقول القديس اغوسطينوس لانهُ مستحيل على الانسان ان يتقن مهنة لم يكن مارسها في مدة حياته · من ذا الذي يستطيع ان يبني دارًا ويتقن بنيانها اذا لم يكن تعلَّم قبلاً

فلا توخر التوبة الى الرب ولا تتباطأ من يوم الى يوم فان غضب الرب ينزل بغتة ويستاصل في يوم الانتقام (ابن سيراخ ص٨ ع٨)

لا تظن يا ايها الجاهل ان الايام في قبضة يدك · وانك تتصرف بها كيفما شئت كانها بسطة قماش تفصل منها ما تريد · تقول اليوم اخطأ وغدًا

اتوب اليوم اجمع المال ولو بطرق غير مباحة وتعد نفسك انك ستوزعه فيما بعد على الفقراء. تصرف ايام الشبيبة بافتعال المنكرات واقبح الذنوب معللاً نفسك انك في زمن الشيخوخة تتوب. هكذا كان يفتكر ذلك الغني محدثًا نفسهُ قائلاً يا نفسي ان لك خيرات كثيرة موضوعة لسنين عديدة نعم كان لهُ خيرات كثيرة ولكن لم يكن لهُ سنون عديدة لانهُ في تلك الليلة المظلمة خطفت نفسهُ منه والذي كان يعد ذاته بامتداد الحياة لم يتمكن من التمتع بساعة من الزمان بل انقض عليه سخط الله واستاصله حينما قيل له يا جاهل في هذه الليلة توخذ نفسك منك والذي اعددتهُ لمن يكون (لوقا ص ١٢) هذا الذي كان يقول ماذا اصنع بغلاتي الكثيرة ولم يكن يقول ماذا اصنع بنفسي الفقيرة. هذا الذي كان يهتم ببناء مخازن واهراء لذخر الغلات ولم يكن يعبأُ باذخار الاعمال المرضية لله. ولانه كان يهمه حفظ غلاته مغضيًا عن جرايره الفظيعة استوجب شديد العقاب ومرّ العذاب. لانهُ ملعون الماكر الذي عنده في غنمه ذكر ويذبح الضعيف للرب (ملاخيا ص ١)

فاذًا اثمروا ثمرًا يليق بالتوبة ما دام لكمْ زمان لان الفاس قد وضعت على اصل الشجر فكل شجرة لا تثمر ثمرة جيدة تقطع وتلقى في النار (لوقا ص ٣) فلتثمر تلك الالسنة ثمرة جيدة باقرارها بما فرط منها من التجاديف والثلب والنميمة وشتم الدين والكلام الذي يكدر نضارة العفاف وتكفر عن هذه المآثم بالصلوات الحارة وتسابيح الشكر. افتدوا

خطاياكم بالصدقات نظفوا قلوبكم بالدموع انظروا تلك المجدلية التي غسلت قدمي يسوع بدموعها راجية ان يغسلها باطنًا من آثامها . ونشفتهما بشعرها الذي كانت تستخدمهُ كشبكة لاصطياد النفوس آملة ان ينظفها من اقذارها وسكبت عليهما من الطيب الذي كان بهِ رائحة الموت لنفسها وانفس محبيها ليكون لها به رائحة الحياة وان يملأ نفسها من طيب الرب . وبالاجمال نقول ان ما استعملتهُ قبلاً هلاكها استعملتهُ فيما بعد كفارةً عن ذنوبها وقد اكملت وصية الرسول القائل كما انكم اسلمتم اعضاءكم لعبودية النجاسة والاثم . هكذا الان اسلموا اعضاءكم لعبودية البر (رومية ص ٦ ع ١٩)

فليمنحنا الله نعمة التوبة الصادقة مثل هذه

التائبة المباركة لننجو من سعير تلك النار

الخالدة بشفاعة مريم البتول شفيعة

الخطاة ورجاء التائبين

وتوسلات جميع القديسين

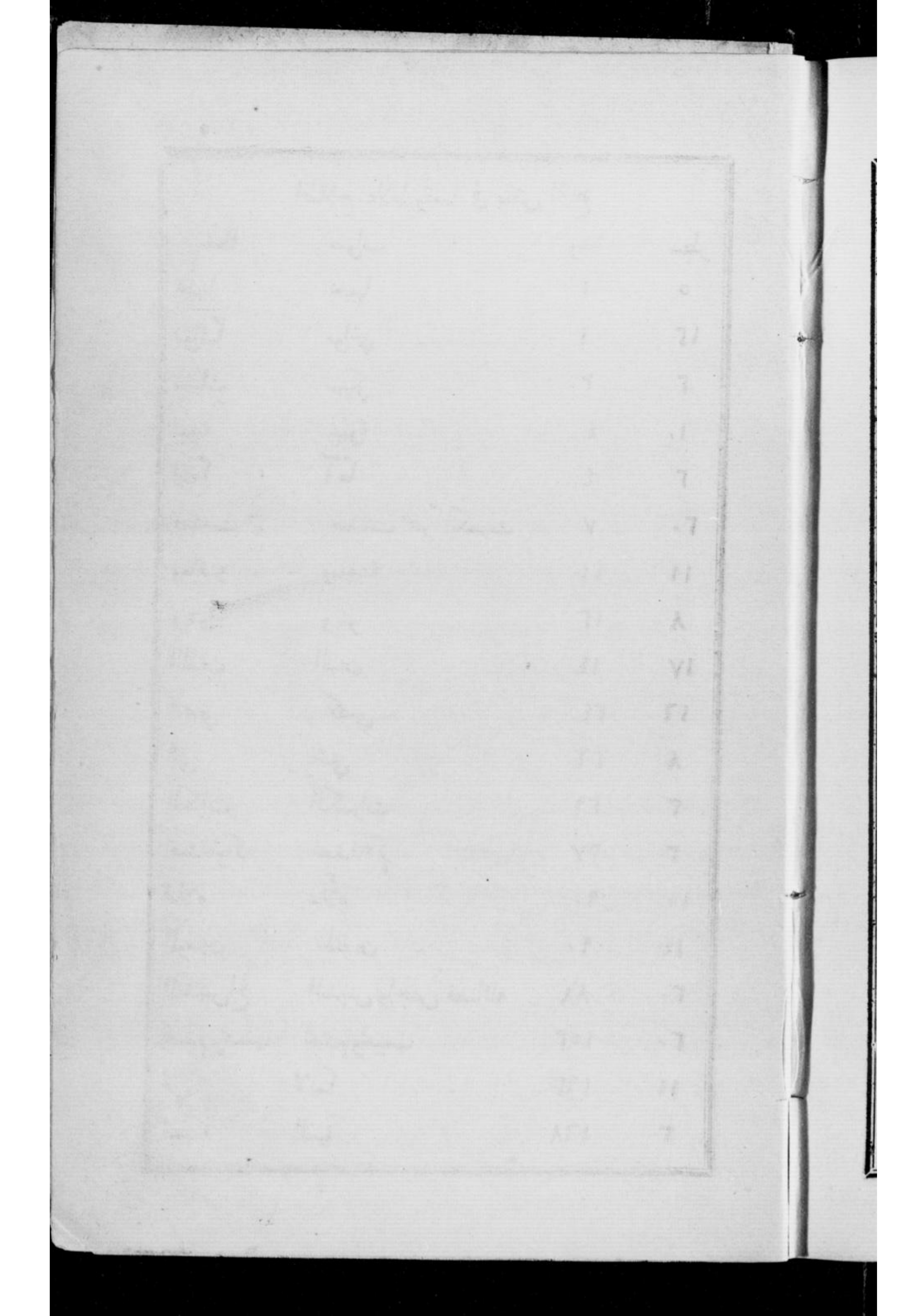
آمين

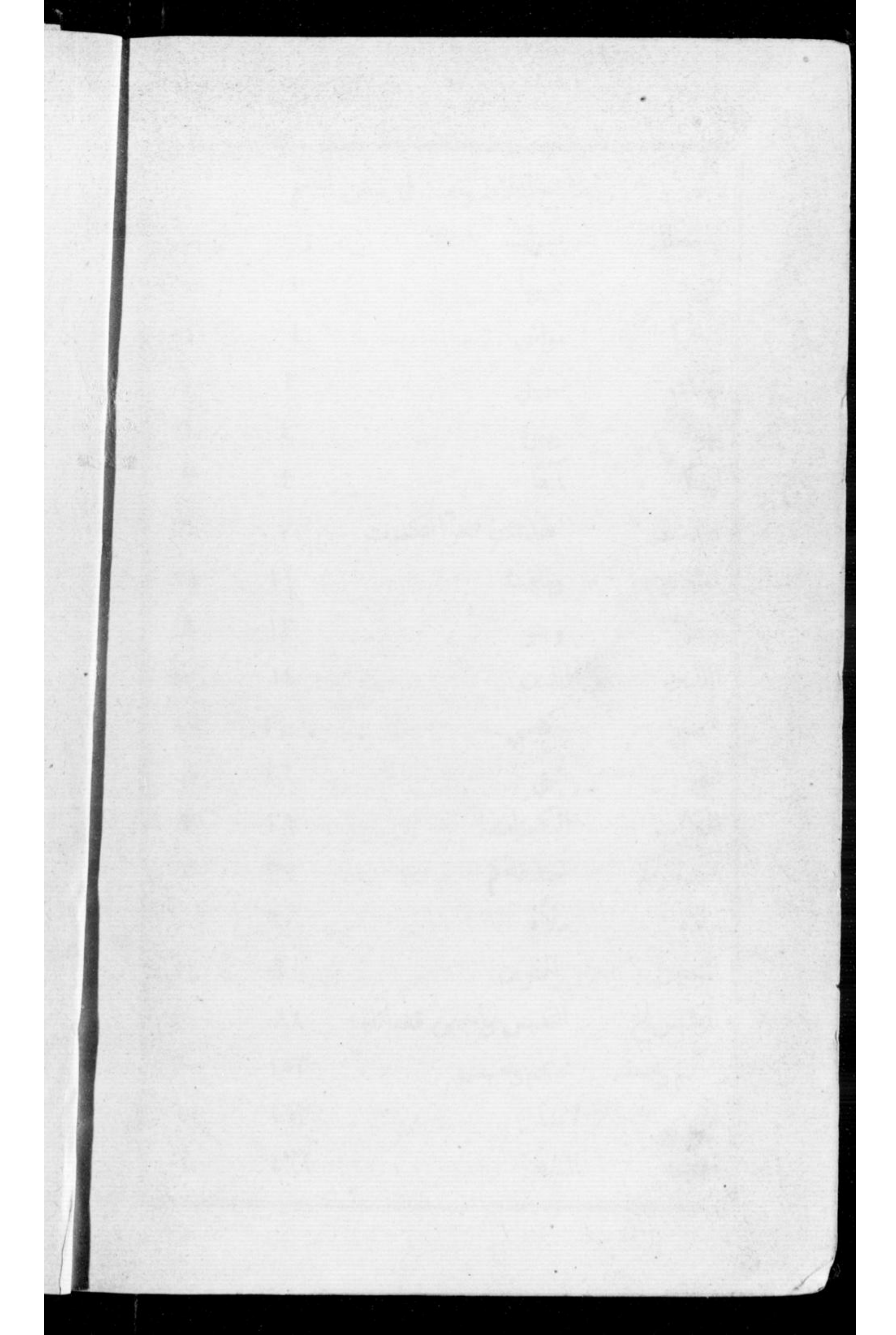


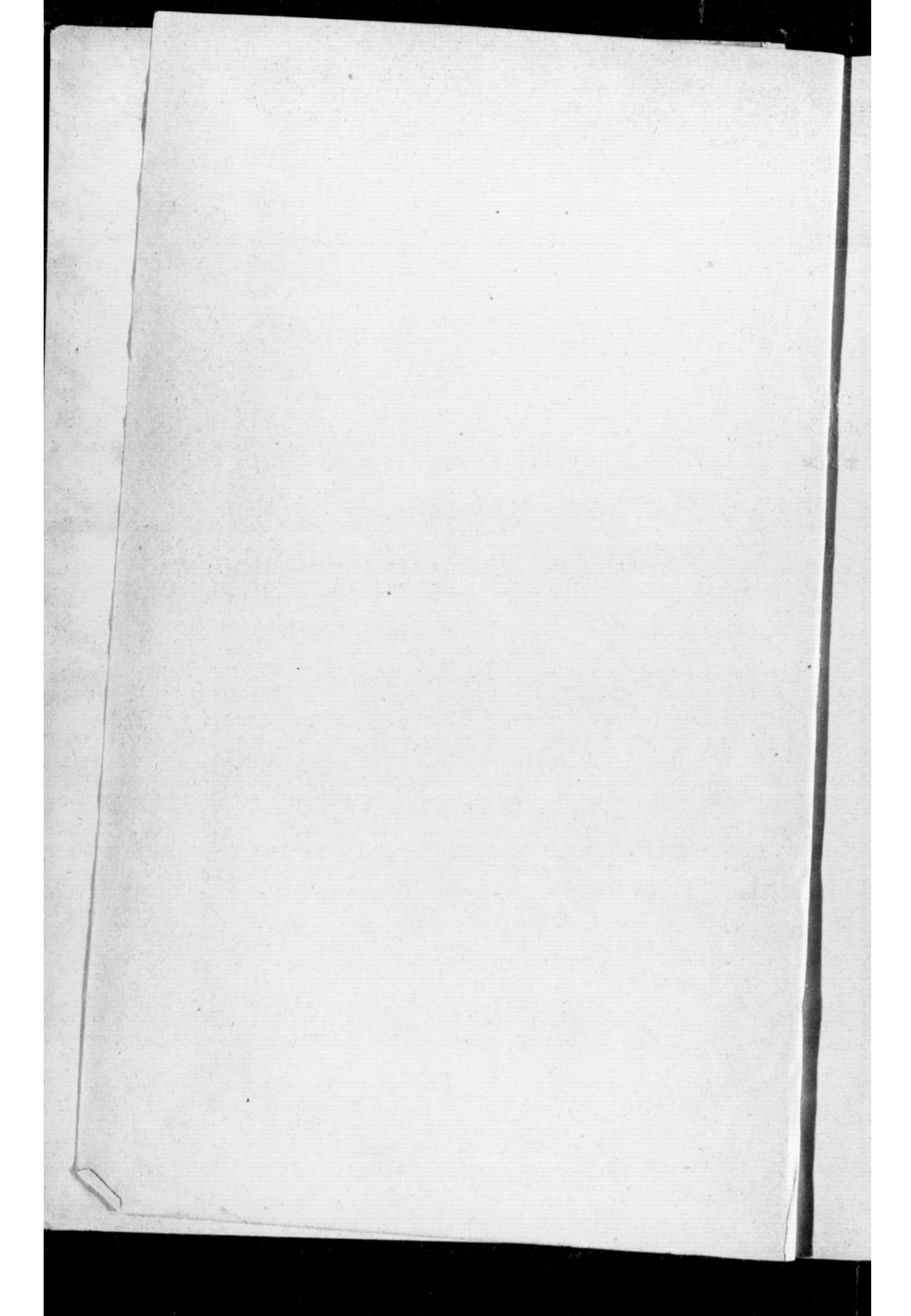
فهرست

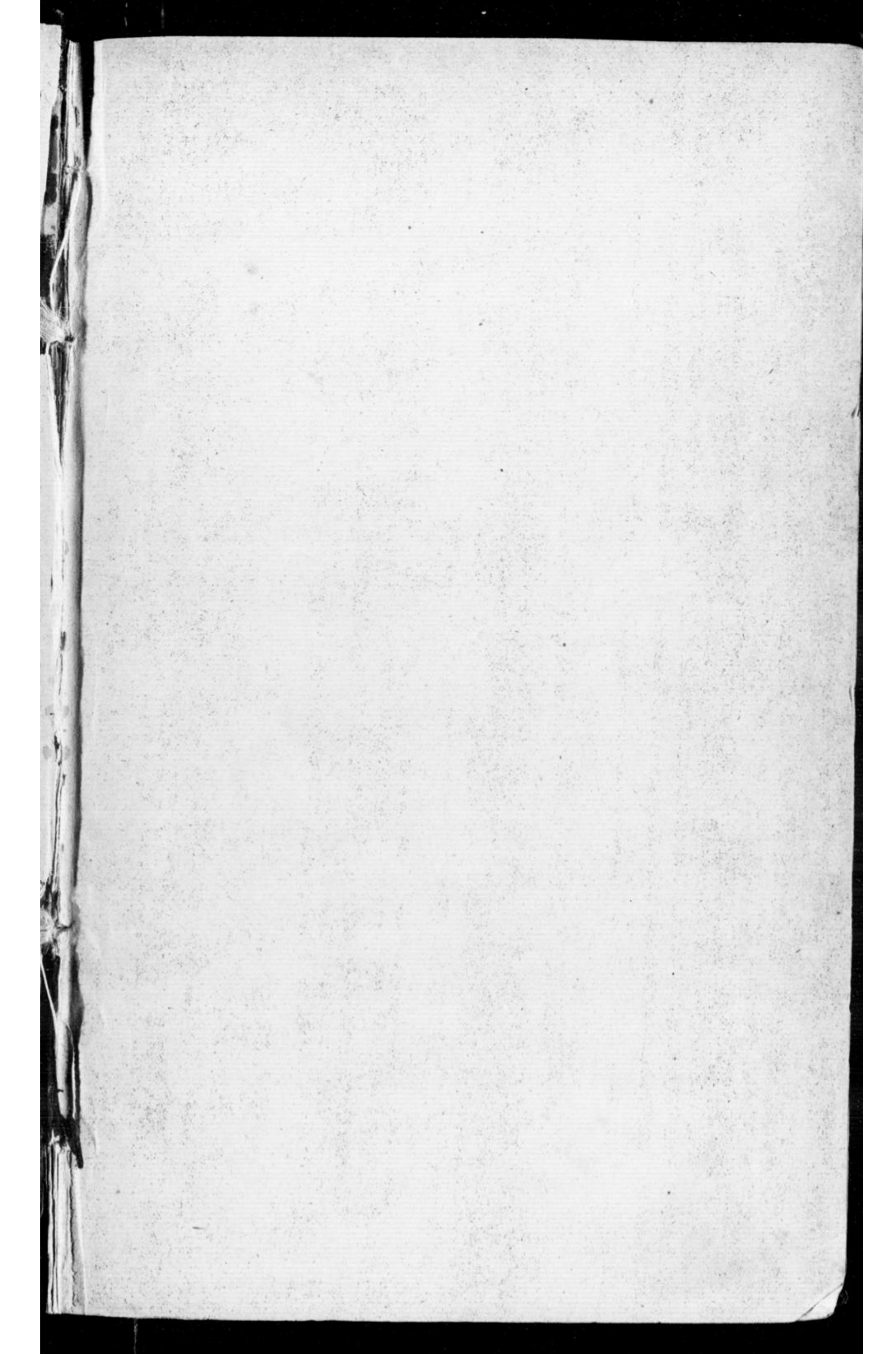
اصلاح اغلاط وقعت في بعض النسخ

خطا	صواب	وجه	سطر
محهبيا	محببها	١	٥
مواشيًا	مواشي	١	١٢
سيبيكِ	سيبكي	٢	٢
بهوتة	بهوة	٤	١
ايضًا	آهًا	٤	٢
صدمت	صدمت صخرًا انكسرت	٧	٢٠
وماهيتهِ	وماهيتهُ	١١	١١
وبنوا	وبنو	١٢	٨
اللذين	الذين	١٤	١٧
٠صبي	كصبي	٢٤	١٦
اثني	اثنني	٢٦	٨
الكرات	الكسرات	٢٩	٣
اصدقاوءكم	اصدقاءكم	٣٧	٣
املاه	ملأه	٩٠	١٠
المومنين	الممنوين	٩٠	١٤
القديس الخ	القديس واخص فضائله	٨٨	٣٠
نخندم ونحسب	تخندم وتحسب	١٥٣	٣٠
لان	لابسًا	١٦٣	١١
السبعة	السبة	١٦٨	٢









Kitāb lam□at al-□ain wa mul□at aš-šamālīyain

Šamālī, Germanus aš-
Šamālī, Stephan aš-

Bairūt, 1891